

عطشى لماء البحر
محمد إبراهيم مبروك
دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر والتوزيع
ت: ٠٣/٥٣٥٤٤٣٨ اسكندرية

عطشـــى لمـــاء البحـــر

عطشى لماء البحر

محمد إبراهيم مبروك

كمبيوتر: (دار الوفـــاء)

الناشر: دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر

شارع ملك حفنى قبلى السكة الحديد -

بجوار بلوك ٣

الرقم البريدى: ٢١٤١١ فيكتوريا - اسكندرية

رقم الإيداع: ٣٢٢٦ / ٢٠٠٠

الترقيم الدولى: 1 - 052 - 327 - 977

عطشى لمـــاء البحـر

قصص قصيرة

محمــــد إبراهيــم مبــروك

النـاشـــــر

دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر والتوزيع

ت : ٥٣٥٤٤٣٨ - الإسكندرية

نزف صوت صمت نصف طائر

"حاجز من الريح
كى يسند حزنى
فى هذا المساء"

إنجارتى

قالوا إحك بصوت مسموع، فتدفقت تغرق وجهى بسمة أسف لكلينا. أرهفوا الأذان ملهم يتلقفون الكلمات وهى ترفرف ساقطة ولم تزل ساخنة قبل أن تموت. ورأيت الجباه وموجات التقطيب تنتشر فوقها فابتسمت والمرارة فى شفتي : ألم أقل أن طيورى لم تعد تملك إلا جناحا واحدا ؟! ظللت أراهم وهم يعبرون متطلعين إلى عينى وما زالوا يرون ملامحى القديمة.. ولما لم يروا داخل حاجزى الزجاجى شيئًا أداروا وجوههم ناحية الطريق وواصلوا الخوض فيه، وعيونهم أسطح بحيرات جامدة لم تهتز. وفى عاصفة الظلمة التى خلفتهم تذكرت يوم كان لى لسان بأكمله، يوم كفوا عن السير فى ليل الخميس وأسرعت الخطوات لتنقطع ويمسى الطريق خاليا. وتتبعتهم ليلتها حتى أيقظتهم من خميس زوجاتهم على الغربة وأنا أسقطها بين المرتفعات التى نامت فى المنخفضات، تصلبوا فى الفراش واللهاث يتباطأ فى فزع ووجوههم إلى أعلى يحدقون فى أسقف الضوء الأحمر، وليس ثمة قدرة على تغيير الوضع، والمرتفعات تبرد وتكتشف أنها عارية والأنهار الدافئة التى كانت تجرى فى القمم تتجمد وأنفاس الزوجات تصفعهم بالصقيع والمنخفضات أحضان كانت تتدفأ مع المرتفعات فى ذاتها، ولما صحت على ابتعاد المرتفعات؛ خبت النار تحت تهطال الصقيع الذى تجمد حادا فى القاع، وسيظل يملأ الفجوات بلون ظلال الغربة لأنك فعلتها وأصبحت غريبة عنى.

لكن الذى يدهمنى ويكاد يفتك بى أن يجتاحنى فى لحظـــات غامضـــة إحساس بان الغربة قد عادت غريبة. وأقول ربما لأنه ليس حلمـــا .. فقد كنت أتنفس بكل جسدى وأعب الحب من رحابة الزرقة وســـهول العناق تمتد تتلاقى فى المنخفضات المنتقضة بالشوق وتغنى للعشـــب الصغير :

- أحضرت اللعبة لأمل ؟

ها هى يا حبيبتى. وصحت عليه : "أمل. تعالى".

وصرخ أملى :

- "هاتها يا أبى".

واستدار لينحنى محتضنا قاع المقعد ومدليا ساقيه ليهبط.

أخذت أحـل الخيط وأرفعه من حول صندوق اللعبة وأنـت منحنيـة خلفى وأنفاسك كانت حتى تلك اللحظة تدفئ عنقى. التقطت من جوار لعبة امل هديتى لك واختطف أمل لعبته".

عيد سعيد يا حبيبتى.

أخذت القلب الذهبى وملامحك الحلوة غامضة وفتحته فإذا بـــالغموض يكف بعد أن برق فى ملامحك قوسا دهشة فوجئنـــا بأننـــا معـــا فـــى الصورة داخل إطار القلب : ظل واحد يرتفع برأسين وأنـــت أقصـــر منى، ورأسك يتطلع نحوى عاليا راميا بجداول شعرك للـــوراء لكـــى ترتقى فى عينى المنحنيتين عليك، وخلفنا يلمع فضيـــا نـــهر التيمـــز، وعيناك متعلقتان بى كحمامة وديعة تتشبث بغصن يشب ويحملك مـــن وجه العاصفة. ولا ادرى حتى هذه اللحظـــة كيف حدث أن لاحظت التغيير فى عينيك. من أول ما عرفتك وأنا أرى وأقســـم بـــأن لـــون عينيك أزرق، أما لحظتها فلقـــد رأيت الطين يبرز ويرانى فيغـــوص خافيا نفسه تحت السطح الأزرق، وسمعتك :

- آسفة جدا يا حبيبى .. لقد فاتنى أن أحضر لك هدية، ولست أدرى كيف نسيت أن اليوم ذكرى زواجنا.

ضحكت لكى أهون عليك الأمر قبل أن تستقر بقعة الطين الغريبة فى داخلى حتى أنقذك :

- أوه، كيف تقولين هذا .. وهل نسيت أمل ؟! وأدار خديه الحمراوين وعيناه واسعتان صافيتان كسمائنا وصاح :

- انظر يا أبت كيف يغنى طائرى .. هل سيظل يغنى هكذا دائما؟.

وقلت له :

- "طبعا يا حبيبى، سيظل يغنى هكذا دائما". والتفت إليه وأنا أصوب السؤال وعينيك على : "أليس كذلك ؟" وأغرقتني بضحكك : فاختفى الطين تحت السطح. وسمعتك ترددين سؤال أمل وتفقدينه براءته : "للأبد" جوبهت بالسؤال، فكيف سيغنى للأبد طائر لن يظل. وانحنيت على أمل : "للأبد يا حبيبى سيظل يغنى لك". وبصوت خافت قلت لك : "الطيور لا تحيا للأبد، ربما لأنها لم تعرفه أبدا، لكنها تظل على أية حال تغنى طوال أبدها حتى ينتهى فتكف عن الغناء".

ورأيت عينيك مشتعلتين بالدهشة التى احترقت لحظة أن أدمت تأملها، فلم تعدا كما كانتا دائما فى عينى على شاطئ التيمز، فنسيت ماذا نسيت فى القاع.

استمر الصوت يتصاعد بجوارى، أكاد أشم فيه رائحة احتراق طيورى وهى تندفع لتسقط وريشها مسود فأحترق لطيورى وأتعذب وأرغب فى ان ينتهى كل ذلك لكنها لا تكف. وقلت للمغنية الأولى :

"اسكتى يا امرأة !". ولكنها لم تسكت لأن يدى لم تمتد لتوقف الصوت، ربما لأنها أطاعت إحساسا يجرنى بأن مواجهة موتانا أرحم بكثير من التحديق فى الأخر الذى يموت منا أمامنا، كما حدث

أن حدقت فى الليل البعيد القابع حيث كنت نائما.. آخر مرة كنت فيها نائما بكاملي :

بوضوح ... أننى تقلبت فى الفراش، فرفعت رأسي كالعادة لأصغى إلى تنفس نوم امل. سمعت السرير هادئا، وسكـــون تام يصدر منه، أدرت رأسي فخيل لى أن الغرفة تتغير.. لم أكن أصـــدق أن التخيـــل سينتصب بصوت عال هكذا ليفاجئنـــى، عندما وجدت الظلمة تستحيل إلى ملاءة سرير خالية، وأحسست بأنى لا أملك القـــدرة علـــى إدارة رأسى أو حتى التحديق بإمعان إلى جانبى فأصغيت أكثر فلم يرن فى أذنى سوى صوت قلبـــى الذى أخذ يتعالى حتى سمعته كمـــوج أكـــاد أختنق فيه فقفــزت من الفراش وإنحنيت على أمل فلم أجد أمل تحت الغطـــاء انكفأت راجعا فتعثرت فى السرير. لم أتأوه لأنه لم يكن ثمة وقت لا للتفكير ولا للتأوه فاندفعت ناحية الباب. ولا أدرى ماذا جعل جبهتى تصطدم بحافته لأحس بها تنشرخ وتنغمس فى لهيب جعلنـــى أصطدم بكل شيء كأعمى يبحث عن القلب الذى كان يرى بـــه فـــى عماه. وأخذت عيناى تفران من قسوة اشتعـــال الغـــرف والشرفـــات الخالية والطرقات فى الضوء حدقـــت ببصرى فى الطريق، فنســـيت اللهيب فى جبهتى لما رأيته خاليا .. وإذا كنت، فلابد أنك انتهيت منه منذ زمن طويل.

وأخذت كل المصابيح تنطفئ فى عيني ليشتعل فـــى رأســـى اللـــهيب والعمى فتسمرت مكاني لكى أتلفت جيدا علنى أعثر عليك، لكننى لـــم أتعثر إلا فى الليل الذى استغربته لما وجدته يفقد سكـــون السواد ليعج بأضواء الصمت التى تعمى تماما، وفوجئت بأقدامى يشتد صراخـــــها فوق أرض الغرف ودرجات السلم وأرجاء الحديقة وهى تهرع مقتربة منك حتى تكاد أن تعثر عليك ثم تتوقف فجـــأة فى لحظة ما قبـــل أن

تحتويك مصطدمة باللا شئ فيكف النداء الذى يتهاوى ساقطا مكانـــه مكوما بلا أمل فى النهوض.

من المذهــل أننى أحس الآن، رغم أننا فى الليل، بالأشعــة الحارقــة تنحدر فى عينى من ضحى النافذة ثم من ظهيرة النافذة والدموع بعــد ما تحول العرق إلى ملح فى جفاف جرح جبهتى تتحول إلـــى ملـح يلهب جفنى، وشفتاى اكتشفتا أن الكلام ليس سوى تعذيـــب ينتـهى بالقتل فلم تفتحا فمهما بكلمة. وحاولت أن أثبت أن رجولتى تتحمــل وأواجه قسوة التحديق فى الشمس فلم تسمـــح لى برؤيتها. ولم أرفع كفى لأظلل عينى لأن ما سأراه فى الظل هو ما أرفضه دائما. كنــت أشتهى بكل ما تبقى من حطامى فى الرؤية لكنها لم تســمح. وحيــن مزقت غمضة عينى بتعمد مفاجئ فى مكان جسديهما انـــهارت فـــى عينى الضيقتين تـــلال تراب الشمس .. لسع مكان عينى وفشلت فـــى أن أبكيه طينا فانتزعت الريق من تحت لسانى كـــى أهـدئ سـعير الجفاف فى حلقى وهو لا يبتلع ما يواجهه. وتسرب صوت ضحكـــة أمل فلم أصدق من الفرح لكنه شحب فجأة وابتعد الصوت وهى تجرى به متخفية بعتمة الظلال فاختنقت. أخذت أتلوى على ضلوع الوسادة بلا جدوى، فكففت عن التلوى. كنت أظن أن التعب سـيريحنى مــن المعاناة، بالذات إذا كانت الضربة قد دمرت نصفك، لكننى من مكـــان الضربة بدأت أسمعه، غريبا على أذنى ما سمعته فى داخلى من قبــل ينطلق فى العواء من مكانه دونما قدرة على الابتعاد بالعواء، ولا يكف عن الصراخ الذى فقد صوته لأنه لا يملك القـــدرة علـــى أن يواجــه الصمت. والصـــوت تقب ضيق حافته المستديرة فى حـــدة حـــواف الشفرات، والكلمات قبل أن تخرج خارجى تواجـــه بشفـــرة الدائـــرة الضيقة وهى متقدة بوهج الشمس، ويتعالى الصراخ من الطائر قبل أن

يدفع برأسه فى الثقب ليكتشف بعد الضربة أنه فقـــد رأســـه. ومـــا يسمعونه فى الخارج ليس سوى دوى الصرخة المكتوم فى داخلى يرن فى جلدى قبل المرور، وما يحملقون فيه لا يعدو المحاولـــة اليائســة للجناح الواحد. وما يشاهدونه بوضوح هو طيورى بعـــد أن مـــرت بعنقها خلال دائرة المفصلة. وكل بقعة دم نقط عديـــدة متباعدة تـــنز وتلمع وتنمو وتتصل مكونة نصف طائر دموى يحملق دون أن تطرف عيناه كما لو فقدتا قدرتهما على أن تتألمـــا فظلتا شاخصتين مشدودتى الجفن تحملقان فيما لا جدوى من إدامة التفكير فيه لأن هذا كله يبـــدو أنه سوف لا ينتهى.. لكننى رغبت للحظة ودومت بى الرغبة.

وصلت حيث كففت عن الصعود، محنيا رأسى بالرغبة ويداى تقبضان على حافة السور القصير المحيط بالسطح، والأرض شريـــط عميـــق أضيق من جسدى رأيتها فحدقت فيها بأسف. حملت ناظرى وشفتـــى مزمومتين فى قلب السماء الحجرى. تأكدت من اللا جدوى ما دامت السماء لم تعد تنبض، ورأيت السخف الذى أخذ ينشع ويجتاح الاتساع الرهيب مبتلعا كل شئ، مظلم يعج بالنجوم الميتة، وضجيج الصمت يجرى فى عروق أصابعى موجات تغلى تصطدم بالحاجز فترتد بذعر لابد وأنه وجد منذ الميلاد معها، مهزومة المرة تلو المرة، والقلـــب لا يكف عن ضخ الأمواج الضائقة بالمعاناة، وجدوى أن نظل نتـــأرجح دون توقف مع صبر البحر اليائس، والموج حركة ميتـــة، واصطـــدام الميت بالميت يحدث صوتا أكثر وجودا منه الصمت.

وسوف تنشر جرائد الصباح الخبر فى الصفحـــة الأولـــى، وبعدهـــا يطـــوون الصحف لتستحيل إلى عصى قصيرة من الـــورق الملـــوث بعرق أصابعهم على حبر الطباعة. والخبر الذى غامـــرت بوجودى لكى يوجد حتى تفاجئنى به قد طمس هو الآخـــر فضحكت. أخــــذت

أبتلع ريقى المر عندما ووجهت بأنه قد يحدث كل شــئ وأنــت فــى مكانك الغامض لا أدرى أين من هذه الكرة، ولا أســتبعد أن تكونــى على فخذيه لأن فخذى اللذين عبرت بك البحر عليــهما قــد تلاشيــا، ويحدث كل شئ، وسيان أن يحدث فــى ضجة أم فى صمت طالما أن الزمن لازال يملك محونا، ولم تعرفى بعد حتى أننى لم أعد موجــودا فلا داعى إذن للاختفاء بالطفل من كائن لم يعد يستطيع تعقبك والبحث عنك لأنه ببساطة لا يستطيع أن ينتقض فى الكفن ويزيــل أى حجــر مثبت فى المقبرة بعظام الأصابع الخمس لأن عظام الرسغ لن تحملها عظمة الذراع ربما لأننى مت أو فقدت الرغبة فى أن أطارد حبا مات فــى قلب يملكه الآن أعداء. أحسست البرد فعدت للفــراش وحــدى لكننى لما جعلت أشم مكان خصلات شعرك ومكان رأســه الصغــير أحسست بأننى لست فقط وحدى، بل عدت أرتعد وأحــس بأعضــائى الساخنة ترتجف لأننى عدت مبتورا.

- أدخل. الباب مفتوح. ضع الزجاجات هنا. هات اللعبــة. شــد الباب وراءك.

تصــورى أن غرفتنا هذه الليلة بلا مزلاج ! آه لو عرفــوا ! طــول عامين وهم يرون الباب موصدا لأننى وعدت بذلك، ومن عامين وأنا أنتظر أن تأتى وأسمع فى تشف صوت باطن كفك يدق الباب مستجديا فلا أتحرك وتنادين وأسمع صوتك فلا أرد وأسمع جسدك كلــه يــهز الباب وجبينك ينشق ووراءه تقترب نداءاتهم وتوسلاتهم فلا أزيد عــن ملء الكأس من جديد أبتلعه جرعة واحدة ثم أمسك بالكــأس الفارغــة والضجيج يتعالى متوسلا، وتوسلك لابد أن يرفرف فوقــهم جميعــا، مظهرا نفسه، ومنكسا حتى أحس بأننى لا أحس حتى بأننى أزدريه بل

يتدلى كسروال العاهرة فأقذف الباب بالكأس صارخا فوق ضجة الاستجداء.

- لا.

لكنى الليلة رفعت المزلاج. وفتحت النوافذ كلها لكي ترى الضوء من بعيد لأنك آتية فأنت لا يمكن أن تنسى أننا أبحرنا وودعنا التيمز في مثل هذه الليلة. تصورى أنه حتى درجات السلم ساكنة أمام الباب كما لو أنها تتسمع صوت خطواتكما وعقربا الساعة جديدان هذه الليلة بلا تراب .. يتحركان كجناحين يرغبان فى أن يرتفعا لينطبق طرفاهما كطائر يحلم بأن ينطلق معتليا ذروة الزرقة فيضم جناحيه كحربة مشرعة فى وجه الزمن الذى يصر على أن يأتى دون أن تأتى ويكف الطائر عن عبث الرغيف فى الأجواء الضحلة ليثبت بالذروة قادراً ومرتكزاً على داخله فقط دونما سقوط لكن لماذا قلت يرغبان والأعداد واضحة ؟!.

صدقينى لا أعرف كيف سيحدث أن أنتبه فى الظلمة على وقع الخطى وهى تنسل عائدة، والمسافات بين قدميك تولد وتموت، وقدما الطفل، ويدك تقبض على كفه الصغير تهرعان بالحذاء الذى اشتريته له بحجم قدميه اللتين كنت لا أتمالك نفسى من الضحك كلما أمسكت بهما بين أصابعى لأدغدغهما متصورا أنهما قدمى وقد عادتا فجأة صغيرتين، إذ أنه يحاول بعناد الطفل أن يكون بقدمين كقدمى لكنهما ضئيلتان إلى حد مضحك :

قدما رجل هاتان يا أمل ؟!.

يخيل لى أننى اسمع دقاتها الصغيرة والمسافات بينهما لا تكاد تولد حتى تموت، بل أكاد أحس بالسير الذى أنهكه ينهك جسدى، وأعضاءه اللينة ولحمه الطرى يشتعل، ومع ذلك لم تنفرج شفتاه

الشاحبتان طوال الطريق ليشكو لك : "أننى تعبت" ويظل يفكر بعينيه الواسعتين فى ظلمة سور الشجر الأخضر التى ستتلاشى من أمامه لأنحنى عليه وأختطف جسده الضئيل من فوق الأرض وأطوى عليه صدرى الذى كاد ينبت فيه الجدب وأظل أرتوى منه وأنا أقبله وأتحسس بوجنتي تفاحتيه وأضغطهما بشفتى طويلا لكى اصدق ما ظللت أستحيل تصديقه. والغريب أن ذلك يوجد الآن كمستحيل لا شك فيه مع أن ما حدث قبل عامين وهو ما أحياه الآن كما يحيا الموتى الموت دون شك كان يبدو لى مستحيلا كاستحالة رؤيتى وأنا حى للحظات موتى التى لم أخضها حتى الآن، وإن كنت مشحونا بتوقع لوقع غريب.

- قلت لك لا تغلق باب الحديقة حتى لو طلع الفجر. دعها مضاءة. ارفع الزجاجات الفارغة أولا ثم شد الباب وراءك، قلت شد الباب.

أصبح غريبا جدا هذا الرجل، لأنه سمعهم يقولون ذلك لا يكف عن النظر برثاء مسرحى إلى الزجاجات الفارغة كلما رآنى يقول لى حرام .. ستقتل نفسك. لابد أنهم رددوا أمامه ذلك أيضا. أليس من السخرية أن يحسبوا أن الخمر هى التى ستقضى على !.

أننى أراهن على صندوق بأكمله، أن يقف واحد منهم فى مكانى هكذا : عاريا إلا من عريه، متوقعا للصفعات التى لن تهبط على جانبى وجهه فقط، بل يتلقاها كما حدث ذلك دائما بطول جسده الذى ينكمش خجلا من أنه يصفع بينما هو عار .. آه .. أن نصفع ونحن نرتدى أنفسنا أمر يجعلنا نقهقه على الذى وجه الصفعة، لأنه فى اللحظة التى تكاد راحته أن تعصف بنا يجدنا فوق رأسه ننفجر بالضحك وهو منكفئ على الأرض، مصفوع بداخله لكن أن أقف عاريا طوال عامين وسط عواصف الصفع هكذا، شئ يجعلنى أوغل فى التحمل أكثر مما

لم أكن أتصور قبل أن تهوى صفعتك هى الأخرى فلم أحس بالصفعة، فجأة هوت واختنقت بالسخط حتى استحلت إلى أصابع مشدودة لقبضة أحست بالصفعة في جسد تنتمي إليه فارتفعت وليلتـــها .. آه.. أكــاد أحس بوقع كل ما حدث يتحرك ثقيلا، قاسيا بين حوائط رأسى :

ارتديت ملابسى برغم أننى لم أكن حتى تلك اللحظة سوى عار فـــى ملابس، وفى الطريق أخذت أحس بضآلتى، مـــهان يتحــرك علــى الأرض، وقامتى لم تكن أبدا أطول كما كنت أرغــب، توقفت لأخــذ سيارة حتى الحفل لكن إحساسى بأننى عار تحت الملابـــس جعلنـــى أحس بأننى سأختنق بسقف السيارة.

كانت ثمة رغبة نائمة في العرى كعاصفة يمكنها أن تغرق كل الجزر التى جئت منها لو تأكدت أنك هناك. ولأننى لا أعرف حتى الآن أين أنت، فقد كان ذلك ما جعل الرغبة الملعونة مـــازالت لـــهذه اللحظـــة أسمعها تزمجر عاضة أسوار جسدى الضيقة. غذذت السير بطيئـــا، لافا العاصفة بمعطف أسود بلون ما استحـــال إليه وجهى الأخير الذى لم تريه .. والذى تلاشى كل شئ فيه ما عدا الجفنين متهدلين بالليـــالى الميتة.

جعلت أتأمل المدينة بعد أن رفعت رأسى قسرا لأننـــى لـــم أصفعـــك بعـــد، ولشد ما وجدت المبانى الحجرية عالية، والأضـــواء الملونـــة ترتفع بوميضها فى الليل كمستحيل يتألق أمام عينى المهتزتين من يوم ما فقدتا الكائن الذى كان يشدهما فتثبتـــان عنده فى داخلى. ضيقـــت جفنى لأغلف انتصارها بنظرة تتوعدها بأننى سأريها عند عودتـــى أن الذى صنعها إنسان، وأن الكبرياء الذى تسخرين به منـــى أنـــا الـــذى صنعته، وأن الإنسان، كالعادة، سيظل قزما طالما هو يبنـــى خـــارج نفسه.

وهبطت بناظرى إلى السائرين بقامات تخجل من قصرها إلى جـوار علو المبانى فى أيدى النساء، وامتلأت إحساسا بأنهم أقزام، فأسرعت هاربا منهم.

غصـت فى بحر الناس الذين جاءوا لينتصروا فأحسست بالانتعاش، والأضواء تتنفس فى الأسقف، وتنبض فى قلب القاعة فتتوهج فى وجه الحوائط والقاعة تضج خلفى بالمقاعد الممتلئة عن آخرهـا .. حتـى الهواء يبدو معلقا بدخان السجائر المتوتر بالشوق المشدود فى الصمت الذى سقط فجأة، ثم فى الهمسات وآلات التصويـر بالسـواد اللامـع والفلاش المنتظر بعدما أطفئت الأنوار فأصبح كل كائن فى القاعة عينا واحدة تستعد للاشتعال لكى تسجـل صـورة الصفعـة، واسـتحال الصمت إلى سور مصمت يحيط القاعة، وتلك كانت المـرة الأخـيرة التى كان الصمت فيها صمتا كالذى كنا نعرفه فى القرية : بـلا لـون ولا ضجة. سوى دقات القلب التى تنسحب من تحت الأسوار لكـى تتنفس فقط.

وتحت وقع النغمة الأولى أنهار أول حجر من السور، وسمعـت مـع تتالى وقع النغمات تتالى صوت انهياره تماما كاشفـا عن عـالم لـم يحدث سوى مرة واحدة فى حياتى أن رأيته، ربما لأنه غريب، فلـم يستطع أن يظل بعد هذه الزيارة فى مدينتى حتى لا يموت إذا تنفـس هواءها الذى نتنفسه الآن. لحظتها، سمعت موجات اللحـن تخطـو قادمة تحت شلال الضوء الذى اشتعل حولك فى البعيد حيث لمحـت فوق قمم الموج المضيئة نقطتين قاتمتين، وأخذت الأمواج تأتى وتكبر، والنقطتان تفقدان بالتدريـج حدة العتمة، وأفاجأ بك فوق الموج، وأقسم أننى عرفت أنه وجهك على الرغم من أنه لم يكن الوجه الذى عشقته، وعلى الرغم من أن وجهه كان فى ظل وجهك إلا أننى رأيته كما لـو

كنت أتحسس ملامحه الدافئة وأصابعى تراها بوضوح وتنزلق مداعبة خصلات شعره الشمسية اللون رغم الليل والذى لازلـــت لا أصـــدق نفسي فيه حتى الآن أننى لم أر تحتكمـــا زورقـــا، بـــل لازلـــت أرى بوضوح أصابع قدمى كل منكما والضوء يغسلهما فيلمعان بالماء فوق قمم الموج ويأتيان.

ظللت أحيطك بحدقتى وأسمع الصوت الذى يحترق مخلصا ليصـــدق، لم أكن أصغى تماما فقد كان التحديق فى ذاته إصغاءا أسمع من خلاله قدومك والزمن سلاسل تتحطم حولك وأنت آتية، ومـــــازلت أستسلم للذهول كلما غصت فى التذكر لأعثر فى وسط اللحن على الصـــوت الذى انبثق، غامضا كالميلاد، صغيرا مفضضا، صـــاعدا ومواصـــلا الصعود، متسعا ورافعا أمام وجهك هامـــة مـــن الكبريـــاء، الحـــافل بالملامح المتألقة بقوة حتى أن عينيك أصبحا لا تطرفان بل ســـاكنتان تتعذبان بالرؤية فقط، والطفل فى ظـــل وجهك يحدق فيما يراه دونمـــا بكاء، يصطدم فقط بالعالـــم الذى يبدأ فى تحطيمـــه، والمـــوج يـــأتى والصوت يتناثر صانعا بحيرات نقيةً على قدر أفواه الطيور الصغيرة المدببة التى أخذت مسحورا أحس برفيف أجنحتها يصحـــو وينطلـــق صوب الشطأن الخضراء من داخلى حاطا على البحيرات ثم طـــائرا ليحط معانقا ينبوع الصوت فى شفتيها. وقمت أخيـــرا بعدما ارتويت بالفرح معها لأستقبل الموجات الآتية بالضوء حتى عدت قريبة جـــدا، قصيرة أمامى، ترتعين فى عينى، وهو نائم بلا ذعر تحـــت وجـــهك، وتلاشى الإصغاء فأصبحت أراك فقط والموجات خلفك لا تتوقف عن الإتيان بك وأنت تغالبين الابتسامة حتى تعطيها لشفتى فقفـــزت مـــن مقعدى لأختطفـــك من فوق قمم الموج وأختبئ بك منهم فى فراشنـــا، لكن رعدا من التصفيق أنطلق خلفى كسياط بطول الظـــهر فتذكـــرت

فجأة أننى جئت لأصفعك أمامهم. وأنهم يصفقون الآن لأنـــهم رأوك فجــأة بعد أن هربت ويئست منك وأصبحت أمامى فانهرت مشــدودا بسياطهم إلى جوف المقعد. ولم أعد أملك إلا أن أنظر فـــى عينيـك وأبكى من أجلك فى صمت والموج يتدافع آتيا فلا يجعلك ذلك قـــادرة على الفرار من أمامى ومن رغبتهم فى صفعــك وعدت أرى عينيك تهتزان فى أمل كحمامة نهر التيمز، لكن ساعــدى مصلوبــان علــى ذراعى المقعد وثقلت راحتى عندما عدت أسمع الكلمات : وعــــود .. وعُود .. وعود .. فلماذا وعدت، ونحن فى الشـــرق نظــل نعبــد الله ونموت ونحن نعبده أيضا لمجرد أننا قطعنا ونحن صغار وعدا بذلـــك !!، إزاء صمتى لم تفعلى أكثر من أن غرست فى عينى شعر رأســك المنكس فلم أملك أن أتحرك. ظللتُ مصلوبا على ظهر مقعدى أتأمل الملامح وأطحن الرؤية للملامح المثقلة بالغربة، واحفــر بحثــا عــن الملامح لنهر التيمز التى غاصت كضوء نجمة احترقت، فلماذا نتغير بسرعة ونحن لم نعشق فى العالم إلا أن نظل ؟! لماذا لم تظل الدهشة لكل ما أفعلـــه، والفرح أكثر من وقع نزهات خطواتنا فـــى شـــوارع لندن، وكنت غريبا عن المدينة لكنى لما وجدتك استرحت وارتويــــت تماما من الإحساس بأننى أصبحت أملـــك عاصمـــة الإمبراطوريـــة، واستسلامك فى حضنى ذكرنى بحلم قديم عندما كنا صغارا ونخـــاف من خوذات جنودكم التى تصلب شمسنا فوقها بأن نستعمركم كما فعلتم معنا، لكنى وجدت فى استسلامك شيئا أراهن أن يكون قد حصل عليه قائد الأسطول الذى وطأ جسد أمى لينتهكه بعد أن خرت جسدا بـــاردا مطعونا بلا يدين، ونظرته لجسدها العارى تغرقه بغثيانها من رؤيتـــه. لكنك كنت إمبراطورية تستلم بالحب، كالإمبراطوريات التـــى كـــانت تتعرى وتفتح فتحـــة الرداء الأمامية بكامل طولـــها لنعـــال الجنـــود

المسعودة. عرفت يومها معنى ان ينتصر الإنسان فأخذتك فى حضنى وذراعاى لا يتركان من كل جسدك رقعة لم تتغطى وفى صدرك القادم برغبته رثيت لكل قادة أساطيلكم الذين علقوا فوقكم "قفا الشمـــس" لأن وجهها الحقيقى كان وحلا يخوض فى الليالى المهزومة.
وعندمـــا كنت تتوقفين بذراعى فجأة فى الطريق لتقدمينى لأصدقائك :
- "شاعر من مصر".
كنت أرقب الزهو يؤرجح جسدك فيسمق جسدى وموجات التيمـــــز تعلو لتذكرنى بالنيل فى ظل الجسر عندما كنت أسير وحـــدى أتـــأمل الأشياء فأحس بأننى غير قادر على الرؤية تماما ورغبـــة فى أن أرى عالمنا مع إنسان يراه معى، وإحساس فى رؤيتـــــى بـــالعطش لذلـــك الإنسان لم أحس به وأنت معى أبدا، ولم أعد أستطيع تصور عودتــــى وملامحك الضاحكة بجانبى ليست بجانبى على سطح الباخرة، وفـــــى إحدى المرات بعد أن أيقنت أن محاولة التصور مستحيلة رفعت عينى من مياه التيمز ورفعت كفك فى باطن يدى وعانقت فجوات أصـــابعك أصابع يدى وهمست لك :
- لا أتصور أن تعانق أصابعك أصابع أخرى.
واشتد لهيب خديك وهمست وعيناك على الأصابع المعتنقة. "صدقنى، ولا أنا".
فأخذت أحدثك بفرح عن أمى وأخى الصغير والناس الذين ستســـعدين بهم فى بلادى وكنت تصغين كما لو أنك تسمعين ابتسامتك. وأقـــول لك أخى الصغير فتضحكين وتعتصرين أصابعى وفى عينيك تسارعت موجات النيل تمرح بين ضفتى التيمز.
وسمعت صراخ أمل : بابا .. فصرخـــت طيـــورى كلـــها وصفقـــوا واحترق الصوت من المغنية وتدفق الموج بقسوة ثم اشتعـــل خـــداكَ

كحريق يضئ البحر وبعدها انطفأ كل شئ عندما انفجرت الأضـــواء لاسعة فى القاعة وأخذت أرى الإرهاق معقودا فـــى نقـط العــــرق وبسمات غريبة تنبت وسطه، وكثيرون يصلحون هيئتـــهم ويجيئـون ليهنئوننى وكنت أبتسم كطائر سرقته السكين ثم يتدفقون من الأبـــواب الضيقة تاركيننى وحدى، أواجه بأن الانتصار على إنسان ليس ســوى تأكيد الهزيمة. تسللت خارجا فلمحت ظلمة الشارع قابعة منتظرة أمام الباب. وعاد السور مع الظلمة ليرتفع أقسى من الجرانيت بيني وبينك لأننى أنـــا الذى بنيته ولم أعد أستطيع أن أهدمه، أسرعت بالاحتمـــاء فى عربة فعدت أذكر تهانئهم والسعادة المجهدة تتالق فى مياههم.

كانوا يريدون ذلك لحظة أن حدث كل شئ مـــع أننـــى كنــت أود أن أعانقك ساعتها لكنهم صفقوا فرفعتُ وجهى بعيدا عن رغبة عينيـــــك وفعلتها. وجوبهت بالمبانى العاليـــة وأحسســت أننــى لا أســتطيع مواجهتها.

وعندما رأيتها والأضواء فوقها مطفأة أدرت وجهى وصفعته بالأرض حيث اعتاد أن يحيا لكننى وجدت من خلال واجهة العربة الزجاجيـــة أننا ندوس أشلاء منا مازالت ترتجف.

"أى" نطقتهـــا وأنا أستدير ودقات الساعة تعنف قاطعة بلا شك، وأفاجأ بالجناحين يرتفعان فى أعلى الدائرة وحدها وأنت لم تأت فبدأ ينفرجان ليبدأ سقوطا لا ينتهى .. حدقت بيأس فى النافذة ولم أر ظـــلا واحــدا يتحرك، بل سكون الطرقات النائمة حولى ككلاب بغيضـــة تحمل ثقة مفزعة فى أن أحدا لن يوقظها ولن يجعلها تصحو أبدا هذه الليلة، حتى المصابيح رغم أنها ظلت تقف فى طابور لمسافة طويلة طوال ليـــالى العامين تتكاسل بمرور الوقت كما لو كانت تعرف أن مهمتنا قد انتهت فنامت هى الأخـــرى ملتفة بضوئها كله دون أن تترك منـــه شعاعـــا

واحدا ليقود اللذين قد يأتيان. حتى درجات السلم يئست لما سمعت زحف السائرين على الجليد ولم تسمع خطواتك. نكست رأسى على لعبة الطفل الصامتة، والصدأ ككل عام قادم والكأسان لن يشما رائحة شفيتك وجننت فلهثت حتى رأيت الأرض السحيقة أضيق من جسدى والسماء أضيق من الأرض فكيف سيتسع قلبى لهذا العالم الذى لا يتسع لرغبة واحدة ؟ وأحسست بالأمواج تتدفع إلى أصابعى لتسقط، وحاولت أن أعود بجسدى لأن أمل صرخ فلم يطاوعنى فصرخت ليسمعنى، والأرض تصعد متسلقة الحائط بشراهة قط حتى انقطعت الصرخة وانطفأت الأضواء كلها واشتعل جسدى وأنا أحاول أن أحتضنك فلم أجدك فى الفراش ولم أجدنى. وأخذت أغمغم وأنا أشرق بالدم والخادم يصرخ : سيدى: والمغنية الأولى تكذب باسمي يا .. ا .. م .. ل ..".

صعق الخادم لما رآه يتحول دما بجوار الحائط يحتضن الأرض والعشب باختلاجه قاسية تشدها كلها ثم رأى فمه يبتسم وعيونه مغلقة، ويموت، ومازالت المغنية الأولى تخلص للغناء وتكذب!.

(مارس ١٩٦٦)

مسيـــح المراســـم المحالـــه

فى البدء لم يكن. حتى اللا شئ لم يكن موجودا، لا الصوت ولا حتى الصمت. فكيف ولدت يا رفيف الضــــوء لتترجـــل فـــى الدروب التى لما تجف دماؤها بعد، تبذر فى العيـون المظلمة بــذور شجيرات النور، تصرخ تظن أنه سيستيقظ إنسان، أفنيــت أضــواءك لتضئ طرقات انقطعت عنها خطوات الكلمات، فقــدت كفيـك لمــا غامرت بطرق عالمهم الغريب وصرخت يا أبت : ما أتاك. حدقــت فيهم : ما سمعوك أدرت وجهك نحو الزيتون : فجعـل ينتحـب فــى الصمت، وينضج المرارة فى كل حصاد. كــان صليـب العــالم أن يذكرك العالم، لكنهم جوعى، نسوا الحزن فأكلوا الزيتون، ومن يومها وهم يجمعونه من مواسم الأعوام، ويملحون صوتــك فــى أحـواض البحار الميتة، ثم يأكلون جسدك المنهك مطوحين بالعظم ولقد جعــت فحدقت فى الزيتون يوما مثلهم، لكنى رأيت النحيب فنسيت الجوع ثم فقدته، وأمعائى تتقلص طاردة مجرد النصور، فاكتفيت بأن أشبع كلما شممت زيتونة، ثم تنبهت إلى أننى صرت أقتات الحزن، ماضغا فــى بطء مرارة الكلمات التى ماتت ترجو الدخول، علــى عتبـات الآذان الطينية :

مصلوب الآن علن لا أرضك([1]) لمــأصرخ، لكنــى لا أملك ألا يسقــط منى رأسى فوق الآن، مجبرا على تحمل قدر الوقوف على قدمى الحائرتين فى اكتشاف طريقة آمنة للوقوف ورأسى يحترق

بيقظته، يواجه بوضوح حاد تكوم الجثة التى حسبت أننى نسيتها، فإذا بى أفاجأ بأننى كنت فقط نائما بالنهار، فجعت لما اكتشفت أن التناوم لم يعد يجدى فى الهرب من الجثث، إذ ما فائدة أن نهرع ونطفئ الأنوار ونختبئ فى الأسرة ونسحب الأغطية حتى نخبئ رؤوسنا بأكملها، مـا دمنا فى النهاية نفاجأ بأن لا النوم، ولا إغماض عيوننا تحت الأغطية يحمينا من توغل الإدراك لبشاعة القابع فى داخلنا، يحدق فينا بثبـات كما لو أنه يرى فى الظلمـة بوضوح، مع أن ملايين عيونه مغمضة، إى أن تحديقة الأعمى يفزع النوم، ويجعل الغطاء يتطـاير والأسـرة تتقلص تحتنا، ونحن نرتعد ببرودة التحديق الثقيل فنضطـر إلـى أن نستسلم لعيوننا التى تتفتح كمصراعى نافذة بلا هوادة، فتصلب عيوننا علـى التحديق دونما قدرة على النزول. وأحاول فى يأس يتكـرر باستمرار تبين ذلك الصوت الغادر الذى يهرع قادما مجنونا دونمـا قدرة على تتبـع مجيء واختفـاءات لونه

١ - مساحات صمت تتخلل الكلمات وهى ليست فاصلا، بل امتـلاء غير مرئى بكل ما تعجز عنه اللغة المنطوقة المحيطة بها.

السريعة أو الفرار منه كما لو (   ) لماذا تصفعين جبهتك وأنا أتكلم ؟ لا تفهمين ما أقوله ؟

ألم يحدث لك يوما أن تقلبت من داخلك على جمرات جحيـم العالم المفعم برائحة شواء البشر ؟ سوف أصرخ لو ادعيت أنك حتى لم تشمى رائحة شواء البشر.

لم يحدث ذلك أيضا ؟ يا للمصيبة. مع أن أغرب مـا فـى عالمنا أنه المحور الوحيد الذى يدور حوله العالم، أقصد سيخ الشواء. لذا تجديننى لا أستطيع تحمل الوقوف به وهو دائما يدفع إلى داخلـى. وما أطول ما عشت أدور به مع جنون استعار النـار التـى تشتعـل تحتى، صاعدة فى انتشار فظيع حولى، متقدمة تجاه الآن لتصل إليـه

من خلالى حتى أسود. وإذا كنت سترهقين نفسك بـــالتفكير دون أن تفهمى دائما، فيمكنك أن تحاولى الرؤية، بشرط الرؤيـــة فقـط، دون صراخ أو اغماء، لأننى لا أطلب منك أكثر مـــن أن تقفـى بعيــدة، يحميك من مشاركتى الزمن، وفقط تديرين عينيك نحو ما صنعه العالم حيث يمكنك أن ترى مومياء مطلقة اللحية، ساكنة متخشبة على أنها، فاعبرى. ولو أننى أعرف أنى لن أتمالك نفسى من الارتعاد وشفتاك يرتعد بحضنهما ولدى فارتعد كلما حدقت فيمــا بينـهما ووجدتــهما مزمومتين. فرجائى أن تعبرى بسرعة خلفي، وأمل أعرف ألا جدوى منه ألا تتركى فى السواد أثرا. ولــو مــررت كشمعــة منطفئـــة. مجنون من تترك يداه حافة النافذة ويستدير ملتفتا مهما يســمعه يئــن ويموت بين شفتيك. وسأعلق أصابعى من أعناقها بحافة النافذة، واشد على الأعناق الوثاق، وسأطبق بأسنانى على عنق الغمغمـــة حتــى لا تثير ضجتها ككل مرة، لأننى أكره أصوات النــدب الصارخــة، ولا أطيقها الآن لو حدث أن رأت الغمغمة مسير عينيك، وصوت ولــدي. لأننى أعود هناك، فى النافذة : صغيرا وحافيا، لأننا لم نكن نحس بأن الأرض غريبة عن بطــون أقدامنا. وأرتدى جلبابا صغـيرا وتحتــه قميصا قصيرا دونما سروال، لأننى أحب دائما أن أقف أمام البنـــات ذوات الضفائر لا تحدث مع واحدة منهن بالذات أبحث عنـــها كلمــا سقــط الليل وأطل عينيك فأجدك. أخذك بعيدا وأنت خائفة. آخذ فى الكلام فلا تعودى تذكرين الخوف وتتكلمين أنت أيضا لى. ونحب أن نفرح، فيرى كل منا رغبة الآخر فى الفرح فى عينيه رغـــم الليــل. ونبنحنى معا نصنع من التراب جدرانا بارزة على الأرض المســتوية، تنقطع لجزء فيكون باب. ثم نكمل مربعا من الجدران، وبذلك نكــون قد نكون قد صنعنا بيتا لنا بجوار النهر، أتركك تكنســـينه وتفرشيــن حصيرا وهميا، وتعلقين على الجدار فـــى الليــل مصباحــا وهميــا.

والغريب يا عذراء أنه كان يضئ. وإلا فكيف كنــت أرى ملامحــك الصغيرة بكل دقتها، بل حتى عينيك وحنينهما الأزرق تحت خصــل الذهب المهملة على تفاحتيك ؟!. وأدعك لبرهة أذهب خلال نــهارك للحقل، احرثه، وأبذر البذور وأغطيها ثم أنتظر حتى تبيــت الشمــس لأعود لك. وأدخل وأنا أرسل صوتى منبئا بقدومــى، هــازا ســاقى بحركة متسقــة مع سير الحمار الوهمى الذى يحملنى وأنــا أنــادى :

افتحى يا بنت. وتهرعين صوب الباب لتفتحينه بأكمله راغبة دخولى بلهفة أم. وأندفع متعمدا ألا التفت ناحيتك كما يصنع الرجال. وأجلس فتاتين وعلى كسر الفخار نقتات العشاء، ونشبع. وأغرس فى فمــى ورقة ملفوفة غير مشتعلة وأنفثها أمامك وافتل شاربى ويداك تعدان لى الشاى. وعندما تنتهى سيجارتــى وتفرغ أكواب شاينــا تتثــاء بيــن فأفهم. وأخفض صوتى آمراً أمرا حلوا. قومى وطى اللمبة وكما لو أن الغرفة أظلمت تأتين بجوارى لتنامى فأستلقى على جــانبى لصــق صدرك. ويفتح كل منا عينيه فى عينى الآخر ونرى السباحة مغرية. ويجعلنا الإغراء نشتعل بالرغبة،فنتململ على الحافة ونضحــك علــى التوالى كل منا فى عينى الآخر وفى لحظة صمت نبرق بالصمــت على أن نسبح معا، فنرفع معا أطراف جلاليبنا. ولتلك اللحظة كنــت أمشى بلا سروال فى شارعنا عند اشتداد غروب ذلك اليوم. أحسست بالليل يأتى ففرت هاربا من فخذى أمى لأبنى لى معك بيتــا، لكنــهم داهمونى بالملابس السوداء مالئين الشارع الذى يمر فى بطن الخضرة منتهيا عند زرقة السماء القاحلــة حيث كانت المقابر ترفع رؤوســها المدببة الجهمة. ورنة الندب عاليــة محروقة وهم يحملون لى ميتــا. صعقت فالتصقت بالحائط وهم يتدافعون أطول منى فألتصق بالحــائط أكثر. ظلوا آخذين فى الصوات. والصوات أعلى منى بكثير، نــافذا فى جسدى كنباح الكلاب التى تجرى خلفى تعضنى. رغم الذعر لــم

اصرخ. كنت أدرك بذعـــر أقسى أن صراخى لن يخيف صواتــــهم فظللت متشبثا بالحائط، وعندما اختفوا عدت قـــادرا علـــى الفـرار.

فأرجوك أن تمضى بسرعة حتى أريح ظهرى المصلوب أمام عينيك. وحتى أكف عن إيلام شفتى كلما سعرت الكلاب وعضتنــــى دون أن أملك الصراخ فى أفواههم. لكنى الآن أرفع وجهى وأســأل : أليس حراما أن نصلب ؟ وهل تعرفين يا عذراء لماذا حكم بالصلب دائما ؟ لا تعرفين. ولا أحد يعرف للأســف لكنى الآن أستطيع أن أهمس لك بالسر دونما خوف لأن كلا منه يحاصره زمنه ويحميه، ولذلك فــإننى لا أحس بالخوف الآن وأنا أعطيك السر : لأن الذى صلبوه لم يكن له أب. ولما لم يجد أحب بجنون أن يكون له ابن ليرى أباه فى عينيــه. والمصلوب الذى لم يلد، لأنهم عاجلوه بالصلب، عشـــق يؤمـــا ولـــذا صلبوه. فالذين يحملون قلوب اليهود كرهوه وعندما كانوا يرفلون فى ثيابهم المغسولة أمامها ويسمعونها صوت الذهب فى أكياسهم، كـــانت تتأفف من النظر نحوهم أو حتى من أن تدير وجهها عنـــهم. كـــانوا يسلكون دوما سلوك الأفاعى الغريبة.

ومعشوقته أتت مثلك. نعم، ظل بلا معشوقة حتى الثلاثيـــن. أتدرين لماذا ؟ نعم، كانت أمه عذراء. وظل يحب العذارى ويهيم فى الطرقات ولا يجد.

أذكر كل اللواتى رأيتهن قبلك يا عذراء : كن حبالى. رأيت عيونهن وهى تلد. وتحـــت الرمـــوش المهزومـــة تتـــهدل الأثـــداء. وعندمـــا كنت ألقاهن فى طريقى وأفتح لهن صدر عينى كن يســـلمن عيونهن لى بألم ويهمس : لم نكن ندرى أنك سوف تأتى، ولكم بعنـــا أرضنا بلا ثمن. نكست رأسى وعدت أهيم بـــالثمن المحتبـــس فـــى صدرى.

ولكم أخشى أن تستغرقى فى الضحك لو أخبرتك بما حدث لى يوم لقيتك، وأن عالما بأكمله من الممكن ان ينقلب رأسا على عقب لمجرد أن يتعرف الإنسان على الإنسان يكفى أن أذكر لك أننى قبلك كنت لا أتحمل رؤية الأشياء، وأحيانا الناس، بل قد تندهشين لدرجة الفزع لو اعترفت لك بأننى أحيانا كنت لا أطيق أمى. وأشد ما يصيبنى بالاشمئزاز من العالم، مواجهتى بالمحطمين فى الطرقات. بالذات بعد ما يئست من إمكان انتشالهم بعد ما رأيت العالم كله وهو لا يعدو كومة من حطام.

وعندما كنت أدخل كهف الغم، كنت أرى قبل أن أرى أى شئ كل ما سوف أراه : الغم يتراكم كذرات الغبار المتساقط فى أعمدة الشمس المائلة، يثور بالكنس ثم يعود ليتساقط كثيفا قاتما فوق أمي واخوتى، والأشياء، مالئا الأرض. لكن ثمة فرق واحد أن الغم في بيتنا لم يكن يثيره الكنس، وإنما مجرد التنفس، لأن الكلام كان تلال الغم ذاتها. كنت دائما أدخل فأرتمى على الحشية الجامدة على نصف سرير. وأشبك قبضتى تحت رأسى، وأهرب من التحديق فى أشياء بيتنا، فأحدق مرغما فى السقف الذى يظل ينخفض فوقى، ودونما خوف، كنت أتنهد طاردا كل أنفاسى وبى رغبة واحدة تحتل مكانها : ألا تعود.

وكانت تقترب ثم تقف بالطعام " طبق فى يد ورغيفان باليد الأخرى. تضعه وتغيب وأحدق فى مكان اختفائها رائيا فى يأس موجات الغم التى تجاهد لكى تتحرك فيها، وتعود وبيدها قدح الماء. تضعه أمامى وأنا أتابع قبضتيها المبتلتين من غسيل القدح الصدئ. وكل منهما تقبض على الرقعة المقابلة لها من الجلباب على الفخذ لتجفف نفسها به. ولذلك فالجلباب دائما ملوث عند فخذى أمى لدرجة القذارة (   ). وأتذكر أننى سمعتها، ومن تذكرى لصوت

لهجتها أعرف أنها سألت إن كنت أريد شيئا آخر. وأرقب الطعام لفترة طويلة ثم أهز رأسى بالنفى. لكنها لم تكن تخرج بسرعة. كانت تبطئ كما لو أنها مرغمة على ذلك بدافع خفى، ولم أكن بالطبع الذى يدفعها لذلك لأننى لم أكن أبتسم لها فى هذه السنوات الأخيرة أبدا. ولابد أن شيئا فى داخلها كان يرغمها على أن تتعمد الإبطاء فى الخروج لتقف مسافة الوقت التى تكفى لأن تسألنى فيها إن كنت متضايقا من حدث وقع لى. مسافة الوقت فقط صامتة لأنها لم تكن تسأل. ربما لو كان ما تراه فى وجهى يحدث لمرة أو مرتين كما كان ذلك فى الزمن البعيد لكانت سألتنى. لكن لابد أنها يئست لما رأت الإجابة من أعوام طويلة لا تتعدى الصمت، والإغراق فى التجهم. ولابد أننى كنت أخيفها بحالتى تلك إلى الدرجة التى نخاف من أن تسألنى، إذ كانت تبطئ فقط فى الخروج لتتأملنى بحسرة لا تنقطع، هذا إذا لم أفاجئها وأحدق فى عينيها مباشرة، أما إذا حدث ورفعت عينى فى عينيها فكانت عيناها تتراجعان بسرعة منسحبتين خارج الغرفة أمام الـ (   ) وأضيق بكل ما حولى. ومن خوفى أن تعود وتجدنى لم آكل الطعام الذى قدمته إلى، أقوم لأنكفئ على الخبز البارد، أقطعه وأغمسه فى طبق الطعام البارد ثم أدفعه إلى الأسنان التى تدفعه بدورها إلى البلعوم المتصلب فى برودته فيكاد الطعام يجرح حلقى. واستسلم بعد ذلك للمضغ حتى أجد الطبق فارغا والقدح هبط الماء إلى نصف صدأ جداره، فأحس بأننى امتلأت. وكان ذلك يعنى أنى شبعت صدءا. وربما لذلك السبب غسلت أسنانى جيدا بعد ما دهشت لما صادفتك تثيرين فى عتمة البناء الصخرى رعشة الظلمة حول إحدى السمكات المضيئة و (   ) أبدا، لقد استنفدت كل قدرتى على التذكر، علنى أعود أحيا تلك اللحظات البعيدة، واكتشفت للأسف أن كل ما أستطيع استعادته لا يعدو

خارج التحول : الشكل، رنين الصوت، لمسات اليدى، أما هو، ما هو داخل كل هذا، فأننى أعجز تماما عن أن أوجد فيه. بل أوقن الآن أننا لا توجد مرتين أبدا. وما أذكره بالتحديد ليس سوى شكل النافذة التى التقينا خلالها.

كانـــت رقعة مستطيلة رحبة من السماء ترتفع وتـــهبط فـــى منتهى الصفاء على قمم إنحناءات خصلات شعـــرك الطويلـــة التـــى كانـــت تصعد من فوق الجبين الشاهق، صانعة أقواسا مذهلة لدرجـــة أنها بدت قادرة على الزهو أمام وجه إله. ثم تتحـــدر رشيقـــة نحـــو مؤخرة العنق حيث تتجمع كلها من فوق رأسك وعبر أذنيك ملتقية فى ثلاثة أنهار طفلة، أخذت تتوهج فى لعبة لم نصنعها ثلاثة أنـــهار فـــى العالم أبدا، إذ تجرى الأنهار الثلاثـــة وتبدأ فى الغوص والبزوغ كـــل منها من تحت الآخر علـــى التوالى دونما اختلاط أبدا. مضيئين بلا شمس لعبة شاهقة الروعة لا تنتهى إلا عند أسفل الظهر، حيث عقدت شريطا سماوى الزرقة توقفت عنده شقاوة أنهار ضفيرتك يا عـــذراء. ولا أدرى كيف واتتني الجرأة على التوقف عند أنـــهارك، ربمـــا لأن جسدى قبل هذه اللحظة كان مشحونا بالتقزز مـــن العالم، وأحسســـت برغبة طاغية : أننى أرغب فى أن أغتسل حتـــى النخـــاع. وتحلـــو الرغبة في الاغتسال كلما راقبت لعبة أنهارك. وعندما صرت إلـــى جوارك كانت الأنهار لا تزال تواصل لعبتها، وفى اللحظة التى تلقيت فيها ابتسامتك توارت الأنهار لتأتى أمواج تولد بلا توقـــف، تعـــزف سيمفونية غامضة أحـــس فيها رغـــم كل الغمـــوض بـــأننى آتـــى ويتلاشى العـــالم

الوصمة (   ) أصغى، وأتأمل شيئا رائعا يولد فى عالم لـــى ( ) لا، ليـــس هذا ما أود أن أقولـــه. أقصد كائنا رائعا (   ) لا ليـــس هذا أيضا. ربما، أو، آه. ملعونة هذه اللغة التى بدأت تمـــوت

هى الأخرى. تصورى يا عذراء أننى أحب مجـــرد الكـــلام الآن، فأفاجأ بأن أسنانى تصر على ألا تسمح لى بالكلام، وأننى مـــهدد الآن بألا أكمل حكايتى لك، وأن ما حدث وسوف يتحول إلى ماض يمـــوت ونحـــن وراءه دون أن أقـــول لـــك (   ) يـــا عـــذراء. أو (   ) يا عذراء. آه، لن أحتمل طويلا لو ظل هذا يحدث. لكن للأســـف، يبدو ألا مفر من ذلك، وأننى لن أحكى لك أبدا عما حدث فى حيـــاتى لحظة إن اصطخبت أنهارك لحظة أن رأتنى - ربمـــا كميـــلادى، أو ربما ككل ميلاد، يوجد دون أن نستطيع رؤيته بوضوح، ولا نستطيع التعبير عنه بصدق أبدا. ومع ذلك لا أستطيع أن أكف عن المحاولـــة رغم جدار البعد :

شفتاك منفرجتان، تسقيننى الأضواء. والسحابات فى نافذتى الشرقية تخضر حول عالم جديد يتبدى فى الشروق، وابتسامتـــك التى تشرق دوما أمام دهشتى وسؤالى المتطاير الذى لا يكف :

- كيف جئت إلى هنا ؟!

- انس ذلك الآن.

وظل الفرح يدفع بسؤالى كيف جئت، ومـــن أيـــن، وأنـــت تحيطين بعينيك وجهى كله وتصمتين. وعندما ألححت مـــن أيـــن؟! أدرت وجهك. لن أنسى أبدا أنك أدرته إلى بعيد. أبعد مما يســـتطيع أن يجذف أى إنسان. حيث (   ) أبدا لن أعرف. كـــل مـــا أذكره جانب وجهك والبسمة تنزلق من فوق خديك متلاشية إزاء مـــا تنظرين نحوه. ثم ترتعش فى الشفاه وتموت، والأمواج تسكن. كانت رغم كل ما يجتاحنا فوق علو الطوفان بـــالداخل ســـاكنة مســـجونة بالصمت وكاد الطوفان الذى صحوت عليه يومها أن يتلاشـــى دفعـــة واحدة فأهوى مرتطما بالقاع الصخرى.

وتحركت أصابعي بسرعة نحو رسغك، وتسلقت وبر السترة الزرقاء الخفيف ولمست بشرة اليد : كانت يدك تختنق وتسكن لـيـدى، ووجهك يعود لى، والطوفان يعلو ويتسارع بكل ألق الشموس التى لم تنر العالم من قبل، والبسمة تنبثق وتـــدب بإيقـــاع هـــائل الفوضـــى والتناسق. والموجات الفرحة تعزف مستحيلا يوجد.

- كان قاسيا ؟

لم يكن له وجه إنسان أبدا !

كنـــت أعرفـــه، لكننـــى لم أتصـــورك أبـــدا إزاء الـــــ ( ) وسألتك دون أن أتمكن من إخفاء سخطى :

- لماذا عشقته ؟

وحدقت فى الــ ( ) ثم ابتسمت بسرعة :

- رغم كل أعوامك الثلاثين فمازلت طفلا.

انتزعت من سخطى ابتسامة مماثلة لكنها كانت مثقلة بالحزن فى شفتى :

- لقد عانيت تاريخك كله فى البحث.

- أعرف. ولذلك السبب فمازلت طفلا.

فالأطفال وحدهم هم الذين يعانون فـــى البحـــث. الكبـــار لا يبحثون عن شئ.

وضحكت فجأة كطفلة شقية :

- دعك من الســـؤال. فى ذلك العالم لا يمكن أن يسأل أحد. إذا لـــم يمت سؤالــــك فسوف تموت أنت. بل حتى أنت لا تملك أن تحيـــا أو تموت. كل ما تملكه أن تعانى وجودك، وأن تحدق فـــى المســـتحيل بصمت.

وعاد الحزن يجتاح الأمواج المشرقة فتسقط فى أسر العتمة.

وهززت رأسك بعنف.

- آه. دعنا لا نذكر الجحيم حتى لا نحترق.

تأملت عينيك طويلا، والصدق الناصع النقاء كأقواس المطر. ودعنا لا نذكر الجحيم حتى لا نحترق. لم أكن بعيدا لحظتها، لكنك كنت فى جحيمى عثورا، وفى العثور الذى أحيا دائما فقده، نسيت كل شئ وأصابعى تحبو، نملك الراحة، ثم تحبو أكثر فتستقبلها الأصابع الخمس، وأربع بوابات عذراء تفتح فى لحظة شوق للأصابع الداخلة. وبرقت عيناك لى، ثم برقت الشفاه بالرجفات المشتعلة، واجتاح البريق كل الوجه فاشتعلت منارات العالم خلف كل إبحار، ورأيت الشواطئ. ولم أملك إلا أن أبتسم رغم كل الفرح : كان قاسيا، أقسى مما يستطيع الإنسان أن يتلقاه، وكان فجائيا، ولم أكن معدا له، اجتاحنى فتطايرت بجانبك لحظتها وارتفعت. كنت أصعد مسحورا كطائر دمر البقاء على الأرض أجنحته. وفى اللحظة التى كاد يشوى فيها بالجحيم الزاحف من كل اتجاه، رأى الشواطئ تجئ خلف الرحيل فى فرح المنارات، وخلف الفرح كانت الدهشة تدفعنا للفرح أكثر، ولم نجرؤ أن نسأل إن كان الجحيم قد انتهى، كنا ننسجب كل منا نحو الآخر، بعيدين عنه حتى لا نعود نحترق، ويضيء كل منا بابتسامته وجه الآخر والفرح يهطل فى موجات لا تنقطع.

واشتد صفاؤه يغمرنى حتى بدأت لا اشك فى صفاء ملامحى وهى متفتحة نحو الشروق، بحيث جعلت أحس بانصباب الأضواء وارتواء بشرتى التى أخذت تتوقف لتتأمل ببطء ما تحت غبار الأشياء، وأنا أغوص فى أمواه الدهشة وطعم العالم يبدأ فى التغير : المرارة تبدأ تنخفض من فوق جدران حلقى وتغيب، وربما لأول مرة أو ربما لمرة ثانية أحس كما لو أنها أول مرة بل يخيل لى أننى ذقت تلك الحلاوة من قبل. كأنها من قبل كانت مفقودة، أو غائبة. لأننى عندما ذقت حلاوتك أحسست بها مختبئة، غامضة تتيقظ وتعود، كما

لو أنها فرت من عالمي قبل ذلك كقطـة صغـيرة حاصرها كلـب يقارب على الجنون. ربما ذلك أكثر وضوحا. ففي اللحظة التي بدأت أعثر فيها على طعمك الحلو تفجرت في جسدي كله فأحسست به يحلو بشكل غريب، حتى أنني بدأت أتأمل كلا من راحتي وأذوقها بلساني لفترة طويلة ثم أبعدها وأتأمل شفافيتها التي تزايدت لدرجة أنها بـدأت تضئ وانسياب أصابعي حتى نهاياتها ( ). وأخذت أقبـض يدي وأبسطها كما لو أنني أكشف عن قوة ذراعي ثم تحسست فكـي وذقني وأسفل شفتي. كنت أحيا عطشي إليك، وكنت بلا وعي أدلـك شفتي فأحس بالحلاوة الغامضة على لساني، وبدأت راحتي تـهوى لمس شعري الخشن، حانية عليه، صانعة منـه خصلات قوية فـوق جبهتي تعلو متكبرة كما لو أنها تبدأ في مواجهـة العـالم. وكلـها إحساس رائع بأنها قادرة على أن تواجه. وبدأت أخاف على جسـدي من التراب. لا أفهم السر بالضبط، لكن ما أذكره أنني بـدأت أهبـط النهر كثيرا لأغتسل. وأظل لساعات غير محدودة بين المياه الحلـوة الدافئة وهي تغسل جسـدي وأنا أتأملها بشغف تتدافع فـي موجـات صغيرة تهطل بين شعر ذراعي وساقي الذي كان يتموج مـع الميـاه التي لا تتوقف عن الجريان. وكنت أتعرض لنشوة طاغيـة عندمـا أنتصب وأتأمل هبوط القطرات على جسدي الشاهق وهي تحيلني إلها مصريا يغتسل تحت شلالاته.

ومـا جعلني أستسلم تماما لتيار الدهشة الذي بدأ يسحبني بدء رؤيتي للعالم كما لو أنني أكتشفه يا عذراء : اكتشفت أن جسدي كـان يختبئ فيه كائن يملك أن يجعلك تبتسمين له، وأن الجحور الجبلية التي كانت تحاصرنا فنختنق فيها بيوت ولها نوافذ، وأن الشـوارع ليسـت سراديب نمل، وأن الأشياء ذوات الرأس الواحـد والأربعة أطـراف، والتي ترتدي مزقا مضحكة من النسيج وتتحرك مشدودة إلى الأرض

دائما، لم تعد أشياء، انبثقت منهـا فجـأة عيـون فـأصبحت تـرى.
وعندما كنت أتأمل أى واحد منهم بدهشة، كان هو الآخر يتأمل عينى.
وتصورى أن يستحيل شئ إلى كائن لدرجة أنه يسـتطيع أن يبـادلك نفس التصـرف ؟! نعم، بل حتى تماثيل الثلج، أدفأتها الضحكة التـى لا تنتهى فى نافذتى الشرقية فأصبحت أتأمل بحـب غريـب شكـل تسريحات الشعر، وإيقاع الخطوات الرشيقة التى تنظر إلـى الأمـام، والثقة الغريبة فى أن الطريق يخضع للسير، بل كيف يتمطـى الكحل فوق الرموش الممدودة ويحمر اللون الأحمر فوق الشفاه، بـل وفـى مرات عديدة، لاحظت أن عيونهن أخذت تلمع، وفكرت بفرح تجتاحه الدهشة كيف حدث أن تحولت كتل الثلج إلى إنـاث، بل والأغرب من ذلك أننى أخذت لا أستبعد أن تكون بينهن عذارى.

ولما دخلت بيتنا لأول مرة وأنا أحملك، وجدت أمى مـازالت جالسـة مستندة بظهرها على جدار الغرفة بجوار السرير الصـدئ.
جعلت أقترب منها وأنا مندهش لوجودها على هذه الحالة التى أوشكت أن تكون أبدية (   ) حاولت أن أتذكر متى بدات تجلس هكذا، ربما قبل وجود الزمن الذى نعرفه أو المكان الذى يأسـرنا، أو حتـى الشمس كشمس. أحسست بالاكتشاف يجئ كطعنة الـــ (   ) ماذا صنعته كى توجد وتظل هكذا ؟. وأخذت أعانى رؤيتـها وهـى توجد. والشمس تتسلـط عليها وتحركات الدود المولود، ثـم وهـى تصلى لمن وراء جحيم الشمس وجنات المطر وتسأله الطعام بعـد أن فعل فعلته.

لكن الغريب أنها لم تكن تشتكى لى منه، وكان يغيظنى أنـها تعشقه رغم كل تعذيبه ولا مبالاته بها.

وبـدأت أعانى من وعيى بأنها حزينة فجعلت أسـألها عـن ذلك، وأحاول أن أسألها بمرح إن كـان يوجـد طعـام، وأصبحـت

أرجوهـا أن تجلس بجانبي وأنا أتناول طعامي، واطمأنت أمـي لـي فاستدرجتها حتي بدأت تشكو، فأخذت أصغي : لم يعد وجهها وهـي تشكو يجعلني أتضايق منها. بدأت أحس، كما لو كان ذلك لأول مرة، بأنها تعاني، وتعاني أكثر بكثير مما كنت أتصور. بل وأخذت أحـس أحيانا بما تعانيه ووجهها يتقلص والمعنى المصاحب يحاول أن يطفر ثم لا يلبث أن يتكور تحت الجلد وبعدها يختفي شيئا فشيئا، غائصا في القلب، مفجرا دما أسودا إلى شفاه أمي التي تأخذ في الارتعاش بعجز، وأحس بما تعانيه قائما أزائي ( ) لا يسـمح أبـدا بمجـرد التفكير، لدرجة أنني بدأت أضطر لحظة أن ادير وجهي ناحيته إلـى التراجع بقفزتين أو ثلاثة خشية أن أحترق في الـ ( ) أبـدا لن أنسى لحظة أن حدقت في وجههي وتأكدت من أنني أصغي للـ ( ).

آسف إذا وثقت الآن أنني عاجز عن نقل هذه اللحظـة لـك، وأن حبر الطباعة لا يمكنه أن يفعل أكثر من أن يكون حبر طباعـة. كل ما أستطيع أن أذكره أنها لما تأكدت من أنني أصغي توقفت شفتاها تماماً، وأدركت أنها تؤنب نفسها لأنها شكت لي، بينما أنا أصغـي فعلا، قفزت فجأة وحملت الطبق الفارغ وسألتني إن كنـت أحـب أن أشرب شايا.

لمحت الرقعتين المتسختين في ثوبها، وضحكتك يا عـذراء، فأحسست بأني أختنق، وقلبي ينتفض تحت وخـزات حـادة فقفـزت وراءها. وضعت كفي على كتفها وأنا لا أجرؤ علـى النظـر فـي عينيها، وعلقت عيني بشعلة البترول والدخان الأسود يتصاعد غزيرا خانقا إلى رأس الموقد. وقلت لها أن كل هذا سوف ينتـهي، وأنـك تحملت كل عمرك الماضي فلا أقل من أن تتحملي أياما قليلة سـوف

تمضى بسرعة، وبعد ذلك لن أجعلك تعطشين للفرح أبدا، ولحظتـــها كنت أراك يا عذراء.

ابتسمت أمي، والدخان الأسود يتلاشى وانهمكت فى إعـــداد الشاى ثم سمعتها وأنا أشربه فى غرفتى تتكلم مع جارتنا بصوت عال، بل وسمعتها تضحك أيضا.

وشاهدت الليل يوشك على البدء فى الســـقوط، فرأيتـك يـا عذراء تمدين لى جسرك عبر الأمواج الليلية، وأخذت أحدق مشدوهـا فى الجسر المتوهج الممتد من أول ساحل الجدب المتسع ورائى حيث المحارات الفارغة تحت مناقير الطيور الجافة، وعظام الهياكل العارية للطيور على هياكل السمك الميت، ومحاجر العيون الخاويـــة، حتـى ينقلنى عبر الليل إلى استدارتى عينيك وهما تستحيلان إلى بوابة واحدة تقع فى نهاية النهاية أسفل الزنزانة الصلبة الصدئة الزرقة، مســتديرة عبر البعد القاسى، مفتوحة على عالم لم ينم كعالمنا خوفا من الظلمـــة لأنه لم يعرف ســوى الصحو فى حضن الشروق دونما ليل كليلنـــا، دونما موتى.

أول ما رأيت ذلك لم أتمالك نفسى من أن أصيح مناديا علـــى الذين يتساقطون ميتين على الرمال خلفى، ونصف عددهم لم يمت من الموت نفسه :

- سيأتى يوم لن يموت فيه أولادنا.

كفوا عن حفر اللحود لأولادهم برهة، سمعت فيـــها قلوبــهم تضـــج بالفرح، لكنى سمعتها تصاب بالسكوت فى اللحظة التالية، وهم لا يصدقون آذانهم، لأنهم عادوا يحدقون فى الأرض فلم يروا ســـوى الماضى الممدد فى لحده فانخرطوا فى البكاء :

- أنت لا تقول الحق.

وكدت أسقط باكيا معهم وأفقد صدق رؤيتى لولا أننى تمالكت نفسى ومسحت عينى بسرعة وقلت لهم بصوتى المبحوح. أقسم بكم أننى رأيت. وعدت أجول فى الطرقات أقول للرفاق : "ارفعوا عيونكم ..

وانشروها إلى أقصى ما تستطيعه الأجنحة .. فلن تعد قمة الطموح تحت أسقف مقبرة ..

ارفعوا عيونكم، واملأوا الأشرعة بأفق العالم لأننا : سنأتى بأطفال لن تموت ..

وأغرب ما حدث يا عذراء لحظة أن انتهيت من ندائى، وأطبقت شفتى، مديرا عينى فى الصمت، إذا بى أفاجأ بها ما تزال تجول فى الطرقات تقول للرفاق.

استغربت فتحسست شفتى فوجدتهما مزمومتين بشدة، وعدت أصغى فإذا بها تجول فى الطرقات تقول للرفاق. أخذت أنصت بدهشة لأصواتى التى تتقافز من صمتى تحتشد فى الطرقات، وأصوات المعاول تتوقف عن حفر اللحود. والطرقات تجن بالصوت فتصحو جارية نحو الأنهار الدائمة، واطئة كل القيود، منتزعة كل صليب، محتضنة المصلوب من عليه، ثم حارقة الصليب حتى لا يجدوا صليبا يصلبونه عليه ثانية عندما يأتي الـ (   ).

المستحيل يا آذانا طينية مستحيل الرؤية، مستحيل الاحتمال وما حدث وكان أقسى من احتماله تحوله بفظاعة إلى الـ (   ) هذا الذى صار ممكنا. بلا توقع أبدا، ومن جوف الصمت الهادئ المتظاهر باللا اكتراث، القابع فى منحنى ليس شديد الظلمة بقدر ما هو ملون بالظلال المتطاولة تتماوج بأنفاس ليست للريح، أخذ يبدأ صوت الحدوث: محالا قادما بتؤدة كما لو أنه ليس غريبا، موغلا فى الوجود على حساب تخلينا عن استغراب وجوده، محققا نفسه بتراجعنا

وفرارنا فى الصمت، سارقا أرضنا من تحت أقدامنا. والغريب أننا لا نبدأ فى الاكتشاف إلا متأخرا جدا. فى اللحظة التى نرى فيها أرضنا تدور بعيدة عنا، ونحن نهوى فى الهوة السحيقة التى ليست تحتها أرض، حيث ( ) حين ( ) أبدا. اللا معنى هو المعنى الوحيد لأية صرخة تطلب النجدة. فى الهوة لا أحد ينجد أحدا. لأن لا أحد يملك أرضا يقف عليها، فكيف وهو يهوى سيثبت نفسه وينتشل طالب النجدة. ذلك بفرض أنه استطاع أن يعبر المستحيل ويوقف تهاويه ليدير إليه رأسه وينصت إلى صرخاته.

ولقد حاولت أن أوقف عينى عن الاهتزاز فطعنت بالـ ( ) وأنا أرفع حيث المسامير ترشق فى راحتى المشدودتين للتسليم بعيدا عن ذعر الشفاه إزاء طغيان المستحيل. والـ (. .) ينمو بيننا، يتمدد، يستحيل إلى أبعاد تتوحش، ترقد كغرق البحر، غليظة القوام كموجات استحالت إلى قبضات خرافية تخنق أية أصوات تسقط فيها. وإزاء طعنات المسافات الموغلة فى دفعى سقط صوت الإنسان فى الـ ( ) وبعده صوت كل أشياء العالم، فأخذت أتأمل طويلا : صمت الزيتون. عدت أنظر لهم ( ) فقدت كفى وأنا أنظر لهم. لم يحتمل الرجال. لم يقف بجانبى سوى الحبالى نظرت لهن ( ) أما العذراء ( ) رفعت وجهى مذعورا من الصمت فحط على الصمت. وارتفعت إلى السرسعات المعذبة التى تنطلق رغما عنها طوال زمن التعذيب وتندفع لائذة برأسى أحد من المسامير المحمية فى كفى. وسقط وجهى من الصمت عائدا إلى الصمت. وتأملهم المحاصر فى العيون التى تعانى الرؤية يحاول أن يثبت، أن يستكين، ألا يصرخ، ألا يحتج، ألا يطلب الرحمة، ألا يثور، على الرغم من أنه يتعذب بالـ ( ) وصمت نفسه. ولم أستطع أن أبتعد عنهم بعينى وأتركهم بعد ذلك،

وتذكرت ما سوف يأتي فجعلت أنتحب على العالم الذى تيتم من بعد ما صلبت الكلمات.

وأرفع وجهي نحو العالم الصلب، وجبهتي لم تتمح من عليها ظلال الأرض من طول الانحناء فوقها، وأحدق بخجل الذى كان وأذكر ما نسوه (   ) أبدا، من الصعب يا آذاننا طينية أن تثبت عيوننا على عالم غير ثابت، عالم قوس قزح أكثر وجودا وثباتا منه، عالم يوجد ويفنى فى كل يوجد، وفى كل يفنى. نراه فى اللحظة التى لا نراه فيها، وعندما لا نراه، نراه، وعندما يوغل فى حضننا نحس بأنه ليس فى حضننا أبدا. وعندما يبتعد نحس بوجوده بين الأثداء تماما كما لو أنه تعلم الخديعة من مخادع لم يضبطه أحد حتى الآن. ولو ضبطوه لن يستطيعوا إثبات أنه مخادع، لأنه فى اللحظة التى سيطبقون عليه فيها بأيديهم لن يكون بين أيديهم.

وكم نحن ضحايا خداع أبدى أكثر وجودا من الأبد نفسه، تشترك فيه أمنا التى تضاجع أى رجل وتدعى أنه من صلب الآلهة لتوهمنا بأننا آلهة، وضحايا أغشية البكارة التى تتنحى لكل غاز يستطيع أن يشعل نارها بعد ما يهدم الأسوار. طالما أنه سيأتى بالطعام. وضحايا العالم الحرباء الذى يستحيل طينا بالمطر وتلالا جدبة باليقظ، وقمحا، أو قطنا أو توتا، حسبما ينافق الفصول. وإلا فكيف فقدت الزمن الذى كنت أدخل فيه بوابتك المتوهجة بالأبد المشرق دوما وهى تفتح لى فأهتف يا لعالمى الرائع، وأحس بعد كلماتى بالصدى يتطاول فى ذاتى لأحس بأننى ما يتوهج فى الشمس، ويصفو فى الزرقة، ويصلصل فى جريان الأنهار، ويخفق فى سماء الأجنحة، ووراء كل انتظار يجئ. وبعد كل جوع يأتى أعياد حصاد، وفى أمسيات النهار الشقية نسيم رخاء، وللزوجات اللواتى يعذبهن خلو الفراش فى الليل الأرمل زوج يعود. يسرى للعذارى فيحتضنه

حلما، ودماء تجتاح بحريتها أية أسوار، وعنده تنتهى الأشواط، ومنـــه يبدأ كل شوط جديد، وأني كالإله القديم القديـــم القديـم، يلعـق كـــل أدرانكـــم بحنو لسان قطة احتضنتكم، لتكونوا أنظف، ويسقيكم لبنه بلا ثمن. لكننى أعود أنسى ما نسوه، والأشياء تدوم بالوميض الذى يعمى قبلما يختفى، وذراعاى أتأملهما بحسرة الذى أكتشف أنهما لـــم تعـــدا ذراعيه، وشفاهك تتكـــور بالـــ (   ) مستحيل، والعالم يحمـــل وجه يهوذا.

عندما كنت (   ) لم أكن أعرف ذلك. كنت أبتسم فقط ليبدأ كل ما ابتسم له صراعا عاشقا من أجلى. أبدا لم يكن كيـــوم أن جئت لك وجسدى جمرة تتنفس فى فيض من الهواء السخى، مجنونـــا بالاحتراق، ورغبة الرماد المعمر في أن يصحو، أن يستعر، أن يجـــن بينما هو يتصاعد عاليا، ويدى تطير لتلتقط يـــدك، وعينـــاى تفـــردان أجنحتهما لتناما فى عشك فإذا بالباب يبدأ فى الإغلاق، وأحس بـــاللحم يثقل فجأة ويتعرض للتدمير إذ بدأ يفقد جلال صحوه الأبدى. لكنى لم أكف عن إدامة الرفيف والتحديق موغلا فى الاقتراب، وأنـــا أخنـــق الصرخة وأصارع نهش الاستغراب المتوحش. وتحول كل هدب إلى يد تتحسس بابك الموصد بلا سبب فلا أجدهما زرقاوين. وإن كانتـــا رماديتيـــن كما رأيتهما فكيف ملكتا الزرقة التى اسودت فى عينى أمى كل ذلك الزمن ؟ وطفقت أسأل الـــ (   ) هويت للغـــرق قبلما أتمكن من الصراخ، وشفاهى تتلوى بلا جدوى. ثم تستسلم كل منهما ملتصقة بالأخرى فى صمت. وعيناى تتبعـــان أقواس الشعر التـــى تليق باستقبال إله، وهى تستدير وتبتعد وعيناى مصلوبتان على آنهما. تتأملان للحظة أخيرة قبل الغرق الأبدى : الأنهار التى أخذت تتأرجح بعنف خلفك، وأنت تبتعدين بها، تاركة طوفانا حارقا من الجدب يندفع زاحفا نحوى، وأنا أشرب رغما عنى عطش الصحارى اليتيمـــة دون

تبرير عادل يا (   ) تلاشى الأمل حتى أقتصر على العمى، وخلف العمى عالم كان يولد لى فانتزعوه منى وأودعوه الصمت. لكن صمتى لا يقبل ذاته، فليس محتملا أن نكتشف أننا لم نكن نملك عالمنا، وأننا فجأة نحس بما نمتلكه وهو يفلت منا، والشيء الوحيد الذى يتبقى، الوحيد الذى يتبقى : عرى أصابعنا البارد. وأن كل هذا العالم الذى نحس به تحت أصابعنا كرأس طفل يستجيب لحنانا، يستحيل إلى رأس داعرة تتحدى أى حنان يحاول أن يحتويها بسخرية هازئة صلبة لا تملكها إلا داعرة تجيد هدهدة الرجال لثلاث دقائق تجيد بعدها نسيان أنهم ضاجعوها، أو حتى أنها رأتهم فى حياتها. وأدير رأسى لأرى بوضوح عينى وهما تنسلخان عنى، وتتسكعان بعيدا وتسقطان على وجه الأرض، حيث الألوان الكالحة، والوحل الدموى القاتم الذى لا يجف، والطنين حول رأسى يبدأ نشيدا فارغا تحت الشمس الرصاصية، يشتد ويخفت لكنه لا يبتعد، وتتدحرج العينان ببطء ليس لتتأملا، لكن لتلتقطا أنفاسهما فى مواجهة الأشياء. والحدة فى جوانب الأشياء تجرحهما، وتجعل جسدى يرتجف، غير قادر على أن يثبت فى مكانه أبدا، وإحساسى يثقل بالشراع المشدود للإبحار وحباله تنقطع ويبدأ يهوى فى التراخى دونما إبحار. وصوت الموج يتخلخل فى العالم الضحل، والعودة للوقوف فى المخاضة التى تبول فيها الخنازير، والتى لا يعبرها إنسان إلا وغسل قدميه من آثارها قبلما يمضى.

وتتدحرجان ببطء تحت ثقل الفزع ربما تواجهان شيئا أقل حدة، وإذا بهما تتوقفان عن التنفس تماما إزاء ما حدث :

جف ما فى التى كانت كائنات فعادت تتحزم حول نصف طولها، وترتدى أكماما فى سيقانها وتتحرك، فيقفز الغبار من الأرض ليدوم فى الهواء ثم يعود ليساقط فوقها فتستحيل إلى لون الأرض،

والشمس نفسها بعد أن انصهرت وتجمدت إستحالت إلى شحوب أوغل في العتمة حتى السواد، ثم هوت في برودة الرصـــــاص. والأشيـــاء ذوات الأطراف لا تسكن أبدا. ربما تسكن للحظـــة، لكنهـــا تعــود للحركة وهي تحرك أطرافها وأحيانا أطرافها دون أن تغـــادر مكانــها بينما تصدر أصواتا غريبة متباعدة، وكـــل منهم يصدر صوتا وحده. واقتربت منهم بحزن. فجعلوا يمرون قريبين جدا من وجهي كما لـــو أنهم لا يحسون بي، وأفظع من كل ذلك ما صدمت به مرة : فقد حدث أن رأيت شيئا يجري وراء شئ آخـــر ثـــم اشتبكـــا معـــا، وصـــارا يتصارعان حتى أوقعه الشيء الذي يجري وراءه على الأرض. ثـــم رأيته يفتح ساقيـــه بعد أن أوقعه ويرتمي فوقه، والشيء الملقى علـــى الأرض يتأوه في استسلام حتى نهض الشيء الآخر واقفا وبصق عليه ثم مشى مبتعدا عنه. تألمت للشيء الملقى على الأرض فظللت أنظر له. رأيته ينسحب وينزوي بجوار جدار جحر وبدأ ينتفـــخ. بعد فترة أخذ يصدر صوتا يشبه الأنين وهو يمسح علـــى انتفاخ بطنه.

وبعد فترة طويلة من الأنين الصادر عنه رأيته يشحب تماما، ودرجة صراخه تتغير وتتسارع ثم تمدد على الأرض ورأيته يرفـــــع ساقيه إلى أعلى ويأخذ في صراخ عال جعلني أكاد أجري بعيدا حتى لا أتعذب بسماعه، إلا أنني تسمرت مكاني، إذ سرعان ما لمحت شيئا صغيرا جدا يظهر من بين ساقيه المرفوعتين ثم تمتـــد منـــه وأربعـــة أطراف صغيرة ورأس، وفوجئت به عندما انطلـــق جاريـــا نحـــوى مصدرا صراخا صغيرا مادا يـــده الرفيعـــة ذات الخمســـة أطـــراف الصغيرة جدا : أبت، إعطني خبزا !.

صعقني الادعاء، وودت لو أبعده أو أصرخ فيه أو أضربه أو أجري منه، واستغربت نفسي لما أخذت أتأمله في صمـــت وشعـــره الليفي يكبر ويتخذ لون الرماد وأنا أتساءل دائما وأنا ملتصق بالأرض

ومؤخرتي تؤلمنى ومع ذلك لا أملك القدرة على النهوض : ما معنى هذا ؟ رفعت رأسي بغية أن أتنفس بالسؤال فلم أجد أية سماء تمنحنى قبضة هواء نقية، وكنت أريد أن أسأل بصوت عال لكنى لما جوبهت بذلك عدت أدرك أننى أمام الـ (   ) بلا أب، وأن أى سؤال سأسأله سيعود محترق الأجنحة، رفعت جبهتى فى جبهة الـ ( ) رأيت حوائط اللا جدوى منتصبة بينى وبين العالم. وبدأت تسقط حتى الرغبة فى السؤال عن الجدوى، ما دمت قد عثرت عليك لأفتح راحتى فأجد أصابع يدى عارية منفردة فى تراخ كأرجل جواد انتهت من شوط خائب. أخذت أحدق فيها بحماقة أمنية أن أعود أزرع وجهك بين حنانهما فأفاجأ بلا وعى. بأنهما قد عادتا ملعونتين : اقتربت كل منهما من الأخرى دونما رغبة، كحيوانين قزمين من جنس واحد لم يخلقا متقوبين، وليس بين ساقى كل منهما مفتاح المدن الموصدة. لذلك فهما مرغمان بدافع مجهول المكان والمصدر على أن يتقاربا تحت الضغط المهين للفقد، وكل منهما ملعون، ويعرف أن الآخر ملعون أيضا، والتقارب بينهما يغدو لعنة تجمعهما معا. والأصابع تيأس فى البحث خارجها فتستسلم. وأرى كل أربعة أصابع تتجه فى انكسار الغزاة المرتدين نحو فراغ أصابع اليد الأخرى، حيث تدخل حانية رؤوسها، وتركع، ثم تنثنى صافعة رؤوسها بظهر الراحة الأخرى الصخرى صانعة سجودا مميتا معلنة به هزيمة البحث أبدا، طالما أننا لم نحفر لنا منفذا آخر فى جدران الطريق الجرانيتى المنحدر مؤديا إلى قاع لحد. وأصبعاى الكبيران ينهضان قائمين معا بجوار بعضهما ليسدا الفوهة التى تؤدى إلى الفجوة التى سقفتها الأصابع فاستحالا عمودين لباب المقبرة، وبينهما فتحة فرج أسود تؤدى غلى رحم التابوت. ولم أستطع أن أدير عينى عن هذا الـ ( ) يا عبث الأيدى التى أرادت أن يولد العالم، فأحالها العالم مقبرة.

وحتى التابوت يرقد بحضن راحتى ولن يهدأ أبدا، لأنه لن يدفن فيه ابنى. سيظل تابوتا معدا لكائن يموت ولم يصرح له بالدفن. وعلى أن أرى ابنى ميتا أمامى كلما وجدت التابوت براحتى فارغا ينتظر. وكلما أحسست بوجودك أشم بقوة فظيعة رائحة موته كلما مرت سترتك الداكنة الزرقة وشفتاك لا ترحمان ابنى، ولا تتركانه لى كى أدفنه، دائما مطبقتان عليه وكل ما أستطيع رؤيته لا يعدو الفاصل بين الغطاء وقاع التابوت الذى جفت منه العصارة القديمة التى ربما كان يفهمنى لو كانت ما تزال تمرح فيه.

وأرفع رأسى لأقول لكم بصوتى المفقود بعد ما طفت بالأرض الخراب من خلف شفتى الملوثتين بالرماد (   ):

"عندما يقولون لكم ذهبنا إلى المقبرة ورأينا الحجر الذى يسد الباب قد تدحرج لا تصدقوهم، فلن يتدحرج، وعندما يقولون سوف يعود لأنه قام، لا تنتظروا. لأننى من يوم أن مات ولدى مات أبى، مت. فعندما يقولون لا تصدقوا، لأننى أنا الذى أقول الآن.

وعندما ترون الشمس تصلب وتسقط كل يوم والعالم يمضى منكس الرأس، حاملا كل احتجاجه مقتولا بسكينة اليتم، لا تعودوا تذكرون أن العالم معشوقة للذى صلبوه وأنه سيكون يوماً أبا، امضوا حاملين يتمكم، وقفوا أمام العذارى اليتامى، وليختر كل منكم يتيمة ويأخذ يدها فى حضن يده، وعندما تهتف به والدموع فى عينيها : أبت !؟ فليهش لها، ولتكونوا آباء أولادكم.

يقول لكم ذلك، لأنهم، قبل أن يرى أباه عندما أراد أن يكون يوما أبا، شدوه بعد ما رفعته إرادته، على الصليب".

ويدور سيخ الشواء (   ) نشوى وننتهى إلى لا شــــئ (   )حتـــى اللا شئ ربما لن يكون موجودا، إلا شيئا واحدا يا آذانـــا طينية (   ) لن تستطيعى أن تديرى عنه وجهك الطينـــى أبـــدا مهما هرب فى الطين :

صوت وقع الخطى السائرة للأفنية الخلفية، يتساقط ليدفن فى الرتابـــة، مجرجرا صداه ليغوصا معا فى الأرض رائيا كنبى تعـــس كل انتفاضات غبار الطريق الرمادية تبهت، تستحيل إلى جليد يشحب تحت الضوء الأبدى الساكن حيث ستدفن كل الأصوات وتدفن جثـــث كل رغباتها معها فى الـــ (   ).

ولحن الجنازة يتلاشى (   ) ويظـــل محلقـــا صـــوت إيقـــاع واحد معتـــوه (   ) لا ينتهـــــى (   ) لا يبـــدأ (   ) لا يسمع.

(يوليو ١٩٦٦)

جحيـــم أبـــد الرحـــم

"سيقال يوما ما، يوما مذبوحا كالعادة، حدث أن استعر سؤال فى شفتى طفل. وكان كصوت الصدق القديم. تحررت الطيور فاندفعت آمنة فرحة بالإنطلاق، والفوهات كانت متربصة، تنتظر بالإصابة صوت الأجنحة الغازية بالشوق قلب المذبحة وإزاء القلب تماما، ثقب الصدر حارقا دائرة ضيقة من الزغب الفرخ ينبوع دم منبثق. وأخذت الأجنحة تتنفس بقوة، والعينان اللتان أخذتا غدرا وهما تحدقان فى سماء صدق أخذ يموت. ويأتى الحزن كالغرق فيهز الطائر رأسه دون تصديق لما يقع. ثم تتراخى الأجنحة سائبة بلا رفيف، مسلمة نفسها للسقوط. ويظل وجه الطفل مدارا بالدهشة وفمه الفاغر محشو بجثة صمت ميت. وسوف تظل الكلمات تذبح كالأيام أيضا.

فيا قدرنا القادم بدون خطى : ستقام المذبحة، انا نعرف، لكن ما لن يحدث أبدا، حتى لو أغلقت أفواهنا رغما عنا أن نغمض عيوننا، وسنزوى فى عتمة الأركان المقبورة، وندفن، لكن على ظهورنا لتظل وجوهنا مدارة بفجوتينا السوداوين اللتين ستظلان شاهدا لا يمل إدانة العبث" !

وقعنا ([1]   ) مواجهة الأشيـــاء المنتصبـــة فـــى بـــرود. وعواصف النار التي تجتاحنا حتى تلاشينا عواصف ألـــوان حولـــها. وقوف وسطهـــا ومفاصلنا سائبة. والظهور المنتصبة تلقت الضربـــة ولم

تجرؤ أن تحتفظ بانتصابها لحظة أن سقطت. لم تملك أن تحملق فيها ولو للحظة. فلحظة أن جاءت وراء حدتها المندفعة بكل ثقلها حارقة استمرار الفقرات، انقصمت ظهورنا. وانطوينا بنصفنا العلوى تجـــاه نصفنا السفلي، طاوين شروعنا فى أن نظل وسط هذا العالم، نتجـــول وعيوننا تبرق فى الطرقات. متطلعين إلى الأمـــام بـــبريق الفـــرح الشاسع، حيث الغموض الأزرق يشد هاماتنا دوما، جاعلا أقدامنـــا لا تكف عن الحركة والدبيب ومواصلة الخطو يلـــهب أعنـــاق أشواقنـــا بالرغبة فى أن نغزو الأشياء كلها : رحم الأرض. مصير الأمـــواج المبحرة قمم التحدى الشاهقة، متاهة الإصغاء للـــ (   ). لكنا صحونا من الوهم لنسقط فى (   ) وأســـره لنـــا. ومحاولـــة ملاحقة الأيدي القادمة وأرجلها تخوض فى الهواء.

- شد حيلك.

يظنون أن ذلك يعزينا، وأيديهم تمتد تشد نفسها حول يدى.

- البقية فى حياتك.

هراء. بعد أن نموت لا يبقى من عمرنا شئ.

- كل من عليها فان.

يا ببغاوات تتغنى بهزيمتها.

- هو الدائم.

---

[1] مساحات صمت تتخلل الكلمات وهى ليست فاصلاً، با امتلاء غير مرئي بكل ما تعجز عنه اللغة المنطوقة المحيطة بها.

- هو الدائم.
- هو الدائم.
- هو الدائم.

نحن نموت.

- ....

وخفت أن أسوطهم بغيظي فأخذت أهز رأسي وفي داخلي يذبحني السؤال.

ونفدت الأيدي فانتهى تبادل كل ما هو متعارف عليه وميت. كلمات قديمة في جفاف السمك المقدد لا تجد سواها عندما يحاولون أن يعطوك، ولن تجد سواها عندما تحاول أن تعطي. لعبة مفضوحة لكننا لا نملك غيرها. ننسى ساعتها للضرورة ونتبادلها. وعندما تنتهي الضرورة وينفض الناس تنزوي الكلمات في الأركان. وحين نسمع بضرورة جديدة نجري إليها ونحملها، ونبذل جهدا يائسا في جعلها حية. ننطقها وملامحنا صامتة. ولا يدري أحد شيئا عما في صمت الملامح.

مضوا. واكتشفت، وأنا أرقب ظهورهم، العالم الذي استحال إلى فظاعة تمارس. وهي لا تمارس بعيدة عنا، لكنها تدفعنا رغما عنا من داخلنا لإعداد كل ما يلزم للموافقة على ما يحدث. لا أحد مات وأصر العالم على الاحتجاج. كلنا نموت فنهرع في بسالة لنحفر قبورنا ونشتري لأنفسنا الكفن بسعر مرتفع، ونصيب البرق بالسعار أو نعلنها في الصحف، أو نذهب سيرا على الأقدام. ندعو كل من نحب وكل من نكره، نجمعهم من الطرقات وأمكنة العمل، ومن البلاد البعيدة لتكون الجنازة أكثر ضخامة ومهابة. وكلما كانت مراسيم الدفن كاملة وممارسة بإحكام، ازداد زهونا، وأحسسنا بأننا أدينا واجب تأليه قاتلنا، والاحتفال بتأليهه. وسط الميادين التي تفيض من أجله

بالكائنات البشرية. والضحية في المقدمة مستلقية في الصمت ومغطاة بالملاءات الواسعة المعتمة الثقيلة التي تنسدل في جلال فاجر واستسلام قدري للقاتل نحيط به الضحية، وجثثنا تملأ الميدان والطرقات المؤدية له، والشرفات وأعالي البيوت مكتظة بهم، ليست كائنات بشرية حية أبدا تحت هذه اللحظات إنها ليست سوى جثث ضحايا آتية. مستقبلها محاصر في الرأس الذي نراه شاخصا في الجثث قبل أن تستحيل إلى جثث. لو نظروا فجأة نحو أبدانهم المتحركة وراءه لرأوا نقاط الدم الشاحبة المرشوشة بغزارة تكاد تغطينا بأكملنا، والدماء الحية في قلوبنا ترتجف تنتفض بالذعر وتكاد ترفض أن تخرج للأطراف وسطح الجلد. ونمضي بلا دماء، حاملين في أبداننا الجليدية انتظارنا لطعنة القاتل المؤله.

أغمضت عيني علني استريح للحظة من مواجهة البشاعة. لكن الإنسان لا يستطيع الاستمرار في ذلك فتركتهما كما كانتا مفتوحتين بشدة تؤلمني. وبرغم ذلك لم تعودا تريان كما كانتا من زمنٍ بعيد. ثمة ما يضرب بين الأشياء، يفصلها، يجعلها مختنقة بغلاف من العتمة. لم يعد ثمة وضوح راسخ، حتى حوائط ما نحتمي به ليست سوى امتداد في الهواء وتحت الأرض إلى مدى قصير. وفي لحظة ما، طارئة وغير معقولة، مع أنها ليست أيضا غير محتملة، تجئ فتغلف العالم بعاصفة من الغموض، ثم تنحني وتقتلع بسهولة تحت خفاء الغموض كل ما يقع تحتها : الناس، حوائط الاحتماء، الأشجار، بالسهولة نفسها غير المعقولة التي تفقد بها إنسانا كان. وتتكلم عنه الآن.

يا ناري.

أطلقتها خلفه. ثم انطلقت خلفها (   ) أبدا ليس من السهل أن ترى كل شئ يقتلع وتظل أنت ثابتا لا تقتلع. حتى لو ظللت

متوجا فى مكانك. فأنت لن تعود تحس بأنه مكانك. إنه ساكن. ليس تحتك. أنت الذى تتوهم أنك راسخ فوقه. هو مغطى به لا يعبأ بـــك. فأنت لا تدخل فيه. وهو لا يمكن أن يسقط فى أســـرك. بـــل إنـــه يصفعك بأبشع صفعة يمكن أن تهينك فى العالم. إنه ليـــس مكـــانك. أقدام كثيرة لها رسوخ الأعمدة الحجرية ماتت وسقطت حيث تقـــف. وأنت نفسك لو استطعت أن تظل ترى، ستـــرى الذين سوف يمـــرون ويسقطون بعدك. مرور وحسب للسقوط فيه. أو على الأكثر مرور للسقوط فى مكان آخر. وطئك للأرض لا يعنى أنها أرضك. بل حتى لو أحطتها بأسوار من الأسلاك الشائكة المكهربة فإنها كذلك لا يمكـــن أن تخضع لك. تستطيع أن تتصور أنك سيدها لأنك تسوطها كل يوم. وتغتصبها بالمحراث وتجبرها علىَ الحمل بأن تغرس فيـــها البـــذور، ولكنك لا تملك أن تمنع نفسك من السقوط وأنت تقف وســـطها فجـــأة ودون أن تستطيع الاستناد إلى أى أحد بل أى شئ. وعندمـــا تســـقط وتسكن ستفقد القدرة على أن تعى فقدك. ونهش الغربان لك. وتهدى للدود فى الخفاء. يولدون وتظل سوقهم تشرع فى النمو والانتصـــاب دون أن يدركوا أنهم زرعوا بلا جـــذور. وأنـــهم لا يســـتطيعون أن يظلوا. وأنهم حتما سيسقطون وبين أقدامهم خطوة لم تقطع بكاملـــــها أبدا.

آه.

انصبت بها النار بجنون طاغ يجعلها تأتى مجتاحة بـــالحريق كل ما تمضى عبره. لم نشتعل أبدا كما اشتعلت فى الداخل لحظتـــها. آه لها وجهه وذراعاه وصدره وساقاه تلم ملامحـــها وتتعـــذب مغلقـــة عينيها وتتفجر : "يا أماه". فأسمعها تحترق : "يا نارى".

وتندفع المخالب تحتضن النار ناهشة أثداءها من فوق الصدر غائصة فى جراح اللحم المحترق بالداخل، متراجعة للخلـــف، مقعيـــة

على الأرض، متمرغة به والأصوات لم تعد أصوات بل ثقيلة وقاسية كالأيدى. تمتد من أفواههم المثقوبة وتمسك بها من كتفيـــها وينقطــع الصراخ فى وجه دائرة الأيدى. والرؤوس العديدة لابد أنها لا تســمع صوته. وحدها تسمعه. ودائرة الأيدى تصرخ فى لحمـــها فيختنـــق صوته ومخالبها ترتعش ولا تترك أثرا فى وجوههم. كانوا يملكـــون جلدا كحيوانات فقدت حسها فاستبدلت به جلدا ميتا. ومن فوق دائـــرة الأيدى يعبر الصوت ويسقط فى حجرها : "يا أماه" وتحتضنــــه : "يـــا ناري". "يا ناري" ( ) لا جدوى. لا الإغماض ولا الصمت ( ) نتراجع ؟ نحن لا نملك. حوائطنا ملتصقة بخطانا. ســـجوننا تتحرك فى ( ) فى ( ) لا مفـــر. يـــا ( ) أبدا! كنا نأمل فى جحيم أقل. لو كان من الممكن أن يكـــون جحيمـــا اقل. هذه الأيام الطويلة من ( ) آه. من الجحيم، تتســـاقط. وحسبما قال كثيرون ظننت أننا سوف نعود للنوم. فنسقـــط فيه وتظلم الدنيا. نصحو ونعرف من ابيضاض الحوائط وأصوات الباعة أننـــا غـــرقنا فى النسيان خمس أو ست ساعات. وأننا لابد من أن نكون قد استرحنا. وأن تكرار ذلك لعدة مرات سوف يعودنـــا النســيان، وأن الـــزمن دواء كل من لا دواء له، لكن ذلك لم يحدث. وضعـــت لـــها حبة فى كوب الماء وابتلعت أنا حبة أخرى، وأطفأت نـــور غرفتـــها وأغلقت عليها الباب ومضيت إلـــى ســـريرى. وأشعلـــت الســيجار وحاولت أن أتأمله وأنا أدخن متشبثا بالسحابات الرمادية التى تندفـــع بقوة وتتصاعد لتتسع وتشحب شيئا فشيئا حتى التلاشى. لكنها حتـــى فى التلاشى لا تغادرنا. إنها تحلق على الجدران وتحـــت الســقف، وتظـــل مع الاحتراق تهبط نحونا. تطبق شيئا فشيئا علـــى تنفســنا. وعاد وجهه وتقلب فسمرت ناظرى ثانية بلفافة الدخان أتأمل غلافـــها هذه المرة بكل ما أملكه من قدرة على التركيز حتى لا يفلـــت منـــى

تفكيرى. لكن عينى زحفتا حتى الطرف الملتهب فعاد وجهه يتعــذب وعدت أرتعد. قمت وسحقت الطرف الملتهب فى قاع المطفأة لكنى لم أكف عن الارتعاد.

كانت الغرفة معبأة بالدخان والموت. فكرت للغرفة نوافــذ. فتحتها فجعل الدخان يتسرب، لكن الموت لم يتسرب، فعــدت أختنــق بالإدراك : ليس لعالمنا نوافذ. عرفنا ذلك منذ وقعنا خلف الانتظـــار. منتظرين أن يرتفع. وما وراءه متخفى به. مغلق الفــم فــى رحــم الصمت المجهول الملامح. لكنه كان سيأتى. وإن كنا نتأرجح بيـــن هوى الخوف وحواف الرجاء، إلا أنه كان سيأتى، ولــم نكن نعرفــه، إلا أننا كنا ننتظره. كان اليأس والأمل يرفرفان معا فى انتظار مجيء الإتيــان، فالانتظار سميك الحوائط، راسخ كعظـــام ضلوعنـــا التــى أطبقت بها على رئاتنا الضربة. والرغبة تنسحب مضغوطـــة تشـد نفسها من شق شديد الضيق عليها، لاتنى تدور فى مكانـــها، متمــردة على الوقوف، ضائقة بالأسر بين حوائط الانتظار الصلبة اللامباليـــة. حوائط فقدت الإحساس بما فى داخلها، تراها قابضة وحسب لا تتســع ولا تسحق، وما يرتفع ويصخب باللهب ليس سوى داخلنا، والرغبـــة تبدو مسعورة لاهثة، والضيق : المتنفس الوحيد مسدود النوافذ حـــول الذين تختنق عيونهم بالظلمة وتستجدى مـــا بيــن النوافــذ المســدود بالطيــن وما بين الحوائط أن يتسع أن يضئ. ترى منه مـــا ســوف يجئ. وأيدينا مطرقة نحو الأرض، تصغى للصمت. ثم تسعى كـــل منهما ملتصقة بالأخرى لعل ذلك يوقف هذيان الرعشة الخائفة، لكن لا جدوى. كما لو كان الذعر فى الداخل لا يأبه بكل ما هـــو خارجـــه. طاغية لا يكف عن طغيانه إلا إذا كف هو عن أن يطغى. وحين شق الظلمـــة تقاطع الأضواء، اجتاح الذعر كـــل أرجائنـــا فكففنـــا عـــن

التنفس، وكم رغبنا أن نكف عن الارتجاف حتى يمكننا أن نرى وجه ما بدأ يأتى :

سحبونا من أيدينا التى أسلمت نفسها لهم. وظللنا نجتاز، كما لو كان ذلك لدهر بأكمله، ممرا، مظلما، مسودا بباب غرفة موصـــد. وقفنـــا حيال الباب الموصد : هى الغرفة، لا شك. رأيتـــها مطفـــأة الأنـــوار فانطفأ من كل الوجود. وتساندت أسنانى مذعورة بعضـــها من البعض الآخر وسط عاصفة باردة من الخوف.

وانفتح الصمت عن شئ ملقى، سلط عليه فور دخولنا مصباح حارق. استبد الصمت ثانية ويد تنتقل من فوق كتفـــى لتحلـــق فـــوق الشيء الملقى وتظل محلقة فوقه. والإصبع يحنى عنقه الطويل ويسير محدقا فيها كلها : جثة. وينتقل : جثة الرأس، جثـــة اليديـــن، جثـــة الذراعين. جثة البطن جثة الساقين. ثم يدور حولها : جثـــة الجثـــة. أليـــس ؟ لكنه ليس فى مكان آخر. ليس خلف الجدران ولا النوافـــذ ولا الأبواب. وليس فى البيت الآن. وليـــس عندهـــا، وليـــس بيـــن أصدقائه، وليس فى الطرقات، وليس فى إحدى المركبات، وليس فـــى حجرته، وليس فى الغرفة، وليس فى الجثة.

– لا .. ليس.

إنه هو.

– لا. ليس هو.

– أقسم يا سيدى إنه هو.

– أقسم أنه ليس هو.

– لكنه هو يا سيدى. وهذه هى بطاقته. انظر. وفتحها وتمنيـــت أن تنقض على صاعقة وأن أذهب أنا مقابل ألا يكون.

– أليس هذا اسمه يا سيدى وهذا اسمك ؟ وهذا اسم الأم ؟

– لكنه ليس هو؟

- لكنها بطاقته.
- لتذهب البطاقة إلى جهنم.
- تحمل يا سيدى.

ما طاقة الإنسان حتى يتحمل هذا ؟ أنا أعرفه. لو وقف أمامى الآن خلف شارع مكتظ حتى نهايته بالناس فسوف أرفع رأسى وأراه وأشير إليه.

- اقتنعت يا سيدى ؟

تأملته بغيظ وهو يريدنى أن أقتنع وأخذت أبحث فيها عنه: أمسكت بجثة اليد. لا. رأيته فجأة وهو يحط على غفلة فوقه صامتا محدقا. لم يسبق أن رأيته. كان ليل العالم على جانبى منقاره الأسود الذى يغمغم بأنه انتقل إلى ملكيته. افتح فمك. أرجوك. حرك شفتيك. لا جدوى فالمنقار لا يرتفع. والليل على جانبى منقاره يهطل. يغمر كل ما تنفتح عليه عيناى. ويظل يغرقنا، ولا يتوقف عن إغراق جدراننا الراكعة، الساجدة، الملقاة، يزيح بقاياها ويحط هو. ارفع رأسك ولو مرة واحدة. ألا ترفع رأسك ؟ لا تستطيع الآن؟ ولا غدا، ولا بعد غد ؟ يا (   ) لو تحرك إصبعك ! حركة، وسوف يطير هذا منها. لكنه أخذ يحدق فى ببرود قاتل من فوق الجثة حيث حط. أدرت وجهى بعيدا عنه وأغمضت عينى. قيودك تكبلنى. زنزانة الصخر حولى : صمتك.

سقطت جثتا اليدين من يدى. سحبتهما محمومتين. من على الجبهة الثلجية. وتحتها عينان لا تسمعان. ساكنتان بلا رؤية تحت الجفون المطبقة. مددت يدى معا على جانبى جثة الوجه. وبكل من إبهامي أزحت جفنيه معا إلى أعلى. اجتاحنى الحريق الثلجى للنظرة فجمد إبهامي على جانبى رأسه، وأغلقت عينيه ثانية بذعر. كانت النظرة تنبع من هناك، من خلفنا، من كل ما وراءه خلف،

حتى كل ما لا خلف له، الخلف الأخير الشاسع الذى لا يكف. يتركنا لنأتي بهم، فننحنى بعمرنا ونضعه تحت سيقانهم الطفلة. وكلما نزفنا عمرنا استطالوا. وكلما أخذنا فى الانكماش على العظم وتساقط الشعر من فوق جماجمنا ازدهر الشعر فوق جباههم، وكلما متنا، يحيون. تركنا لنقوم بالصفقة كما اتفقنا، وكما اتفق كل الناس. أن نقبل الصفقة بدلا من. موافق ؟ موافق. لم أجد بدلا من غير ذلك. هات. ورحت وأعطيتهم كل ما أملكه وجئت بها، لم تكن مناسبة تماما. لكنها كانت مناسبة. كنت أعرف أننى إذا ظللت أبحث عن المناسبة تماما لن أجدها أبدا. ليس ثمة علاقة "تماما" بين الأرض والبذور. أقصد علاقة سابقة. فالعلاقة لا توجد قبل العلاقة. إنها توجد وهى توجد وقد وجدت بيننا منذ زمن بعيد. وضعناه. خرج وقال لن أتأخر. وقلت لها أننى سآتيها به، وها أنا سأدخل وعلى وجهى غراب الأصوات. وستدير رأسها لتراه هو حسبما اتفقنا فتفاجأ بالليل الذى يهطل على جانبى منقاره. وعندما ستصرخ من الرعب ولا تستطيع عيناها أن تغادراه، سيزعق فيها، سيشلها بكل ما يطلقه عليها من غربان. وستطرحها الزعقة منكفئة على وجهها وسيظل يزعق على مؤخرة رأسها ويحدق فيها من الخلق كما لو كان يواجهها وأشد قسوة. كيف سأنقذها يا (   ) وقعنا (   ) انفتح كل ما هو خلفنا وصرخ غراب الأصوات وهوينا. ليس ثمة إنقاذ. ماذا سأقول لها ؟ يجب ألا تصرخ. أعرف أنها ستنكر. أنا معها. الجثة ليست هو. لم نفقد كل عمرنا كى نتركه لنا فى العالم فيرده العالم لنا ومازلنا أحياء، جثة. أعرف. أعرف. وحنيت رأسى حتى جاءت العربة.

فتح الباب فجوبهت بها وسطهم، موجة السواد المنحنية نحونا. ليست ثمة وجوه فوق الملابس. ليس سوى كتل حمراء من

اللحم الغارق فى النحيب. وصعدت أيدى الرجال وأصابعهم ملتوية في جوف العربة. ثم هبطت بالقماش الممتلئ الممدد الطويل. "يا ناری. يا نارى يا نارى".

أمسكوا بها وأصابعهم ككلابات في جسدها الذى لا يتعدى حجم طفلة مسلولة تعض فى كل مكان من جسدها كلابة. وشعرها القصير سقط من فوقه الغطاء فبدا واقفا كله يواجه الفظاعة التى اجتاحته وأحرقت غطاءه، عيناها تبرزان لتطلا على الـ ( ) يا للموت ! لم تكن تتأمل وجها واحدا، كانت دوما تحدق فوق رؤوسهم ثم تنقض بكل الكلابات فى جسدها وتشرع يديها معا فوق رؤوسهم وأصابعها مفرودة بكل اتساعها. ويكاد جسدها يندفع طائرا كورقة تحترق ثم فجأة تنثنى أصابعها كلها متشبثة بباطن اليد ثم تنفرد بقسوة لمرات عديدة بجنون يائس لتنتزع من السماوات الفارغة شيئا لا يوجد. ثم تدير رأسها إلى ناحية ما وتسكن سكونا مذهلا وعيناها ناحية إصغائها وما تزال يداها مرفوعتين رغم الأيدى العديدة التى تحاول أن تثنيهما عما تريدانه. وفجأة تصرخ فى كل الوجوه دفعة واحدة ومؤخرتها المتلاشية تتراجع للخلف، وساقاها العظمتان تتصلبان ممتدتين على الأرض وهى تنحنى بالصرخة وعيناها الحمراوان تحترقان فى الذهول ثم تنكفئ حتى يصطدم وجهها بالأرض وتحدق في الـ ( ) : "يا نارى، يا نارى، يا نارى".

لبثت مديرا رأسى للحائط ووجهى مغطى. والمصباح خلفى وخلف الغطاء مضاء. وكنت أوشك على فقدان الصحو، والسقوط فى الذهول والظلمة. وسمعت الجدار يهتز فصعدت للصحو ثانية. سمعته يهتز للمرة الثانية بعنف، فرفعت الغطاء عن وجهى بسرعة وحدقت فيه وأخذت أصغى. امتد صمت طويل سمعت بعده الجدار ينتحب نحيبا ممدودا فينفلت بصعوبة قاسية، ويصعد عجوزا نحيلا

لها. كففت عن الإصغاء فتأكدت أنها هى التى تنتحب فى الليل. لابد أنه يتعذب أمامها الآن. وعلا صوتها فصعد أمام وجهى يعانى عذاب أن يموت وشفتاه جافتـان محترقتان ونداءه لم يصل إلينا ولم نسـمعه ولم يجبه عليه أحد. وغص حلقى وأحسسـت برأسـى يـأخذ فـى الاشتعـال. خفت أن أستسلم للنحيب فقمت مـن الفـراش وسـعلت بحيث تسمع هى، وسكت الجدار. وضعت قدمى فى النعل ومشيـت فأخذ النعل يحتك بالصمت الراقد ويفزعه حتى أخذ يصرخ. طرقـت البـاب وفتحته أنـا، وأضأت المصباح وأنا أسألها – "أتنـادينني ؟". لم تتكلم. وظل وجهها بصمته مدارا للحائط لا يبدو مرئيا منـه فـى الضوء سوى مؤخر منديل الرأس الأسود أما وجهها فكان كلـه فـى العتمة، مائلا منكفئا فى الفراش. وذراعها منثنيـة وكوعـها تـبرز تحـت رأسها، وذراعها الأخرى ترقد قلقـة متصلبـة بيـن سـاقيها النحيلتين المضمومتين اللائذتين ببطنها. "أتنادينني ؟". لم تـرد للمرة الثانية، وظل الصمت. اقتربت منها أكثر فرأيتها ترتجف. انحنيـت عليها ولمست جبهتها بيدى وسألتها إن كانت قـد نـادتنى. فـزع وجهها ناحيتى وفتحت جفنيها فرأيت بياض عينيها مسعـورا يحترق. والسواد الذى استحال رماديا باهتا عاد يشخص للحـائط ويبـح : "لا" مبتورة ثم أطبقت فمها فسمعت أسنانها تطحن برأسها كله شيئا يستحيل طحنه.

"كفى. أنـت تقتلين نفسك". ظل الصمت قائما. واسـتمر صوت طحن أسنانها غير المجدى وعيناها تحترقان بمواجهة الحـائط "كفى. كل ما تفعلينه بنفسك لن يعود لك به". تغير صوت الطحـن استحال بعد أن لوت رأسها وخنقت وجهها بالوسادة طحـن نحيـب، صارت تأكل نحيبها وتمزقه فى داخلها. ثم رأيتها ترفـع رأسهـا وتشخص للحائط فى جنون. ثم تكف عن ذلك بسرعة وهى تغمـض

جمــرتيها وتهوى خانقة وجهها بالوسادة ويشتـــد صــوت النحيــب الممزق فى داخلها، والنهش، ومحاولة التهام ما يلتهمـــها. واســتحال صوت كل ذلك إلى صوت تنفس حاد متقطع ينفثــه أنفــها المحمــر الصغير.

ظللت واقفا مواجها به فى داخلها، والليالى التى لا تنتهى ولا تتوقف ولا تكف عن الإتيان ولكنها لا تجدى، تجئ. ربما يرقد الزمن بينك وبين من ليسوا منك. لكن مــن هــم منــك يرقــدون بداخلــك خارجــك وخارجهم الزمن ولا أمل. غدا وبعد غــد ســوف يــأتى ويجثــم فوقنا كأمس وأول أمس، ثم يمضى تاركا من يحــل محلــه. أقدام مردة تأتى وتطأنا ككل. ولا أدرى كيف تحملت كل هــذا. ولا أدرى إن كان هذا يمكن أن ينتهى بالنسبة لنا. شددت عليها الغطـــاء وأخذت أكذب أمامها : "الله لا يحب ذلك. إنك تؤذينه هنـــاك هكــذا. اصبرى وادعى له بالرحمة أجدى" توقف طحن النحيب وغاص فـــى الصمت. ربت عليها، ومضيت. أطفــأت نــور غرفتــها فســمعت الطحن. توقفت لبرهة ثم شددت الباب وخرجت فتعالى طحن النحيب من الغرفة المغلقة كلها.

وبالليــل جاءنى. امتدت يده إلى كتفى بيضاء كما كـــانت. وقف أمامـــى وهو يربت على كتفي مرات عديدة، وشفتاه تســـتديران وتنبسطان ثم تلتصقان دون أن أسمعه وظلت عيناه أمام وجهى تبرقان في العتمة ثم سال البريق فى خطين على جانبى فمه، ويده ما تـــزال تربت بحنو على كتفى. أخذت يده فى يدى، كنــت أريد أن أعانقـــه لكنه لم يعانقنى. ظللت أتأمل خطى البريق الطويل على جانبى فمـــه، وشفتاه تعودان وتتكوران وتنبسطان. وأحسست بخطين ناريين علـــى جانبى فمي وصحوت. قمت وذهبت للغرفة لأحكى لها عما رأيته فلم أجدها.

دخلنا بها فتركنا وراءنا الأصوات والضجيج الهائل. وظللنا نخوض فى الصمت. وسط الأرض التى ننساها فى الوراء. حبلى بالموتى. ترتفع بطنها بالأجنة الميتة فى كل مقبرة كالحة منتفخة مسدودة الثقب بإحكام.

وفى كل مكان تهرب إليه عين الإنسان لابد أن تصطدم ببطن فيه ميت. كانت البطون مكدسة ومنتشرة بفظاعة وتجاور مرعب. لكنه يبدو أكثر من تجاور الأحياء. هنا الزمن واحد والليل أو النهار واحد، والإنشاد أو الصمت واحد. كل منهم لا يملك أكثر من مساحة حجمه، بل من مساحة نقط ارتكاز هيكله العظمى. هنا يحقق القاتل عدالته الظالمة بعدل. ولا يرفض أحد منهم التسامح مع وجوده كاله. ويستطيع أن يكون موجودا أو لا يكون فلن ينتبه أحد منهم لذلك أبدا.

وقفنا أمام بطن منتفخ مكتظ بموتانا. كان الحفار قد عرى ثقبها فبدأ معتما مخيفا يحيط بالرعب نفسه الذى أحسسته وهى مستلقية على السرير فى الركن المعتم، رافعة قمتى ركبتيها منزلقة بأسفل بطنها وردفيها نحوى فيجتاح الجفاف حلقى وأكاد أختنق عند رؤية الثقب الموحش فى عتمته اللا متناهية. كائن بمكانه فى سهولة المستحيل، مهيب فى الصمت مفتوح ومنتظر كما لو أنه يدرك تماما أنه رغم كل ضآلته أو ضيقة أخطر ما فى البناء كله، وأوسع ما فيه. ورغم ضيقة الظاهر فهو أكثر سعة مما يتصور من يقف أمامه. إنك مهما كانت ضخامتك فإنك لابد أن ترقد وتستسلم لسحبه القدرى لك، لا الرعب ولا الصراخ ولا التراجع يستطيع أن ينشلك مما تسقط فيه. وعروها، فعروه. والقماش الأبيض يتخذ مكان الشكل الإنسانى. يخلى الإنسان مكانه للمرة الأخيرة دون رجوع، يتخذ القماش شكله أمام أهل الميت. خداع قاهر يضطرنا للاقتناع به

استحالة تصورنا للفقد المزدرى لنا. نفعل ذلك لنصدق أن ما تحت القماش هو ابننا. وإننا أوصلناه معه حتى أعدناه إلى الرحم الدائم بأن مررناه من الثقب أمام عيننا، وسددنا عليه بالطين. وعندما تأرجحت قوائم الوحش الثمانى خلفنا ورأيته يمضون حامليه عاريا من كل ما غطيناه به، كنت جالسا وقدماى ومؤخرتى غائصة فى تراب الحفر. أستعيد مواجهة الضربة الثانية : قطعتنا بسهولة أكثر ومرت بسرعة. الأولى أجهزت علينا. رأيت ذلك بوضوح عندما عدت يومها بعد ما تأرجح الوحش بقوائمه الثمانى خلفى. وهو، فقدناه. ولن يعتم مدخل الباب بظل نوره ثانية أبدا.

كانت جالسة فى هدوء ساهم مستسلم، يداها متراخيتان فى حجرها. ورأسها مصلوب على الظهر المنحنى تحدق أمامها مباشرة فى لا شئ كما لو كانت تراه ولا تستطيع أن تنصرف عنه. رأيت جمودها أمامه فصعقت، واجتاحنى الرعب للمرة الثانية حين اكتشفت فى وجهها حفرتين معتمتين. لم تعد هى التى ترانى. لم تعد عندما تدير رأسها نستطيع أن ترانى. بل لابد أن أكون أمامها مباشرة كى تتمكن من رؤيتى. ودون ذلك تظل عيناها مظلمتين جدبتين. ولما أدارت نحوى عينيها أحسست أننى أسقط فيهما. اكتشفت فجأة أننا لسنا وحسب نسقط بالموت إلى الخواء، بل إننا مطاردون بالخواء ونحن نحيا، حين رأيت الوجه البشرى خاويا، وأن ثمة حفرتين تحت الجبهة لا تختفيان أبدا، ولا تبدوان فى جماجمنا إلا فى ظلمة المقابر وحسب، ولكنهما كذلك كائنتان تحت الشعر الممشط فى خيلاء وفى البشرة الناعمة الخادعة للوجه البشرى الحى : علامة يحفرها الموت فينا ليحدد بها محصوله فى هذا العالم، منبتا فى عيوننا رؤى الذهول التى تمتد كحقول الفطر، قاسية الألوان، مفتوحة القاع، موجودة ومحيطة بنا حتى عدم إدراك وجودها، والدهشة

كأعشاش الغراب، تنفتح وتبتلع كل ما كنا لا نندهش له. حتى البشر، أقرب الأقربـــاء صاروا يلتصقون بنا فتجتاحهم الأبعاد ويبدون لنا كأن لهم سطح الخارج الصلد. وأشكالهم التى ما كنـــا نتعـــارف إلا مـــن خلالها، ونقع فى الخطأ، استحالت إلى أشكال جـــامدة تحـــت غطـــاء سميـــك من الجلد وكمية هائلة من الدهن هى التـــــى تجعـــل وجـــوه الرجال واقفيتهم ممتلئة، وسيقان النساء ملفوفة بالدفـء اللامع، دهـــن كدهن أية أوزة ملقاة على قارعة الطريق وعنقها ملتوى تحتها، وفتحتا عينيها مغمضتان على الرماد، بينما تتعرض لأسنان كلـــب تمزقـــها. كـــان كائنا بجواره والجلد ملموم وملقـــى بجـــوار عظمـــة الســـاق، والعظمة رهيفة، ليست أبدا ذلك الجدار الذى كنـــا ننتصـــب فوقـــه ونضـــع قبضات أيدينا فى خاصرتنا بزهو أمام خصم. ملقـــاة فـــى اللحم الميت بلا أى أمل فى معاودة الانتصاب تشخص فى اللحم الذى سقطت فيه وتصمت. وهو الآخر لا يملك أكثر من أن يفقد شيئا فشيئا حمرة الدم الزاهية ويستحيل إلـــى الزرقة الداكنة الثلجية ليتبدد حتـــى ما يبقى ميتا منا فى النهاية.

وارتعدت فى عنف لكن بلا أية حركـــة، الـــ (   ) يزحف. الجليـــد أصبح لا يعطى سوى جحيـــم الجليـــد (   ) تجمدت أحزاننا واختنقت بها ألسنة اللهب دون أن تنطفـــئ أو تبتعـــد، وأفيق إلى أننى قضيت أحيانا يوما بكامله وأنا جالس فـــى مكانـــى، شاخص فى سطوح الناس ببرود أخير ليس برود الغربة هـــذه المـــرة وحسب، لكنه ذلك البرود الذى نكتشف بداخله فجوة الحقارة، العـــدم، الظلمة الخاوية الباردة، جبل الثلج الراقد بداخلنا والذى يتهاوى أمـــام الجحيم، والناس يهرعون أمامى ويصطدمون أحيانا بى. كنت التفـــت لهم وأندهش لبرهة ثم أغلق فمى وأهز رأسى : ما الذى يفعـــل بـــهم هذا؟ ما جدوى كل هذه الضجة وهذا العنف ؟ بالأسلوب نفسه مـــات

رجل كان يريد أن يدرك القطار فتعثر ولم يصح حتى ليرى نفسه تحت العجلات. أخذته على غفلة منه وأنهته بسرعة. لما جرى كل ذلك ؟ ربما لأنهم يحاولون الهروب من الوقوع فى خطأ يومى فيركضون بأنفسهم نحو خطأهم الأخير. "مات الرجل المكافح ناقص العمر". هكذا علق الذى نقل إلى الحادثة. ذلك المعلق مخدوع. ماذا يجعله ينطق بهذه الأكذوبة المتداولة ؟ إن أحدا فى العالم لم يولد ويترك ليحيا كامل العمر أبدا. كلنا نحيا بلا أعمار. إذا لم نجر وراء القطار لنموت تحت العجلات سيحدث أن نمر من أمام القطار ليمر فوقنا. بل حتى إذا اختفينا فى المناطق النائية البعيدة عن كل القطارات فسوف يجئ بلا قطار. إنه يأتى كما هو.

التفت مندهشا إلى رجل يمضى أمامى وفمه مفتوح على اتساعه، وأطرافه تتحرك بعنف. لويت شفتى ورحت أسأله عما يفعل. استغرق أكثر فى فتح فمه والاهتزاز بعنف والتلويح بقبضته.

- قلت ماذا تفعل ؟

هدأ قليلا ثم حدق فى بشراسة وأمسك بكتفى :

- ماذا تريد ؟

- قلت ما هذا الذى تفعله ؟

عاد ينطلق فاتحا فمه إلى أقصى اتساعه ورفع يده وهوى بها على كتفى ثم أدارنى ودفع بى بعيدا. رغبت للحظة أن أسبه لكنى لم أفعل. قلت لنفسى أنه لا يستحق السب، فسيكف عن كل شئ فى يوم ما. إنه لا يرى ما يجرى خلفه. لأننى كنت أرى ما هو مفتوح وينتظر فرصة يشده فيها من قفاه ليغلق فمه بشدة ثم يعود ليفتحه صارخا بلا جدوى. تنهدت وسئمت وأنا أحاول أن أبقى على اهتمامى بالناس لكنى شيئا فشيئا فقدت الرغبة واقتربت من الصقيع.

كانت العتمة تصوت فى المجرى بخفوت أسر دائما تحت كل صوت طارئ. والريح تطوح برؤوس النخيل فى عزيف حاد أسمع فيه بصعوبة مرورها بين السعف والجريد، وصوت الرؤوس السامقة المنتصبة والريح تميل بها وهى تقاوم. بعد فترة تهدأ الريح. تصمت فيطفو الصوت الذى يجرى دائما، صوت العتمة فى المجرى. تشحب فيه رؤوس النخيل التى تحاول أن تستعيد انتصابها لكنها لا تستطيع أن تستعيد كبرياءها. لقد رأيتها عارية مرة، وأى محاولة لاستعادة ما قبل العرى محاولة يائسة لا تثير سوى الرثاء الأجوف.

اغتصبت ريقى وأنا أحاول أن أجلس دون أن أتهاوى. كانت راحة يدى منفردة على الحافة الداكنة وأصابعى متباعدة، وكل إصبع بدأ ساكنا مهموما. ثقيلا على الأرض، معلقا باليد لسبب ما، لكن ما لا نستطيع الشك فيه أنه غدا سببا أحمق تجاه الرغبة فى الانفصال والتباعد والارتماء وحده. ولو أن شكله لا شك سيكون غريبا. بل قد يستحيل فجأة من مثير للشفقة وهو مبتور ودائرة العظم البيضاء ينهال عليها اللون الأحمر من دائرة اللحم المقطوع إلى مثير للاستغراق فى ضحك مكتوم وهو ملقى وحده بعيدا عن الأصابع المعلقة باليد كجراء هزيلة مقيدة من ذيولها، فقدت من طول ارتمائها فى القيد، ليس الرغبة فى المغادرة وحسب، بل حتى الرغبة فى النباح. وبدت الرغبة فى الانفصال أكثر منطقية من هذا التجاور اللا مجدى، من التعلق من مؤخرتك ضمن مجموعة عناقيد من الكلاب.

انتبهت إلى دائرة القمر المهتزة البيضاء وهى تصوت فى المجرى بدلا من العتمة. عبثت يدى بصلابة الحافة الداكنة فانفصلت كتلة رطبة من الطمى، حملتها وبدأت أكورها كرة صغيرة

ثم صوبتها وأطلقتها إلى دائرة القمر المهتزة. لم تصبه. أخذ يتأرجح بهدوء انقطع حتى أطلقت عليه الثانية وبعدها الثالثة فتأرجح بعنف وأعتم داخله واتسع ثم سكن وعاد يصوت فى المجرى، تنهدت بحزن : من العبث أن نصل إلى القمر مادمنا لم نصل إلى الإنسان. ولبثت ساكنا أتأمل هزيمة النصر الذى يرفرف خادعا علينا.

وفى العودة رأيت رجلا وامرأة يسيران معا، كانت عجوز تتكلم ببله وهو يؤيد كلامها بهزات بطيئة من رأسه، ثم ضحكا معا، يوما ما سيفقد أحدهما الأخر. حزنت لأحدهما الذى سيفقد الآخر، وبدأت أحترق وأنا أذكرها والجحيم يعود ليتقد فى ألسنة الجليد. والـ (   ) هو ؟ غصت هربا منه فى شارع مزدحم وأحسست بالجوع. رأيت محلا لبيع اللحم ورأيت أمامه رجلا يشترى لحما ويشير للبائع إلى ما يريده وامرأة ساكنة منتظرة بجواره. كان البائع قويا أمسك بالسكين وتناول ساق الحيوان المذبوح المعلق من مؤخرته وقطعها. والرجل واقف وعيناه مفتوحتان بكل جوعهما. سيلتهم اللحم الليلة، ويدخل دورة المياه أو امرأته، وفى الصباح يقضى اليوم منشغلا بوجبة أخرى.

حين وضع الخادم أمامى طبق الفاصوليا الخضراء كدت أصاب بقيء. رأيت الفاصوليا أعضاء كائن ملقاة فى طبق. تعاميت، لكننى عندما رفعت اللقمة وعليها أعضاء الكائن لم أستطع دفعها حية فى فمى فأعدتها إلى الطبق وشربت ماء. وقمت أتجول جائعا.

الـ (   ) أرهقنى. لا أستطيع المواصلة فى هذه الرؤية. الاصطدام المتكرر بكل ما حدث وسبق أن حدث : وقع الحريق. إن لم يكن قد وقع بالفعل وزحف فهو سيزحف حتما على كل ما يبرز خاليا من الصدأ ويأسرنا. هذا الـ (   ) قيح طاعون دائم. عالمنا يبدو رمادا ملوثا بالدم. يهطل من الشمس

ويسيل من جراح الأرض ثم يأخذ شكل الـ (   ) هـل قلت الإنسان ؟ لا. إنه يأخذ شكل الاحتراق، وحركة الضـوء الموجـود المتسلـق الصاعد لفترة تكتشف بعدهـا خدعـة الـ (   ) لنـا. لعيوننا. لأيدينا. لأحضاننا. لتساؤلنا المرفوف دوما، المنـهك مـن التحليق، الخائف أن يحط على الـ (   ) ويجتاحنـا بصقيعـه الجهنمى على حين غفلة فنقع فى الـ (   ) يا للأسر الذى يوقظنا. هل قلت نصحو، لا. إننا نفتح عيوننا فنرى الـ (   ) ليـس سواه مطلقا. وذاتنا مفتوحة وباب الصخر الوهمى الداكن يرتفع مـن ورائنا، ونلتفت. نلتفت وحسب لنرى فنفاجأ بالـ (   ) أبدا لا داعى للنكران، فليس ثمة جدوى. فالـ (   ) لم يعد يتوقـف على اعترافنا أو ما نفعله إزاءه. ليس أن ننكر، ولكن ندع أنفسنا بـلا مقاومة كاذبة. لا يجوز إلا تشغلنا أية حركة لا جدوى منـها. إزاء الـ (   ) وحسب، نحاول السكوت، ونرى. يجب أن نـرى. نحتـرق بالرؤية ويشتعل الـ (   ) فى عيوننـا. بـل فـى داخلنا. السكون للـ (   ) البوذيـون يصنعون ذلك. رأيتـهم يظللـون بالنـار فـى أماكنـهم بـلا حركـة. حتـى يتسـلق الـ (   ) كيانهـم. والسـواد خلف الجحيـم. مـن عنـد السيقان إلى البطن إلى الصدر إلى الوجه إلـى الـرأس إلـى الـ (   ). انفجـرت الجمجمة. ذلك أجدى ؟ أبدا. ربما أقـل خسارة ؟ لا. ربما أكثر رجولة ؟ شجاعة ؟ أن ننفجر ونحن نرى الـ (   ) يا له من معاند، كبرياؤنا. أقل الأشياء زيفا. سوف يندفـع نحو الـ (   ) وتنفجر الجمجمة. المهم ألا نسقط بظـهورنا. أن نسقـط والهوة أمامنا. الغرور الـذى يقودنـا إلـى مذبحـة أن نواجـه. فربما لو كان فى هذا العالم الذى شبع موتا، شـاطئ مـا، يختفـى الآن أمام العيون المفتوحة التى لا ترى لأنها مسدودة الخلف،

لو ثمة شاطئ، فيمكننا أن نبدأ بالتفكير فيه من الآن. قبل أن يأتي الـــ ( ) ونسقط. نستمر في السقوط. أن نبدأ بالتوقف. بمحاولة إزاحة الأبواب الوهمية الداكنة خلفنا تحت ظل فترة تـــأمل. وربمـــا نضطر للرجوع إلى الوراء، متراجعيـــن عن العمى، متخليـــن عـــن العيون التي لا ترى والأيدي التي لا تملك .. للوراء، أقصى الـــوراء، عبر تدفق الظلمة، وشلالات الزمن المشتعل، لو تحملنا ربما نعـــود : نعثر على النصاعـــة الشاســـعة ( ) نائمـــة فـــي التذكـــر. وأضواء القمر الشاب على عذرية الرمال المترامية البيضاء. حيـــث يمكننا أن نرى. نطلع على البداية. نعرف إن كان أرنبا بريـــا ذلـــك الذي يعدو في الضوء أم التواءات أفعى، دون أن نفتح عيوننا لـــنرى، وعبـــر كل المسافات الهائلة نبكي لكآبة عبور طـــائر مـــهاجر فـــي صمـــت. وأجنحتـــه تحمل عبء المسافات الغريبـــة الموغلـــة فـــي القلب الذي ناء بوجوده عالمه. ربما لو استطعنا العودة أمكننا أن نرى من أين يبدأ الـــ ( ) بجحيمه وكيف يزحـــف فجـــأة بتـــؤدة مرعبة نحونا حتى الصعـــود واجتثـــاث رؤوســـنا. لـــو أمكننـــا أن نحـــاصـــره ! وتلاشت المسافات الهائلة، ورأيت الباب الهائل ينفتـــح أمـــام سنابك الجياد المغطاة وآذانها مدلاة. ستة جياد تجـــر عربـــة مذهبة رسم حولها بالخشب المموه بماء الذهب ملائكة ! وفـــي جوف العربة تابوت في جوفه ملابس كاملة في جوفـــها جثـــة مـــن كـــان صاحبها. وبرقت اللحظة في رأسي بملايين الجيـــاد تتجـــه إلـــى ( ) تجر جثثا وتدخل بها بوابات هائلة تخرج نافضة آذانـــها بدونها، عبر جدران البحار والأنهار والغابات والجـــبال : جياد تشـــد عربات القتلى، أو وحوش بثماني قوائم، أو قتل جماعي يتم بلا دفـــن، قد تستطيع الشك في أن هناك في هذا العالم إنسانا واحدا يملك سعادته في هذه اللحظة، لكننا لا نستطيع الشك في أنه لابد في هذه اللحظـــة.

رجل يقفز صاعدا للعالم الأزرق ويراهم، ويحاول أن يفلت فيفلت من عينيه العالم.

ويمسك بـــه الـــ ( ) وتنتشر الأمواج حوله صاخبة بينما يسحبـــه القاع. وامرأة تحترق أو تقتل تحت عيون أطفالها، وهم يحدقون فيها صمت. وأبناء ينتظرون آباءهم فإذا بهم ينتظرون الـــــ ( ). عثر عليهم قتلى تحت العجلات، أو منطرحين بالضربة أمام مقدمة سيارة أو قابلهم الـــ ( ) فسقطوا وحدهم عندما كانوا عائدين إلى أطفالهم فى غبطة. وآباء خرجوا بعد ما وقف الضـــــرب المجنون يبحثون عن أطفالهم وزوجاتهم فلم يجدوهـــم ويحـــاولون أن يطيلوا مدة البحث هربا من العودة للعثـــور علـــى الـــــ ( ) وتنطلق غربان الأصوات تحوم على مدن بكاملها تنفتح الأرض تحتها لتلتئم مرة أخرى وكل سكانها مختبئون بالداخل. وغرقى يدوم بـــــهم موتى فوق وجه الطوفان، وعبر كل جدار لو رفعتـــــه ســـترى الـــــ ( ) حدق جيدا فيما تراه فقد يكون جثتك. أتحدى العالم لــــو حدث ورفعنا جدران الاحتماء المزيف وأبوابنا الوهمية أن يملك أحـــد الجرأة على الاحتفال بأى حدث. ارتداء ألوان الفرح الكاذبة والتباهى بها . بل أتحدى لو جرؤ أحد ووجد الرغبة أو حتى القدرة دون رغبة على أن يفتح فمه بفتحة مستطيلة سافلة على جانبى وجهـــه. أقصـــد يجرؤ على أن يستطيع الـــ ( ) ما كان هناك فى الماضى، ما كـــانوا يطلقون عليـــه الــــــ ( ) آه. الابتســـام ( ) الكلمـــة القديمة فى الأسلوب القديم ! مـــن قـــال هـــذه العبـــارة : "أسلـــوب قديم. كلمة قديمة ؟" آه تذكرته :

صاحب الابتسامة المفقودة[١] يوما ما كان مثلنا قبل صحونا على الـ ( ) كنا نملك الابتسامة. لم تكن سافلة كما تبدو الحركة التى تشبهها الآن. كانت رائعة وكنا نملكها ( ) لكنا فقدناها.

انزلقت من الكلمة. أصبحت الكلمة بعد ذلك بيضة خاوية. بناء يرى من الخارج. لكنه فى الداخل فقد كل ما كان البناء له. تكفى لمسة واحدة لتتهاوى الكلمات بعد ذلك فى الـ ( ) تعرت الكرة البيضاوية وفقدنا وجودنا المحفور على الصخر. رأيناها جدارا من الكلس الهش ورأينا أنفسنا نرتجف كالظلال ونمضى ولا يتبقى منا سوى الـ ( ) ليس سواه. وإذا حدث وتبقى، وظل منتصبا بعدنا هذا العالم، فلن يحتاج الأمر إلا إلى أية حقارة تصطدم به لتهدمه وتطيح ببناء الزيف المشدود بالـ ( ) يا للخواء الذى كان قائما له شكل القلاع وحوائط اللا شئ.

وأخيرا حان الصمت ( ) لا. حان صمت الصمت، بعد حركات الفك المتوالية والتضرع والتساؤل أمام الـ ( ) وإقامة الطقوس الأخيرة. الطقوس التى عريناها فجوبهنا الـ ( ) الصفعة السوداء للوجه البشرى المخدوع. الوجه الذى كان يشخص، يتكلم، يرجو وهو يمضى يحمل فى داخله مشكلة غياب الإجابات. فإذا بالـ ( ) يأتى، يدمر ثم يحرق كل شئ. حتى الغرق الأخير الدائم. هل عانيت أن تغرق فى ذعرك الدائم ؟

---

[١] ما يراه الراوى فى مساحة الصمت هو الوجه وليس الاسم أما الأسم فهو : صمويل بيكيت.

طرفت أهدابى. العيون المتراجعة للداخل تحت ثقل الجفون المحترقة والفم الجاف الذى يدهش الآن للأيام البعيدة وقتما كان يتكلم. ينطلق صوته بسهولة، واللسان الراقد وسط الذهـــول، وأمامـــه كـــل الكلمات كأغنام كثيرة راقدة وهى ميتة لا تأتى، تاركة معاناتنا عاريـــة تحت أقدام الخطى التى تلوثنا بالصدأ، الخطى الداكنة التى بعـــد مـــا أفقدتنا الفزع السريع، تركت مكانه إغراقنا البطيء الدائم، لدرجـــة أن الإحساس فقد الانتباه لها : خطى لا يمكن مواجهتها، تأتى فـــى لـــون الرماد العديم اللون، والذى يـــدرك تماما أننا فى آسره، فسواء ســـرنا بهـــدوء أم جرينا بالفزع، أم هوينا فى النوم فنحن عائدون لـــــه فـــى النهايـــة بل نحن لسنا عائدين، لأننا لم نغادره حتى نعود. إننـــا فـــى القبضـــة. تحت الحراسة الدائمة للغزو. قوة غريبـــة فـــى مظـــهر ضعفها القاتل الوحشى، والأكثر وحشية من عدو يواجه، بطيئة حتـــى فـــى الابتسامة الساخرة النائمة المتئدة الواثقة مـــن نـــهايتنا التـــى لا تستحق حتى أن تصحو، فهو أبدا لا يخطو. نحن نخطو. نحن الذين نقوم باللعبة كاملة : نراه فنفر ونعدو ونلهث فى العدو ونتعثر ونبتعـــد فنقترب. رغما عنا نحيا نحيًا نحيا، فإذا بنا يا للابتسامة السافلة نموت نموت نموت. بجوار السيقان تماما. بجوار الـــ (   ) عـــراه تحـــت الظل الطاغى البارد. والتفت مبهور الأنفـــاس مـــن العـــدو والذعر وأصغى للـــ (   ) أبدا. لا شئ وراء كل هذا. ليـــس ثمة خطى. الظل طاغ بارد حقيقى. ونحن حقيقة عارية تحته. لكن ليس ثمة من نتحداه، نتمرد عليه، بل حتى عندما أســـتجمع وجـــودى المخدوع المهان وألعنك يا (   ) لا أجـــدك. لا تـــرد على ســـبابى لك. وأنت لا ترد، لا تعاقب،

ولا تختفـــى وحسب، بل إنك (   ) كم أود لو (   ) بـــل كـــم أود لو أصرخ بكل صوت العـــالم الأخـــرس : كـــن موجـــودا

لأصفعك لقد صعدت أكثر الجبال وعورة لأتكلم معك، فإذا أنت لست موجودا. لا أقصد ذلك. إنك لست موجـــودا وحســـب، بـــل أنـــت ( ) لا . ولا حتى هذا : ( ). إنه أكثر امتلاء منك هذا غياب. أنت حتى لست غائبا. ولست حتى لا شئ. أنت عـــدم اللا شئ. لا. ولا حتى هذا. كم كنت أود لو كنت موجودا. مـــاثلا واعيا لأقول ذلك : إنك أسوأ من أى قاتل فى كل العصور.كـــم كنـــت أود لـــو كنت موجودا، أن أحمل جمجمتـــه. أذهـــب تحـــت نـــار الشفق وأحفر معريا الثقوب التى

نسدها، بأصابعى العشر كذئب. وأحفر وأنا أتلفت حولى، أهدم الستر الخادع الذى نقيمه وأدخل. أتحسس القماش الممدد وأجره لـــك. ثـــم أجرها كذلك. وأقول لك : تصور الآن أنك أنا. غير معقول ! تظـــن أننى أتمنى ذلك ؟ لا. صدقنى. أنا أقـــول لـــك تصـــور، لكنـــى لا أتصوره. ليس لأننى لا يمكن أن أكون أنت. أبـــــدا. هـــذا ليـــس مستحيلا، لكن لأنك لا تستطيع أن تكون أنا. ثم لأننى لـــو تصدقنـــى أرفض أن أكون أنت. كغر يوجد اللعب ثم يحطمها. ربمـــا تكـــون اللعـــب لا تتألم، ينكسر عنقها وتسقط دون أن تصـــــرخ، وأنـــت لا تفكر بأنها تتألم أم لا. لكن نحن، ماذا عنا نحن ؟ كنت أريد بذلك أن أجرهم أمام القبر. تحت نار الشفق المستعر، ولا أدع أحـــدا يـــرى، لأنهـــم يقدسونك. ولا يخترقون حرمة حصـــارك لمـــن أتـــوا إلـــى مملكتك. وأمددهم متجاورين. وأقف بينهـــم ثم أشـــد الغطـــاء مـــن فوقهما معا. وفى اللحظة نفسها، مـــرة واحدة. وأتحـــداك أن تتخـــذ مكانى. مرة واحدة ترى فيها كل كفاحك وكفـــاح آبـــائك وأجـــدادك وجنســـك كله مكوما تحت نار الشفق هكذا فى صمـــت الجمجمتيـــن. هل حدث فى حياتك أن حدقت فى جمجمة من ملايين الجماجم التـــى تنثرها فى العالم ؟ لا يبدو ذلك ؟ آه يا ( ) كيف أتصور أننى

أتكلم معك كما لو كنت موجودا. كم أود لو كنت موجـــودا لأجلـــدك على فعلتـــك. انظر إليهما معا. إلى ما صنعت بهما. كثير ذلـــك ؟ إذن انظـــر إلى واحدة. هذه أم هذه ؟ أنا لا أعـــرف. اخـــتر لـــك جمجمة لترى فيها ما فعلت. إنه لا يوجد هنا. ولا هى كذلك توجـــد هنا. أسرع قبلما يحترق الشفق. قبلما تفقد القـــدرة علـــى الرؤيـــة. انظر. نعم. هكذا من الخارج كغر جاهل قـــاس يحميـــه ترفـــه ولا مبالاته. انظر. ما هاتان الفجوتان ؟ إنهما مكان الرؤية. هل تتصور أن العالم كله كان يتسرب إلى من فتحتى هـــاتين الفجوتيـــن اللتيـــن تضيقـــان شيئا فشيئا حتى تنسدا. تصور أن تستحيل جماجمنا التـــى كنا نبتهل بها بلا غطاء ؟! والفم الذى دمرته. المكان الـــذى عـــرف صـــوت حبى القديم لك. وأصبحـــت أود أن ألعنـــك منـــه، أسـبك. أصرخ فى وجهك، أعلنها، موقظا بذلك جليد جحيـــم العصور كلـــها فى وجهك. حاملا جثة الماضى التى لا تنتهى : ذنبك الدائم. جثـــة الكائن الذى اغتلته، ومازال وسيظـــل دوما فى منتصف الظهر أثـــر ضـــربتك. لو كنت (   ) آه لو كنـــت (   ). أنـــا لا أحب أن أكون أنت. انظر (   ) تصور أن تستحيل إلـــى مـــا وسط الكفن الممدد هكذا. ملقى فى قاع مقبرة. فى الظلمة. تصـــور أن تنسحب من النور. كل النور فى العالم. النور الممكـــن والنـــور المستحيـــل. ثم نهبط بك بعد ما تحمل ضربتك التى ستقضى عليـــك فى هذا الركن المعتم، ثم عندما أسحبك أنا من الداخـــل هكـــذا، مـــن الظلمة الأبدية التى تحت الشفق. ولا تستطيع أن ترى نـــور العـــالم المحتـــرق . تشخص بمحجرى عينيك ولا تـــرى . لأنـــك فقـــدت عينيك. لأنك (   ) آه. لا يمكننى أن أكون أنت.

آه. الـــ (   ) غرنى. أحسب أنك فى داخله. نسيت أنك لست الـــ (   ) لو كنت ! أفرغت كل ما أحمله من رغبة

الآن فى جلدك. لم أكن لو (   ) لأفعل مثلك وأضربك على
ظهرك من الخلف. أبدا يا (   ). لا للأسف. (يا) وحسب.
منتصبة تجاه صمت الصمت. ليس أمامها شئ أو لا شئ. كم كنت
أود لو أسوطك يا. ليس على ظهرك جتى أقصمه، لكن على وجهك.
أتعرف أين بالضبط ؟ ليس على الخدود المزدهرة على صلواتنا. لكن
أين ؟ بالضبط فوق حاجبيك المقامين ببداية الجبهة المتغطرسة
التغطرس المنتصب فوق عينيك اللتين لا تريائنا. كنت سأعميك من
الضرب وأجعلك تكف عن الرؤية. أن تفقد الرؤية أفضل من أن تفعل
هذا وأنت ترى ثم لا ترى. لو أفقدتك رؤيتك المزيفة، ربما أمكننى أن
أغير مجرى العبث فى هذا العالم العابث مثلك. أتعرف كيف ؟ بأن
أجعلك أنت بعد أن أفقدك عينيك اللتين خدعتاك حتى الآن تسأل.
تصور أن يتساءل السيد وينتظر إجابة ممن وافق أن يكون العبد ؟
تصور ذلك ولو لمرة واحدة. وليس سؤالا، بل استجداء صارخا.
ربما. آه كم كنت أريد أن أصفى معك فى هذا الجحيم كل شئ. فربما
تيقظت. كان بودى فقط أن تصحو على صوت لعنتى لك. وضربة
سوطى. وترى رغما عنك هيكلى العظم اللذين يرقدان تحت نيران
الشفق، يواجهانك بطيبة. باتهام صامت يواجهانك. وعلى العظم،
من تحت الجلد المنتزع الذى تلاشى، بصماتك يا قاتلهم المؤله.

كان بودى ألا عيدهم. انتهينا. فقدنا خجلنا. كنت سأقول
لهم لا يجوز أن نخجل مما يصنعه هو. لكن مما تصنعونه أنتم عندما
تستحيلون إلى إلهه. لكنكم مازلتم تموتون كل يوم. كل لحظة. كل
كل.

أنت (   ) آه، لست موجودا حتى أقول كل شئ.
نسيت أننى أخاطب نفسى. تصور أننى أقوم بكل هذا الذى لا ينتهى
وسط كل هذا الخواء ؟ وأننى أرانى من الخارج. وأنا أتوجه إلى

ناحية ما، وأظل أتكلم، أحرك ذراعي ثم أتوعد وأهدد ثم أكتشف الــــ ( ) فأصمت. ثم لا أطيق الصمت وأعـرض علــى الــــ ( ) لا. أنـــت لا تتصــور. ولا جثتــاى اللتــان فقدتــا صاحبيهما تتصوران حتى أنك لا تتصور ! أقصد أن أقول. لا. لــم أعــد أقصد شيئا ما دمت أنت ( ) لا. لماذا زرعــوا هــذا الوهم في داخلنا. ثم ماتوا تاركيننا نحاسبك فلا نجدك ؟

آه يا ( ) لماذا أتكلم الآن ما الجــدوى ؟ إذن لمــاذا أسألك عن سبب السؤال ؟ لماذا لا أصمت ؟ لماذا وأنـــت غــائب لا أصمت ؟ أدخل جلدي وأتكور كقوقعة في أعضائي. لماذا ؟ لماذا لا تحط الـــ (لماذا ؟) هذه الآن. لماذا لا تكف عن الرفيف حتــى فــوق هذا الجحيم ؟. احترق الشفق تماما. تماما ؟. لمن أقول ذلك ؟ هيكلا العظم لن يسمعاني لمن إذن أقول ذلك ؟ السماء. لكنها فقــدت حتــى الصمت وأخذت الأبعاد تجتاحها.

يخنقني الصمت. وأظل أنصت : خواء الصمت. وحدي لا أراه. ليس سواي وهو ( ) تحيط بي السنة الجحيم الجليديــة ( ) لملمت أطرافي وجلست ضممت ركبتي وحملت يدي في حضني. وظللت حاملا رأسي. لن يرى. ولا أي أحــد. اللعنـــة. لكن على من سأصب لعنتي ؟ كنت أود لو ( ) ربما كنـــت، بعد التمرد، بعد أن ألعنك وأصفعك بالسياط، وأتخلص مــن كــل مــا تحملته بسببك، ربما كنت أحببتك ! أتعرف ؟ على الأقل، رغــم كــل الكراهية والعناء، ورغبة كل منا في القضاء على الآخر، إننـــا كنــا سنكون اثنين. أن أصيــح يا : وتكون قبالتي. قد تحكم علي بالجحيم وقد أحــاول أن أحطمك، مثلما حطمتني. لكنني في النهايـــة ربمــا كنــت سأحبك. آه يا ( ) لو كنت موجودا ! كنت تكلمـــت معك الآن، ربما كنت قلت لك عن كل ما أحببته فيك من قبل، ومنعني

عداؤنا عن أن أبوح لك به، وكل ما كرهته كذلك، وكنـت احـب أن تعرفه حتى تكف عنه فتكون رائعا كما، أريدك، وأفضل من كل شئ، إننـي لم أكن لأكون وحدى هكـذا. يـا (   ) لـو كنـت موجودا. كنت رأيتنى على الأقل، حتى ولو كأعداء. لكنـك ( ) لا. لسـت. حتى لن أعود وأقول لك أنك لست هناك. لن أتيقـظ ثانيـة ويدك هى التـى تشعل الجحيم فى العالم ليسقط فى الـ (   ) أبدا. سيظل مشتعلا وحسـب ولسـت وراءه. وسـتبرد اللعنـات. ستتجمد كدماء جامدة فوق شفتـى لأنـك لـم تسـمعها. أنـت يـا (   ) أم هـو. أبدا. انقضى الزمن الذى كـانت أنـت فيـه روعة العالم استحالت إلى : هو. أصبحت هو: لا. ليس حتى هـو. ربما : أنا. لا : هو أصبحت هو. لا. ليس حتى هو. ربما : أنـا. لا. ولا حتى أنا. بعد ما اختفت "أنت" وتبعتها "هـو" مـاتت "أنـا" كزهرة لم تتفتح وجفت بها الساق.

سقطت شفتى السفلى متقلة بالحسرة، ومضيت أتجـول فـى أرجائى الهامدة : يدى قدمى. ساقى. ذراعى. جمجمتى، ودوائـر الصدا الراقد أثر الحريق، يأسر الرغبات فتموت كلها فى مكانها.

وحدكم فى صحن هذا السجن. وحدكم تشيخـون. وحدكـم تتقوسون. وحدكم تنحنون حتى الانكفاءة الأخيرة التى تقترب بعد هذا الانتظار. لست أدرى كيف ستكون. لكننى أعـرف أيـن سـتكون. وعلى أية حال ستكونون وحدكم. وحدنا إزاء الـ (   ) يـا للجحيم فى صمت هذا السجن، سنموت هكذا. وحدنـا. مـات فـى البداية هو دون أن يشرب ماء. وسنموت نحن دون أن نبلل لسـاننا بالكلام مع أحد. حتى الكلمات الأخيرة فقدنا نعمـة الارتـواء بـها. سنموت بلا كلمات. بلا كلمات يـا (   ) متى ننسـى الـ (   ) وننسى الـ "يا" بـلا حزن ؟ ونستدير للداخل. الانتظار

فى الداخل(   ). ليس ثمة خارج. غاض الخارج. ذهب ولم يعد ووراؤه عالمه. تلاشت النعمة بكاملها. لم يتبق مكان نتجول فيه. نهرب منه. محاولين الهرب أمام زحفه. مات "هو" أولا. فسقطت رغبة الرغبات : خلودنا الممكن الوحيد. تكومت محترقة بالقاع ثم اختفى هو وعالمه. آه لو. لا. أقصد (   ) لا، لم أعد أقصد شيئا. أود لو أتعود فقط على الصمت هنا (   ) فى هذا الداخل (   ) هذا المريع (   ) وسط آلاف الألسنة الخرساء الزاحفة من أفواه الأفاعى الجحيمية (   ) مستحيل (   ) أمامنا وخلفنا يسقط (   ) يا هوى السقوط : (   ) حدث الانزلاق الخطر وها نحن نتدحرج للنهاية السحيقة (   ) تدور وترتفع (   ) يا للألسنة التى ترتفع فوق ظلمة الحوائط المتقدة المستديرة حولى، تتلوى، زاحفة نحوى (   ) يا. (   ). لا. لو نتعود على الصمت هنا (   ) لا. أبدا. فى الجحيم : لا كلمات، ولا صمت. يا (   ) الجحيم ! (   ) الجحـ (   ) الـ (   ) الـ (   ) (   ) (   ) ! (   ) ؟ (   ) ؟؟ (   ) (   ) (   ).

(نوفمبر ١٩٦٩)

شـــلالات الكهـــف الداعـــر

إلى "م" :
"أذكر عن نفسى
أننى لقيت المجد فى حبك
وها أنا ضائع فى لا نهائية الليالى
يا يأسا يزداد بلا انقطاع
ولم تعد الحياة عندى،
وهى حبيسة فى عمق لهاتى،
غير صخرة من الصرخات".

"إنجاريتّى"
(ترجمة د. عبد الغفار مكاوى)

ماذا تبقى منا حتى تجتاحه بتدميرك يا ألق العثور المتراني في الوهم، يا خطو الآتي المتراجع، والجياد الجامحة تجتاحني في الرياح المبتلة بشوارع المدينة، والسماء، شتائي الدائم. ولا أمل في بزوغ حنايا ووجهها المعتم في لون معدن فقد لمعانه واجتاحه الصدا، نفس اللون لكن بلا معان. بمحكمة الدوران حول الأرض، غطاء للغرباء لا يمنحهم سوى الغثرى أكثر. والتجول حتى الانزلاق مع الشوارع نحو البحر، فكل شوارع المدينة منزلقة دائما نحو البحر، ومهما هربت في جوف المدينة فأنت في قمة مواصلتك للهروب، تجد نفسك فجأة في شارع يتدلى بك هكذا نحو البحر.

أدرت رأسي مستجديا حب المدينة فلم أجد. وقت جموح الجياد الباردة لا تكون هناك مدينة. كانت الشوارع بالفعل تحت صوت سنابك الجياد، لكنها لم تكن شوارع المدينة. جعلت أحاول دائما السير إلى جوار الحوائط برغبتي في الاحتماء. لكني ما وجدت أبدا حائطا أحتمي به، وأسير بجوار البيوت متعمدا أن أحتك بقمة كتفي، وطول ذراعي، وباطن يدي بحوائط البيوت، لكنها تبتعد دوما متعالية لتتكوم موصدة بإحكام على من بها، والعرى البارد يظل دائما بيني وبين الحوائط.

وتأخذ فى لطمى الريح بعنـف فأسـرع راكضـا. أعـبر التقاطعات بسرعة وأتوقف فجأة فى أول كل شارع. أنظر إلى نهايته الغامضة وأرى خطا صلبا قاسيا لا ينحرف نحو أية كومة من الأكوام الحارة المضيئة بالداخل، والمتزاحمة على ناحيتيه، بل يسرع بى باردا نحـو البحر. وأرغب فى النكوص لكن إلـى أيـن؟ وأخجـل مـن الوقوف فأسرع كما لو كان كائن ما لابد فى انتظارى. وأظـل أغـذ السير حتى أنتهى إلى اللهاث، ووجه ما لا يغادرنى أبدا. والشـوارع العارية من أى قدم تهبط بى نحوه، وأظل أخب فى الرمال اللينة، حتى الرمال الصلبة، حتى الوجه البارد الدائم. لا مفر. هكـذا، ودائمـا، نخوض فى عدم البداية. عتمـة الذى لا يبدأ ولا ينتهى. المحـدود المسطح فى الخارج والمستحيل فى الداخل. قرب الفظاعة المسعورة: عتمتـك. وبروز الصرخات التى تشهق وتقفز طافيـة ثـم تسـقط مختنقـة فى قبضـة الصمت. ونعدو وليس ثمة منفذ. مـا تمكلـه حتى الآن لا يعدو جسد الرغبة، ومع ذلك لا تكـف عـن التجـوال والبحث فى العتمة. ونتذكر ما يحكى عن ضوء العالم. أبدا. ليـس ثمة ضـوء يجسر على اختراق عتمتـك. لا مفـر مـن أن تكـافح للضـوء وسط عتمتـك. هكذا. بلا بداية. ودون أن يشـاهد لـك أحد. بل حتى دون أن يشاهدك أحد.

والتمع حادا وجه البحر. ككل يوم. ضائعـا إزاءه دومـا، والضبـاب هو الوحيد الذى يرى. متشابـها معلقـا فـوق الدكنـة المتلاشية فى داخلها. ورغبتى لا تتعدى برودة البشرة أبدا. طـائر يحوم لأمد طويل، يصنع الدوائر التى تبدأ عالية واسعة تهبط وتضيق لتصبـح أكثر ضيقا وانخفاضا وأكثر قربا وسرعة، ثم يـدوم دفعـة

واحدة على ألق فرح. وما تلبث مخالبه أن تبتل بالموجة حتى تتلاشى. ولا يستطيع الطائر أن ينفذ إلى أكثر من حدود رؤيته.

فوق الطوار الحجرى عاد الخطو يزحف رغم عبث الزحف. والرغبة مقطوعة الرأس ومع ذلك تحس بالأجساد الحارة المتوجة بأزهار الشعر ملفوفة بإحكام فى المعاطف الجلدية الواقية من المطر. والجوارب الصوفية الملونة، والأحذية ذات الكعب المدرب على العزف، والقفازات والوجه : النافذة التى ما كان ينبغى أنْ توصد أبدا، أكثر انغلاقا من كل نوافذ الجسد. مشدودة القيد فى صحن الألوان، والبسمة المتداولة المطفأة مقسمة بالتساوى على جانبى الفم. والعيون تبدو ولمعانها طلاء. ساكنة فى الوجه كعيون لعب الأطفال، ليس مهما أن ترى بقدْر ما أن تحتل مكانها فقط لكى يكتمل الوجه. ودائما، كانت الوجوه تمضى فوق الطوار كاملة كوجوه الموتى.

وأواصل الزحف لأننى أخشى التوقف، كانت فى داخلى حية، ما أن تحس بى واقفا حتى تمد أطرافها الأخطبوطية وتنطلق فى فراغ الغرفة فوقى. وقبل أن أفعل ما تجبرنى عليه كل يوم، قفزت بها إلى الطوار، لم أجد الطوار مختلفا عن الغرفة. الطوار فقط أكثر ضوءا، وذلك ما يخيف الرغبة. يجعلها تتجمع خشية الضوء الحاد. ولذلك أقضي بها كل اليوم فى الخارج. وعندما تنطفئ المصابيح فى الطرقات لم يكن ثمة مفر من العودة.

لكن ما حدث كان جديدا، عندما كنت أزحف محاولا الابتعاد عن البحر انتبهت بغتة على اصطدام معطف جلدى بى. وامتعاضه من وقوفى فى طريقه وسط الطوار. لابد أنه انفعل، لأنه ظل مديرا لى رأسه، ودائرتا السواد فى عينيه تبرقان بسرعة مع

حـركات يديه واهتزازات زهور الشعر ووجهه يحمـــر، أحسست بفـرح غامض، وأنا أرى وجهه يحمر بغضب فى وجـــهى. كـان وجهه قبل ذلك كالح البياض لكنه لما أخذ يحمر صرت أتـأمل ذقنـه بحركته السريعة وخديه يغمرهما فيضان الماء المفاجـئ. وعندمـا توقف كل ذلك وهبطت يداه بالقفاز غائصتين فى جيبين على جانبيـه عاد وجهه كالحا مرة أخرى واستدار به ومضى تتبعت وقـع كعب الحذاء العالى الحاد الرنين يرجع لى ويحلــو. ابتسـمت للرنيـن واستـدرجته حتى جاء. عدت به للغرفة وخلعت مـن عليـه كـل لفافاته: المعطف الجلدى والقفاز والجورب الصوفى، والحذاء وقنـاع الألوان وطلاء عينيه ومسحت بكلتى يدى على شعره الـذى انسـدل طـويلا على الجسد العـارى تماما. والدفء المحمـر فـى بشـرة الجسد كله، فى الوجه والعنق والصدر المتسع الرحب، ونبعا الـدفء يتأرجحان فوقـه، ثم البطن النائم، والفخذان برزا فجأة فوق الأمـواج كجانبى زورق. ابتسمت لها فابتسمت لى، وعندما قفزت فوق القارب تأرجح منتشيا ولم يطوح بى للبحر، فأخذت أبحر.

لـم تكن عارية تلك التى تنام فى الذاكرة. كانت تبدو فـى قميص شفاف، والوشى حول الصدر كرغوة الأمواج التـى ولدتـها. كانت مطرقة وخيطا القميص غائصان فى الكتفين المشتعلتيـن. ولا يمكن التمييز بين الخيوط الحريرية الشفافـة والكتـف، ولا الثدييـن وشفافية القميص. والظلال ترقد فى الفجوات العطشى. تاركـة مـا يبـرز يلمع بنداء ساطع لا يصمت فى نقطتيـن صغـيرتين جـدا لا تكفان عن الحركة فى العينين المطرقتين بشرود. ونقطة تحس بـها تشمك فوق أرنبة أنفها، وبقعتين داميتين ترتجفان فى الشفـاه، ضـوء يصعد فوق العنق الطويل، ثم الضوء المتدفق الطاغى الذى يبرز فـى

العتمة المستكنة خلف استدارة الثديين. استلقيت متمطيا بجوارها فظلت مطرقة كما هى، متظاهرة بأنها لا ترانى. كانت الشيطانة بجانبى فى الفراش، يسعى لحم كل منا لاهثا نحو الآخر، ورغم ذلك تتصنع الشرود. أخذتها فى صدرى فاشتعلت بارتجاف رغبة الشفاه وتموجت تحت صدرى وحول عنقى، وذقنى وصدغى. والرغبة تستعر في حركة النقطتين المضيئتين فى عينيها. وغاصت أصابعى فى شعرها وأخذت رأسها بجانب عنقى، فتأوهت وأغمضت عينيها وانزلقت بى بقوة فوق البحر.

واستحالت الغرفة حولى متخمة بجسد الرغبة. منتفخة وباردة الجلد حتى أنها كانت تلسعنى. وكنت متلاشيا فى ركن الفراش الملوث تحتها، والجليد يلوث رأسِ الرغبة المقطوع. وأحدق مقطوع النفس فيما يصفعنى هكذا فى الفراش، وأرزح تحته. ورغبة الحط على شاطئ تطير لتسقط فجأة على جبل جليدى يدمر تحتى قاع القارب ويبرز من تحت حطامه. وأبتلع ريقى البارد وأنا أحيا فى أسف وسط كل حطام القوارب التى لا تظل تحتى.

قمت وغادرت الغرفة وحملت أقدامى على السير. كان حلقى شديد البرودة والجفاف وأيضا الرؤى. وخطواتى تسقط فى التقليد المهترىء ووقع الخطوات المعادة يذكرنى بوقع الخطى الجنائزية. ولم أحس بالرعب وأنا أتدحرج تاركا خلفى لا شئ. و "أناى" تتبعنى ككلب غريب يصرخ أو يصمت فى الطرقات دون صاحب. ويأتى الليل و "أناى" مازالت دون صاحب. وتهمد الطرقات وتتركنى فتعتم جثث البيوت أكثر. وتجتاحنى الريح فأعوى. وفى زمجرة الريح يختنق العواء ثم يموت. وأحس بأناى ترتجف فأهرع صوب فتحات البيوت المعتمة وأقف إزاءها رافعا رأسى

محدقا فى الخط الحاد المعتم بين ضلفتى الباب. والذى لا يتسع مضيئا أبدا ليسمح لى بالدخول، ثم أخفض رأسى نحو الأرض وأواصل السير بعيدا عن الحوائط المكومة على ما بداخلها. وتظل مندفعة تحتى : خطى عرجاء فقدت القدرة على السير بعد أن فقدت الرغبة.

وأكتظ داخلى بالغثيان وأنا أرى سقوط الليل يحاصر العمر ببطء، والظلمة تضرب فى وجه العالم. والطرقات تمتد أمام عرجى مستقيمة بلا معنى. مليئة بعلامات المرور الباهتة، والإشارات المطفأة من أعوام بعيدة. وروث الكائنات الجاف. ورماد الاحتراق ورائحة السير القذرة التى تنبعث من جوف النعال السائرة. وكثيرا ما أصادف تحت قدمى فجأة دما متخثرا لما يجف بجوار بقايا ساق إنسانية مهشمة. أو فقرات عنق ملتصقة بأرض الطريق.

والطريق بعيدا عن كل ما يحدث، راقد وممتد حتى انقطاعه فجأة عند البحر، ليس ثمة بادرة خضوع. وليس سوى التضخم المهين إزاء الأقدام التى تلاشيها أرض الطريق الصخرية .. وسوف يجئ يوم تتلاشى فيه القدم تماما، وأسقط فإذا بقدمى ملتويتين وصغيرتين إلى حد الغرابة. والتفت للزرقة الصدئة البادية : أكثر أنانية من الطريق وأكثر قسوة من الأبواب الموصدة. ولم يكن ثمة سبيل إلى التوقف بعد أن غدا مجرد السير مهيناً. أن نكتشف العبث ونصر على تأديته شئ مخزى، أكثر خزيا من الذى يملك الجرأة على التوقف، التداعى، السقوط، ملامسة الأرض، بسط راحتيه وساقيه والسكون. الكف عن الادعاء. ذلك أجدى من الاستغراق فى الوهم، والركض فى السير اللا مجدى. مواصلة السير قد تكون ستارا

فى وجه الخارج، تنحية للشماتة أو الاتهام. انتصابا لرسم النصر أمام وجه الآخر، لكنه انتصاب خاو، وخزى الداخل أكثر طغيانا ووجـودا من كل عداه، قد ينتفي الخارج بانتفاء اهتمامنا له، لكن الداخل ما يبقى دائمـا، حتى فى الليل، سجننا الذى ننام ونستيقظ فيـه. ولا مفـر منه، غطاؤنا الذى لو تعرينا منه ما وجدنا غطاء آخر سواه. ابتسمت لداخلى. رأيت البسمة فى وجهه شاحبة كما لو أننى أنتزعها من فوق حبـل مشنقة. ونفضت قدمى من الخطى وعـدت لـه. هـالنى أن العودة لم تكن تبعث على التفاؤل أبدا. كانت عودة لمواجهة الأشـلاء المنتظرة. رأيت الريـاح الماضية وهى تبدأ فى التحرك من بعيـد. ثم رأيتها وهى تهب بقافلة الجياد المظلمة والصفير والجمـوح. ثـم اشتدت تجتاحنى، ليس فى الشوارع هذه المرة، لكـن فـوق أرضـى العارية.

وعانيـت البرودة التى أخذت تصحو فى الداخـل .. تغمـر أطرافى كلها وما حولى بل حتى الزمن الذى سقطت فيه. وإحسـاس لم يكن مفضوحا هكذا، يطفو من صميمى كفقاعة باردة مـن صميـم بصقـة طوح بها مجنون فوق أرض صخرية ملسـاء، حتـى تنفـد الأبدية التى تأسرها وتظل معها حتى تلاشيها.

وجاهدت فى أن أذكر أياما لم أكن فيها بصقة فلم أتذكر شيئا. فقط رأيت الماضى كله عاريا ممتدا أمام تذكرى لـه، صخـر معتـم أملس. وتتكوم حاملة نفسها فوقه، بصقتى. أدركت أننـى أتذكـر. لست فاقدا للذاكرة كما توهمت. بل أننى أتذكر اللا شئ جيدا. الخواء المهيـن المنتصب فوق سطح البصقة كخيمة أسر. وجـاهدت لكـى أفقد هذه اللعنة.

انحنت السترة البيضاء أمامي. حدقت فى الرأس الذى تحمله وسألت :

- شيئا ينسى البصقة كونها.

قطب جبينه وعاد يصنع انحناءة ثانية.

- ألا تفهم ؟

ظل يفتح فمه ويغلقه عدة مرات حتى تفصد العرق من تحت الشعـــر. أدرت المقعد عنه وشرعت فى القيام، لكنى رأيت أكثــــر من سترة بيضاء تجوس خلال المناضد وتأتي نحوى وجباهـم كلــها مقطبة، قلت لهم فلم يفهموا. تعـــالت أصواتـــهم حولـــى فأحسســت بالارتباك حدقت بسخط فى كراتهم السوداء التى تتأرجح فوق بيـــاض السترات ثم سقطت فى المقعد يائسا.

سمعت عزف كعب حذاء عال يقترب ثم يتوقف إلى جوارى ثم أحسست براحة يد خفيفة تحتضن كتفى وكفها الأخرى تشير لـــهم بالابتعاد، فأحنوا رؤوسهم ومضوا. راعنى ما حدث فرفعت وجـــهى إلى الجذع اللامع حتى الأثداء الرحبة المتوهجـــة والعنـق الطويـل والوجه العالى جدا وشفتاها تنبسان بالشراب. كان رائعـــا احتضـان كفها لكتفى ووقوفها إلى جوارى هكذا وانصراف السترات البيضـــاء. تناولت يدها فى راحتى فانحنى وجهها على وجهى. نظـــــرت فـــى عينيها فابتسمت وربتت على كتفى وجلست إلى جوارى وهى لا تكف عن اللهاث والنظر لى.

ضغطت على يدها بكلتى راحتى فوق رخام المنضدة. كـــان باردا له شكل عاصفة تتموج، ويدها الصغيرة تحت يدى اللتان لم تكفا عن التشبث بها.

- كان فظيعا ألا يفهمون رغبتى.

- المصيبة أنهم دائما لا يفهمون.
- وكيف جئت إذا ؟
- لا أدرى.
- لكنك جئت وأنت تلهثين.
- إننا لا نلهث دائما لأننا نعرف ما نلهث وراءه. نادرا ما يحدث أن نجرى وراء شئ نراه أمامنا.
- لكننى جئت وأنت رغبتى.
- كان على أن أغادر المدينة بالأمس، وكنت ستجيء دون أن تجدنى.
- وما الذى حدث ؟
- رأيت البحر.
- لكن البحر يوجد دائما.
- لم أر البحر إلا بالأمس.
- ولماذا بقيت ؟
- لأننى رأيتنى أصرخ بالأمس فوق الساحل.
- ولماذا لم تكفى عن الصراخ ؟
- بودى لو أكف، لكنه لا يكف هو.
- من ؟

رأيت شفاهها تزرق وترتجف بشدة فأدرت رأسى نحو النافذة. كانت دائرة الشمس تنزلق فى البحر، والأمواج المعتمة تتوحش وتبدأ ركضها الليلى المريع.

- لقد أتى.
- نعم. لقد أتى.

وساد الصمت.

- أأنت خائف ؟

- يدك ترتجف بعنف.
- ووجهك شاحب جدا.
- وأنت تحاولى ألا تصرخى.
وعاد الصمت.
- لا تخف.
- وكيف وأنا أسمعه ؟
- بأن نحاول أن نسمع صوتا آخر.
- طوال عمرى وأنا لم أسمع صوتا غيره.
- وتوحش فى صمتنا صوته.
- ربما يصمت ؟
- لكنه لم يصمت أبدا.
- لكنه ربما يصمت.
- متى ؟!

واستحالت شراعا منشورا لصق كتفى. غص حلقى وأنا أتطلع إليها فضغطت يدها يُدىَ بقوة وشدتنى واستدارت بى فتوارى البحر خلف ظهرينا، وتعالى الإيقاع إلى جوارى. لم يكن يجئ ويولى بعيدا هذه المرة. كان قريبا مستعرا موازيا لوقع قدمى. وكان غريبا أن يحدث ذلك التوافق الذى لم أكن أتوقعه وإن لم يغادر أحلامى النائية. وأحيانا كان يتلاشى صوت خطاى تماما. كانت الرغبة فى سماع وقع قدميها صافيا تحتلنى : أن أصغى وهو يأتى. طوال عمرى وأنا أحلم بالخطوات التى ستأتى لكننى لم أتصور أنها ستأتى بغتة هكذا بالصوت الذى يتصاعد وأراه يوحد سامقا وسط الخواء، مزيلا بخطاه ريح البحر. ومثيرا فى رغبتى الدفء حتى أننى بدأت أحس بها تتحرك بقوة على شوارع المدينة. والشوارع سكرى.

والسكر شربته البيوت ففقدت المدينة صحوها القيصرى. والأبـــواب السكرى جعلت تفتح على الشوارع، تقترب يا رقص الخطى النائية، يا جمرة فحم الغابات البعيدة، يا ألق الماسات أســلك علـــى شعاعــها المســالك المحرمة، وأدب فى الدغــل الأخضــر، أعــانق صــدور الرغبات الحية، وأجوس خلال جذوع الزمن الراقد خلفك. أترنح على فمك الصامت، وأتلمس بكلتى يدى باب الكهف الآتى : علـــى بــاب كهفى يا ليل سأسهر، فأغسل زجاج مصابيحك المطفأة وعلقها الليلة !.

وبدت رغبتى كما لو كانت ستولد الليلة ولها رأس. وتذكرت الريـــح ووجه البحر، فاجتاحتنى الرغبة فى رؤية وجه رغبتى. ثـــم سكنـــت تماما ساقطا فى حزن ثقيل لما رأيت كل هذا الفرح المجنون الأعمى الذى تتعثر به رغبتى فى لهفتها للعثور على ما تتوقـــع أنـــه سيكون رأسها.

والتفت إليها وتمتمت بشفاهى التى أدركت أنها لابد ســـتكون شاحبة لأنها كانت ترتجف.

- أخشى أن تكونى قد تعبت ؟

طرفت عيناها فتوقف البريق ثم عاد يســـطع مـــرة أخـــرى، ابتسمت لها فاشتد سطوع البريق لى وهى تهز رأسها :

- هل تعبت ؟
- أبدا.
- لكن الطريق طويل.

ابتسمت وهى تتلقف أصابعى وتسطع فى عينى :

- أنت تقطعه كل يوم.
- إنه طريقى.

ولو.

- يبدو أن الإنسان ينسى كل شئ عن طريقه بعد ما يسقط فيه. أتعرفين ؟. يخيل لى أننا لا نسير أبدا. نحن نسقط أقدامنا فى الطريق، وبعد ذلك يتولى هو كل شئ. تماما كالذى يسقط يديه فى قبضتى شرطى ليقتاده إلى السجن.

كانت تتأملنى وأنا أتكلم. والابتسامة تغيض تحت وقع الكلمات. بعد أن صمت كان وجهها يبدو كما لو لم تعبره طوال عمره بسمة واحدة. بدا قاحلا لدرجة الفزع. ولما حدقت فى عينيها ولم يسطع شئ، شددت أصابعى وحاولت أن أبتسم لها. شدت هى الأخرى على أصابعى وظلت تحتويها فى صمت. رجوتها .

- لا داعى لأن نظل فى الحزن.

- للأسف، أننا لا نستطيع الفرار.

- ذلك كان قبل أن يجد كل منا الأخر.

- إذا فأنت فرح بى ؟

ونبتت البسمة ونورت فى وجهها ثانية وهى تعتصر أصابعى بفرح ظل يسطع شاسعا أمامنا حتى دخلنا الغرفة. وأغلقت بيدها الباب علينا فلم أعد أراها.

وعندما تنفستها فى العتمة أحسست بالغرفة حولى وهى تستحيل إلى امرأة، كانت رائحتها قوية، ولم تكن رائحة زهور من نوع واحد. بل رائحة حقل تتنفس فيه أعداد هائلة من الزهور المختلفة، تتمطى متراخية على الأشياء الساكنة تجعلها تفقد جمودها وتبدأ فى التقلب والحركة والتنفس لتحيطنى بها. ورأيت الأثاث لأول مرة يلمع فى العتمة. لمعانا قاسيا كما لو كان ينطلق من عينين تعانيان الرغبة التى تتقافز أمام رغبة الرغبة وهى تقترب، ويقترب نوالها. وأحاطت ظهرى بذراعها وهى تسألنى :

- أأنت تحيا دائما وحدك ؟

تذكرت كل ماضي وقلت لها : نعم.

- منذ زمن طويل ؟

عدت أتذكر ولما لم أجد شيئا مخالفا أجبتها :

- نعم منذ ولدت.

صعدت ذراعها إلى كتفي وراحة يدها تنفرد بكل اتساعها لتضمني إليها ثم قبلت جانب جبهتي.

أحسست باستدارتي شفتيها وهما تلسعان جبهتي فأحسست بساقها تلتصق لدرجة اللسع بساقي، والدفء ينتشر غزيرا من خلال ساقها وحضنها إلى أرجاء جسدي، وعندما أدارت رأسي لها وقبلتني في فمي أحسست بالرغبة تفز وتنتصب وتبدأ في المواء. ولما أعادت قبلتها لفمي لفترة أطول احتويت رأسها بين ذراعي وهمست لها بخجل:

- أنني أريدك.

ضحكت.

وخفت العتمة ولم تعد ستارا يمنع الرؤية عندما كانت تتعرى. وكنت أرقبها وأنا أرتجف وهي منحنية تخلع حذاءها، ثم تعرى ركبتيها وتبدأ تفرد ذراعيها نازعة فردتي الجورب القاتم الطويل. ورأيت ساقها بكاملها وهي تنطلق حرة في العتمة الخفيفة. وكجمرة تشتعل كانت حية واعية وليست خجلة أبدا، بل بدت كما لو أنها رمقتني وابتسمت لحظة أن تعرت.

وجعلت قطع الملابس تتساقط على الفراش ببطء وتتكور فارغة ضئيلة فوق ذاتها تاركة عاريا طاغيا يتمطى وينتصب فوق الفراش، ويدير رأسه ثم يسكن لبرهة وأسمعها من فوقه تدعوني.

تنبهت فجأة إلى ملابسى التى دارت بلا معنى كملابس المهرجين. ابتعدت فى الركن جاعلا بينى وبينها مقعدا عاليا. ثم أدرت ظهرى وجعلت أخلع كل اللفائف التى أكبح بداخلها عريى. وأحس بكل قطعة من الثياب ألقى بها على المقعد بأننى أتخفف من طقوس زائفة. وعندما استدرت لأخطو نحوها، عريا لعرى، كان صوت الرغبة قد استحال صراخا دائما، وتلاشت الغرفة بكاملها ليبقى صوت الرغبة والعرى الرحب المنتظر باتساع الفراش. وصوتها المستلقى على ظهره يرفع رأسه بجدائل شعره المنسدلة الطويلة فوق الوسادة ويهتف بى.

ورأيت البحر خلفى. كانت الغرفة موصدة والزجاج الضبابى يمنع الرؤية، لكنه كان خلفى، وخلف النافذة، وخلف الغرفة كلها.

- تعال !

بدأت أسمعه خلفنا. كانت الجياد تركض وصوت سنابكها يتناثر من أرض الشوارع الصخرية ليندفع فى أقواس هائلة مصطدما بزجاج النافذة. وأحسست بالخوف من أن يعود الرعب يحتلنى من كل ما يطاردنا بالعذاب، ونهرب منه صوب الكهف، لكنى سمعتها وصوتها العارى يتدثر بالإغراء والدهشة :

- لماذا لا تأتى ؟!

قفزت الرغبة عمياء تتعثر فى أشياء الغرفة. والعرى الممدود الذراعين قاهر تكتنفه الظلال لكنها لا تخفيه، بل لا تملك أن تغزوه يتمطى فى غموض يعمى والرغبة العمياء تصرخ فى وجه الصمت المستلقى بطول العمر، بأيدى لا ترى أبواب الدخول.

والعرى يسطع فى الظل بابتسامة عارية بلا خجل، وأبـواب محطمة المزاليج، ويهتز بصوت السؤال : "لماذا لا تأتى ؟!".

وقبل أن تصرخ الرغبة فى اتجاه الصـوت كـان ظـهرى مفتوحا، وصوت البحر يتدفق بالرياح مجتاحا فـى موجـة خاطفـة بأضواء ماتت من طول ما لبثت بالقاع كل نصاعة الشاطئ القريب ثم ناكصـا فى جذر وحشي. وبين المياه السوداء رأيت جسدى يسـقط فـى البحر ويهبط حتى تهبط أطرافى المشرعة وهـى تلـوح طلبـا للنجاة، "لا تخف"، سمعتها وهى تمد ذراعيها العاريين حولى. تنفست عينـاى فرأيت وجهها يحمل وجهى، والابتسامة العاريـة عـادت تتدثر بالصمت تحت عينين مغمضتين، وأصابعها العشر تزحف فـى خطى دافئة بحثا عنى، وعندما تعبت رجتنى بحزن :

- قل لى من أنت حتى أدعوك باسمك.

وصك حزن شفتيها صدرى.

وجاهدت أن أذكر اسمي فما وجدت. يوما ما ألصقـوا بـى اسـا لا اذكره، وفيه أب لم أره حتى الآن. وعندما سألتهم عمـا إذا كان لى أم لا، شحبت وجوههم وقالوا كلاما لم أفهمه فأثرت الصمت، ولما أعادت السؤال سألتها بحزن أن تعطينى اسما.

- وأين اسمك ؟

- فقدته لأنه لم يكن لى. كان هبة الغرباء، ولذلك لم أحبه. وها أنذا كما ترين أحيا عاريا منه.

ضمتنى أكثر وبطول جسدى شممت العطر الغـائب. كـان ينضح وينتشر كالمساء ببطء، ويتوهج مع الوجه الذى يعانقنى وينحنى على وجهى بخوف :

- سأسميك "حبيبى".

لمعت "حبيبي" ناصعة البياض، والمرأة البيضاء تنشر جدائلها وتجرى حافية القدمين على الرمال الساخنة فـــى اتجـــاهى بـــالبحر، والصغير يزحف بفرح منحدرا من فوق الرمال نحوى فى الماء وأنـــا أضحك له وأقول : تعال. وضحكته تتسع لى. كان صغيرا وحلـــوا، أجمل من الدمى التى يلعب بها أطفال جاءهم بها آباءهم. وكنت ذاهبا إليه لكى أخذه في الماء لنلعب معا، عندما انحنت فوقنا نحن الاثنيـــن وصرخت : حبيبى !.

وفجأة كان يتأرجح بين يديها وراحتاه الصغيرتـــان ملوثتـــان بالـــرمال المبتلة، ولم أكد أفـــهم شيئـــا والمربيـــة تســـرع نحـــوى. ضحكـــت لهـــا، وإذا بوجهى يشتعل من صفعتين وذراعى يصـــرخ مـــن قرصتها. احتضنت ذراعى وأنا أتألم ونظـــرت فـــى وجهـــها بتساؤل تغمره الدهشة فسبتنى. احمر وجه المرأة البيضـــاء بســـرعة ومسحت وجهى براحة يدها وأحاطتنى بهـــا بينما تنحنـــى لتقبلنـــى. ورأيت الدموع تبرق فى عينيها فدفنت رأسى فى صدرها وانخرطـــت فى البكاء. كان العطر ينفذ من صـــدرها ويحتضن وجـــهى هامســـا بصوت مبحوح : يا حبيبى !. وراحة يدها تضغط بحنو على ذراعى وتـــزيل الألم. لكن المربية مدت كحـــدأة وانـــتزعتنى مـــن المـــرأة البيضاء والصغير يضحك لى. شدتنى ثم أمرتنا، أنـــا وكـــل الأولاد بالابتعاد، وتقدمنا فسرنا وراءها، بعيـــدا عن العطر حتـــى افتقدتـــه. لكنه عاد الليلة يحتضن رأسى وصدرى وذراعى وساقى، وابتســـمت لها بحزن فقبلتنى فى فمى ونشـــرت أذرعتـــها حولـــى ورجتنـــى أن أسميها: "حبيبتى". تأملت عينيها طويلا وهما تومضان لـــى والفـــرح تائه فى سمائهما أيضا. شعرت بالأسف لـــها وابتســـمت. ضمتنـــى وظلت ترمقنى طويلا ثم انهالت تقبلنى فوق جبينى، وفوق خدى، وفى

فمي، وعيونها تسبح في الدموع وترجوني أن أضحك أن أفرح أن أخذها أن أعطيها أن أتمنى أية أمنية.

وتفتحت بين يدى : رحبة الصدر والأبواب والطرقات، وصوتها الساكن فى حضنى ينسكب فى داخلى بالنداء من كل أرجائها، وظلالها الرطبة الساكنة أمام الأبواب والمنعطفات وفى الطريق إلى الداخل، تعطى وعدا بانتهاء التخبط الذى كاد أن يحرق العمر فى التجوال أملا فى العثور. واحتويتها بين ذراعى بجسارة راغبا فى الولوج إلى حيث أجد وجها لرغبتى المقطوعة الرأس. والتفتت بعنقها نحوى بسرعة وطوحت بجدائلها فانهمرت الخصلات الطويلة تغرق رأسى بظلال ينزلق فوقها الضوء ولما جعلت ملامح كل منا تلتصق وتغوص بملامح الآخر، وأخذنا نتبادل التنفس أدركنا بتغير إيقاع النبض أن كلا منا بدأ ينساب دافعا كيانه نحو ذاته فى الآخر.

من أين أنت ؟

ومن أين أنت ؟

وكيف لم تتلق الخطى منذ السقوط فى الوجود ؟!.

ولكم ضلت الخطا منذ الأيام الأولى البعيدة : كنا كثيرين جدا، ونحيا معا، وكنا متقاربين فى العمر ونرتدى أردية من نوع واحد. ونتناول طعاما واحدا. والتى تنام فى غرفة مجاورة بالليل هى التى بدأت تعلمنا الكتابة بالنهار. وكنا أبرياء حتى عرفنا الكتابة، أبرياء فى أسرتنا، وغرفنا، والفناء محاط بسور عال به باب لا يفتح إلا عندما يسمحون لنا بالخروج إلى البحر.

ولم نكن نعترض على أى شئ لأنه لم يكن ثمة إحساس ضد أو مع الأشياء أو الأشخاص حتى جاءتنا المربية متجهمة، كما

لو كانت مرغمة على ما سوف نقوم به من أجلنا، وأخذت تخط على لوح خشبى أسود خطوطا جيرية. كانت الخطوط فى أول الأمر تأخذ أشكالا مسلية، شكل العصى، والأنية. والحبال الملتوية، والسياط المعقودة الطرف، والسكاكين ومناجل الحصاد. وأمرتنا أن نصبح وراءها : ألف، باء ... وبالليل كانت تغمرنا سعادة جديدة طارئة. وفى الأيام التالية صحنا وراءها. أم. أب. أخ. أرض. سماء. إله. كنا قد عرفنا الحروف ورددنا الكلمات، لكنا سألنا عما تعنيه الكلمات. ماطلتنا فى البداية ثم جعلت تكلمنا عن أشياء لا تفهمها. ومن المعاملة القاسية التى كانت تعاملنا بها بعد كل سؤال، أحسسنا أننا ننزع رغما عنا براءتنا ونفقدها ونحن لا نجد مفرا من أن نرقب الكلمات : كيف تتكون وتوجد وما الذى تعنيه؟

وأمسى الليل كلما جاء يخنقنى بالظلمة، وأحسست أننا مكدسون فى غرفنا خلف أبواب مغلقة حتى لا نرى ما تخفيه المربية عنا. وأن النسوة اللاتى كن يمررن من تحت النوافذ ويلوحن لنا بعد ما يتوقفن قليلاً ويقذفن لنا بقطع الحلوى الصغيرة، لابد يعرفن سر تلك الكلمات.

وفى أحد الأيام جمعتنا المربية وسط الفناء ثم سارت بنا حيث الباب الذى انتظرنا أمامه حتى انفتح فرأينا الشارع والنسوة والرجال والأطفال وهم ينطلقون فى كل اتجاه ويتكلمون ويصمتون ويبكون ويضحكون ويسيرون ويتوقفون حسبما يريدون هم، وليس حسبما تريد المربية. ظللنا نسير بجوار الحائط من الخارج حتى شريط الترام، وقفنا متماسكين بالأيدى حتى مر ثم واصلنا السير حتى رأينا البحر ومشينا بازائه حتى هبطنا فوق الرمال الممتدة الناصعة. وحدث أن وجدت المرأة التى كانت تقذف لى بالحلوى

من النافذة وهى تسير قبالتنا من عند موقف الترام. ثم تستريح على أحد مقاعد البحر القريبة منا ونحن نلعب. لوحت لى بيدها فذهبت ناحيتها ووقفت أمامها. فتحت حقيبة يدها وأخرجت منها قطعة كبيرة من الحلوى. تلفت حولى فوجدت المربية لا ترانى. مددت يدى وأخذتها منها. قالت لى : "كلها حتى لا يخطفوها منك" فبدأت آكلها ببطء. سألتنى عن اسمي فأجبتها. ابتسمت بحزن فظللت أنظر إلى حزنها وتوقفت عن الأكل. قالت لى : "كل يا حبيبى" فعدت آكل، ولكنها أصبحت غير حلوة. نظرت لى فدفعت بالجزء المتبقى فى فمى حتى لا تعود إلى الحزن مرة أخرى، مسحت شعرى وربتت على وقالت وهى تبتسم لى "روح العب معهم حتى لا تضربك". قلت لها أنها ضربتنى بالأمس. هزت رأسها بشدة وسألتنى لماذا. قلت لها لأننى لا أفهم كلمة "أمى" شحب وجهها ثم احمر فجأة. وفتحت حقيبتها وتناولت منها المنديل ثم جعلت تمسح أنفها الصغير وبعدها مسحت عينيها بسرعة. دهشت وسألتها إن كانت تعرف أمى. قالت لى أن أمك حلوة جدا، فسألتها أين هى ؟. وهل تلبس مثلها هكذا؟ وهل معها حلوى ؟. هزت رأسها نحو الأرض وعاد المنديل يمسح أنفها الصغير ثم عينيها المبتلتين بسرعة.

ارتعدت مع الصوت الذى اخترق رأسى من الخلف مناديا على بحدة فالتفت إلى المربية الواقفة بعيدا ثم أدرت رأسى إليها هى قبل أن أمضى فانحنت على وقبلتنى بسرعة. وقبل أن تبتعد سألتها: بخوف : "متى ستأتى أمى ؟". فلوحت لى وقالت أنها لابد ستأتى إليك.

وتكومنا مع غروب الشمس وعدنا نقطع الطريق فى طابور طويل حيث ننفذ من الباب الضيق إلى الفناء الكئيب إلى الغرفة

والليـــل خلف الباب المغلق. همست للراقـــد بجـــوارى : إن "أمنـــا" ســـوف تجـــئ. برقت عيناه وســـألنى : متـــى ؟؟؟ ولمـــا ســـمعنا الآخـــرون غادروا الأسرة وتكوموا حولى فجعلت أحكى لـــــهم عـــن "أمنا" التى سوف تأتى ومعها كل ما نحلم به من أشيـــــاء حلـــوة، ولا تضربنا أبدا وهى تكتب لنا كلمة "أمى". فرحوا كلهم، وبدأ كل واحـــد منهم يحكى عمـــا سيطلبه منها عندما تأتى لدرجة أن أحدنـــا أســـرع عندما فتح الباب وأطلت منه المربية فسألها بفرح : هل حقا أن أمنــــا سوف تجئ ؟ اكفهر وجهها فجأة كيوم عاصف وسألته وهـــى تـــهدده عمن قال ذلك، فأشار إلى. جريت محاولا أن أختبـــئ فـــى الركـــن. لكنها جرت خلفى وانقضت على وظلت تضربنى على وجهى وعينى وفمـــى كثيرا. وأصابنى الرعب والحزن وأنـــا أحـــس بـــالجدران خلفى جامدة لا تسمح لى بالاحتماء بها. ولم أجرؤ على البكاء إلا بعد ما خرجت وأغلقت علينا الباب. استسلمت للبكاء وأنا أدعوك يا أمى.
وفى جوف الليل، وكلهم نائمون مع أحلامهم المفزعة حولـــى كنـــت أنصت تجاه البحر أملا فى سماع صوتك. لكن البحر كـــان يصيـــح بخشونة على البعد دون أن يجعلنى أسمع صوتك. وفكـــرت فـــى أن الأبواب المغلقـــة هى التى تخفيك وتحول بينك وبين أن تـــأتى. وأن من الأجدى أن أظل أنتظرك عند البحر حتى تأتى.

وبت الليلة التالية كلها أنتظرك تحت أحد كراسى البحر حتى غلبنى النوم.

ورأيت البحر وهو حولى تماما بلا سماء أو أرض، وجسدى يتجـــول فى الدفء بلا خوف من أى كائن أو أى حدث. ولم يكـــن يعذبنى التفكير فى الطعام، أو الاحتماء أو أية رغبة أخـــرى. كـــان البحر الدافئ يعطينى كل حاجتى بلا ضجة. وجسدى يتبادل والميـــاه

التموج والفرح الساكن وفجأة أحسست بغضب البحر والأمواج تتنكر لى وتدفع بى إلى عالم مختلف. كانت قسوة قبضة طاغية تدهمنى وهى تحيطنى ثم تجذبنى بشدة نحو مواجهة الموت. صرخت والموج يندفع مع الهواء إلى الصدر ليبدأ حياته هو. وجسدى تؤذيه الرمال فى السكون والحركة. ولما فتحت عينى لم ار سوى دائرة الزرقة الصدئة الممتدة فوقي. وتلك الرمال القاسية تحتى. وصرخاتى تستمر ثم تنتهى ولا شئ يعيدنى للبحر الدافئ. وبدأت تلفحنى رياح البحر الباردة وتستحيل إلى سياط حول جسدى الموغل فى الضآلة والطراوة.

"ما أقسى رياح البحر الباردة".

كنت أرتجف بها وهى ترتجف بين يدى رغم العرق الذى يغمرنا معا والعذاب يحتل ملامحها حتى أتخذ وجهها شكل العذاب، ومع ذلك لم تطلب منى أن أصمت. فقد ظلت مغمضة العينين، تجاهد فى دأب لاحتوائي بلا جدوى. سألتها أن نكف عن هذا العذاب فاحتضنت رأسى بقوة وجعلت تقبل شعرى ووجهى وكتفى هاتفة بى أن أغوص فى كل جسدها برغم أى شئ، وهى تبكى وترتجف.

"ما أقسى رياح البحر الباردة".

شددت عليها بذراعي واحتضنتها أكثر محاولا أن أغطى كل جسدها حتى أقيها برودة الرياح التى تعربد فى داخلى، ولما لم أنجح مسحت خدى بشفتيها بامتنان صامت ثم رفعت صدرها فأحاط بعنقى تماما وعنقها ينحنى علي، وجدائل الشعر الطويلة الساكنة تتموج لامعة حول رأسى، واستبد بى الحلم الذى انتظرت فيه أمى تحت كرسى

البحر ولم أرها إلا بعد أن أطحت بقشرتى الجامدة وتدفقت بكل ما يصخب في داخلى من عطش نحو النبع الذى أريده.

هويت مرتميا فوق جفاف الرمال، وأخذت أزحف ملتمسا فى الجدب آثار القدمين اللتين قذفتا بى بجوار البحر وتاهتا عنى، وفى الطريق كان العالم قاسى اللفح، والأصوات التى تنطلق باليأس من استعادة ما فقدته فى الجدب المحيط تعلو وتنخفض قبلما يزحف من داخلهم الموت ويلتف حولهم ويضاجعهم فيرتعدون بعنف ثم يصمتون وعيونهم الميتة تملؤها الدهشة التى يمتصها الرماد ببرود. وكلما ترامت إلى الصرخات أسرعت بالزحف ملتمسا الأثر المفقود وسط جفاف لا يحد. لو كان خارجي فقط لما أحسست كل هذا الرعب، ولكنه يجتاح داخلى بسطوة جليد يجمد أى نبت يرغب فى الحياة. وأعضائى تكاد تتوقف عن الحركة، لكننى زحفت للمرة الأخيرة دافعا بكل ما تبقى فى من قوة حتى صعدت المرتفع الأخير وبدأت أهوى ببطء نحو ما بدا حافلا بأضواء الموجات العذبة وسط الجفاف. وصوتها العميق ينفذ إلى داخلى بنداء دائب لتائه عنها تدعوه بحنين يحترق، وأنا أهوى نحوها مسرعا، باسطا ذراعى نحو صوت النبع.

احتضنته وفتحت فمى الجاف، ولما ذقت الطعم المفقود الموغل فى القدم، أخذت أعب بلا توقف وهى تبتسم لى، وفمى يطبق على شفاه الثدى الضخم الذى تكور وأخذ يتسع أمام عينى الملتصقتين به حتى أصبح هو كل ما يمكننى أن أراه، وأحسست بأذرعتها وهى تحتضن رأسى وأصابعها تتخلل شعرى وتضغط رأسى نحوها بكل ما يستطيع الصدر أن يطيقه، وذقنها يتحسس رأسي ويحكم إلصاقها بالثدي الذي تضخم وبدأ كما لو أن خيوطا من

الدفء الحلو تتدفق لي منه، ومع أرتعاشتها الهائلة سمعتها من خلال الثدي وهي تنتحب وتقبلني. ومددت ذراعي ببطيء وشددت الغطاء فوق جسدها من أسفل حتى أعلى البطن. ضحكت بخفوت ففرحت. استحالت ليلة صيف فاستحلت قمرا يجمعنا الفرح وحركة التنفس الذي بدأ ينتظم منا معا كما لو كان صادرا من كائن واحد، وغصت خلف الرغبة وإذا بي للمرة الأولى أرى وجه رغبتي، يتخايل مهتزا قادما، وهي تدفع تحوى بالموجات وأنا أستسلم له وأزحف محتميا بداخله، انقطع العطش وأحسست كم هي قادرة، ممتدة حولي باتساع شاسع لا تحده الزرقة الدائرة التي بدأت تزهر فوقنا. وأنها أمن لا ينفد، وأنني في صدرها أملك كل شئ، وأعرف فجأة أسرار الكلمات المجهولة التي استحالت أمامي باهرة الوضوح كنهار حقيقي. ومع الري، كان زمني يتفجر بالاخضرار وكل جدب الماضي ينتفي تحت التدفق الطويل المستمر، والخضرة تزحف أكثر إسراعا من أية رياح نارية، وداخلي يسطع بالأضواء كلها، وبهجة لا تحد وأنا أرى كل هذا العالم الجديد. استلقى مسندا ظهري على الصدر الأم مواجها العالم بلا خوف. وتطلعت إلى وجهها الكبير الذي يطل على ورأسي الصغير يستريح على صدرها العريض ورجوتها. "الطرقات متوحشة يا أماه، ولا أحد غيرك مدلى يدا في هذا الليل، ودعاني لأحتمي بحوائطه، وكلهم أنكروك لما سألتهم عنك". وقبلتها : "لا تتركيني ثانية يا أماه !".

ابتسمت وقبلتني كثيرا وهي تقطع القبلات بغمغمة حبيبة : "أبدا !".

وسكنت وفوقنا يرف صوت صمت هادئ، ملئ بالأشياء الحلوة التي تعطى وتؤخذ بلا حاجة إلى سؤالها. واستمر ذلك كالحلم

الذي نطالع فيه وجها كالأبد. ثم إذا بكل ذلك يتوقف فجأة في سقوط مفاجئ، والصمت يطلق صرخة فوق الخضرة التي أخذت تحترق، والنبع الذى غاصت منه المياه فجأة وفوهته تتلظى تحت الجفاف الحارق. ورأيت أمي وهى متشحة بالسواد، وأنا أتأرجح على ذراعيها وهى تجرى، والرعب يشلنى فلا أكاد أصرخ. والغبار يتصاعد من تحت فرارنا، وغبارا هائلا يأتي من بعيد، مليئا بالوعيد والصيحات، والانفجارات التي تجئ من ناحية البحر، والسنابك الغازية من الصحارى المجدبة، واللهيب يتساقط من كل صوب، وعيناها اللتان تجريان بي تعكسان كل ما يحدث وتتأرجحان بفزع وأنا أسقط فجأة من بين يديها إلى جانب أحد كراسي البحر، وهى لا تملك حتى أن تقلبنى للمرة الأخيرة.

وسمعت حفيف ثوبها الأسود يبتعد، وكل ما كانت تخاف منه يطبق على كل شبر حولي وبدأت أختنق بالهزيمة، وأحسست بعرينا المهان وأنا أصارع الاختناق. وتلقيت في ذهول صامت ما صفعني:

كنا هامدين والبرودة رغم العرق تبدأ في الزحف إلى جلدنا، ثم تستمر في زحفها إلى الداخل، وجسدها الذي كنت قد شددت الغطاء عليه حتى منتصفه قد عاد عاريا يثير الرثاء. والثدي متدل بلون قاتم، وعلامتان زرقاوان تحيطان بحلمته التي ذبلت. وعندما رفعت وجهي إلى وجهها هزني ما ووجهت به، وملامحها القاتمة متراخية في اليأس. كانت خطوطا على الرمال المبتلة دهمتها موجة وانحسرت، وخطان من الدموع مازالا لما يجفا بعد وعيناها معلقتان بلا مبالاة على نافذة البحر. وليس فى داخلهما أي أمل في شئ ولا

خوف من شئ، كما لو كانتا قد سقطتا فجأة ومنذ لحظات في الدهشة، لهذا العالم.

وأطلقت التحديق حيث كانت تشخص ببصرها، والنافذة الضيقة تبدو كما لو أحدثتها ضربات سكين في الجدار، فاضحة في وجودها كجرح غائر ومفاجئ امتد تحت النخاع، وموجات البحر في حركتها اللا مجدية تقوم بدور غامض تحت الدائرة الصدئة. والدخان البعيد علامة قصيرة العمر على رحلة وهمية تحدث دائما محفوفة في كل لحظة بمخاطر الهزيمة، وظللت هكذا حتى استحالت النافذة إلى رسم.

أدرت وجهي بتساؤل نحوها. أمالت وجهها نحوي والتقت عيوننا ببطء أكثر وسكنت جميعها في لحظة واحدة ولم نجرؤ فبدأت عيوننا تهتز وتتأرجح وتصنع دوائر لا نلتقي. ظل ذلك حتى اصطادت عيناي عينيها وظلتا ممسكتان بهما. حاولت عيناها أن تطيرا لكنهما يئستا، فاستسلمتا لي. ظللت محدقا فيهما محاولا أن أعثر على خطأ واحد. لم تكن ثمة أخطاء. ليس سوى ما يهتز من بقايا الوهم طافيا على السطح وتدفعه الرياح نحو مصا ند الرمال كي يقع ويجف ويتطاير فاقدا حتى ذكرى وجوده وتحت كل ذلك لا يرقد في القاع سوى الرمال البنية والمياه المالحة تعوم فى حفرتين في وجهها قريبتين من عيني.

وفكرت أن يوما ما ستهب الرياح من ناحية البحر حاملة أطنانا من العواصف الترابية وتظل تدوم وتردم مياهها ومياهي، ولا يبقى من كل عذابنا سوى مخلفات العذاب : الجماجم التي تمارس نوعا من الحكمة : ألا تفصح هي الأخرى عن أي شئ مما كان يجرى فى هذا الزمن الذي نفقد فيه كل ما نملكه، بل حتى ما لا

نملكه، تاركة الحيرة إزاء الصمت، لكنة صمت يصفع صمتا أخر يحيط بنا وتولد فى جوفه كل عذاباتنا دون أن يأبه لها، أو حتى يذكرها.

وشدنى استلقاؤها فى كل هذه التعاسة التى تحيط بنا، وندركها فى صمت إلى أن أشد على وجهى ابتسامة لها. طرفت عيناها ولم تبتسم . عدت وشددت الغطاء عليها حتى الوسط، ثم مددت راحتى واحتضنت رأسها وقبلت الشعر الطويل المهشم المتناثر حول الوجه، والعطر ما زال يحلق فوقه كذكرى بعيدة تقاوم. قبلت جبينها وخديها و الثدى، حيث ترقد العلامات الزرقاء القاسية، فانتفضت وشرعت تنتحب. احتضنتها اكثر وهى ترتجف، وخيط من النيران يزحف من داخلى إلى غصة فى حلقى وهى ضئيلة بين زراعى لا تملك إلا ثديين فارغين، ونافذة كانت وما زالت قدرها التعس وان تكن اكثر تعاسة من أداتي التى لا تجدى إزاء كل هذه التعاسة التى أخوض فيها.

وسحقنى الإدراك بأن لا شئ يحيا بهذا النهار. لما سطع فجأة رأيت رغبتى وهى تظلل عينيها ثم تيأس فتغمضهما وتظل تنكمش حتى تدخل تماما فى الظل بجانب الأعمدة الوهمية التى تتداعى للسقوط فى أية لحظة. أدركت الرغبة ذلك فلم تجاهد لكى تدفع ما سوف يحدث، وكمنت فى الظل تواجه النهار الكاذب بكل ما يحفل به من أصوات ليست لأصحابها، وحركة لا تجهل الشلل الذى يتمدد فيها فتتراقص ليطوح بها العجز على أحد جانبى الطريق الذى لم يكن له وجود، والذى صنعته خطانا التائهة فبدأ من لا شئ لينتهى عند اللا شئ ورغبات أخرى غيرها تولد بجوار البحر وتعود لتموت بجوار البحر أيضا. وكل ما يحدث بين الميلاد والموت هو ما يغلفه

هذا النهار المزيف بالحركـــة والألوان والأصوات. وشيا فشيئا آثرت رغبتى الصمت. كثيرا ما كنا نتحدث قبـــل ذلـــك عـــن المخـــاوف والأحلام، ما عانيناه بالأمس وما سنصنعه غدا، وكثيرا ما دفعت بـــى الرغبة للتجوال فى شوارع المدينة محاولا أن أعثر علـــى طريـــق لا ينتهى بنا إلى البحر حيث كانت الرياح تثير عذابها، بحثا عن مـــرآة. وهـــا أنذا أجدها تكمن فى النهاية بجوار أعمدتى فـــى الظـــل، وكـــل المرايا تبدو بجوارها كذكرى مهشمة أزاحتها إلى جوار الأعمدة.

وفى يوم سألتنـــى الرغبة أين ذهبـــت المـــرأة. لـــم أحـــر جـــوابا. فأنا نفسى لا أعرف أين ذهبت، ولا من أيـــن جـــاءت، ولا حتى من كانت، وأشارت نحو دائرة الزرقة الصدئة التى لا يعـــرف أحد منذ متى وهى مغرقة فى هذا الصمـــت والصـــدأ. ولـــم أفـــهم إشارتها. ابتسمت وقالت لى أتذكر يوم أزهرت ؟. قلـــت لها أننـــى أذكر، ولم أزد. جعلت البسمة تشحب شيئا فشيئا. فهمـــت أنها تـــود لو تزهر ثانية. وخشيت أن أقول لها أنها طوال عمرها هكذا، وأنـــها لم تزهر مطلقا وأن داخلنا هو الذى أزهر بالوهم، ولكنها كانت كمـــا أعرفها. تكره الكلام، وتكتفى بما تراه فقط.

وحدث فجأة أن انهارت منى، تمددت بجوار الأعمدة وأخذت تهذى. وتحكى بصوت عال عن الماضى، وتكلمت كثيرا عن المجـــد الـــذى تذكره فى صباها وسط أهلها، وصرخت ثم انخرطت طويـــلا فى البكاء. وفجأة امتدت راحتاها بأصابعها العجفاء وقبضـــت علـــى ذراعى بعنف فولاذى وهتفت :

– أمى. اذهب وأتنى بها قبلما أموت.

ذهلت، وخشيت أن تكون قد فقدت وعيها فى النهاية لتطلب منى هذا المطلب الغريب. قلت لها أننى لا أعرف أين هى فصرخت فى وجهى ثم عادت تنتحب وتقبل يدى بينما تغمغم:

- سأموت الليلة. ولا أريد أن يحدث ذلك دون أن أراها.

وجعلت الشفاه ترتجف دون أن تنطق. أحسست بالحزن يساقط ثقيلا فى داخلى. ولم أملك أن أتكلم وحتى لو استطعت فما كنت سأتكلم. يبدو أننى أصبحت مثلها مجبرا على أن أؤمن بألا جدوى من الكلمات. وعرفت كم من العذاب يواجه الإنسان عندما يواجه ما لا تحتويه الكلمات. وفكرت طويلا ودمرتنى كل الطرق اللا مجدية وفى النهاية انخرطت أنا الأخر فى البكاء. انحنيت لأحتويها فى حضنى فى لحظاتها الأخيرة وأقبلها، لكننى انتبهت إلى أنها مقطوعة الرأس، ولذلك لم أجد وجهها لأقبله. وألح الصوت العديم الملامح، وخرجت عارى القدمين إلى شوارع المدينة التى تنتهى جميعها فى البحر وتظللها زرقة صدئة صامتة، وبيوتها كلها موصدة الأبواب، تنفث البرودة كمدينة موتى. ظللت أقطعها من البحر إلى البحر فى كل الاتجاهات وحنينى يطغى إليها، والخوف من أن تموت يجعلنى أسرع بالخطى اللا مجدية حتى غمرنى العرق وجف حلقى وبدأت أحترق فى جحيم العطش المستعر وأنا أفكر بصعوبة : "إما أنها ماتت منذ زمن طويل، وربما بعد الميلاد مباشرة، أو أنها تضاجع هذه الليلة واحدا ككل الذين ضاجعتهم طوال عمرها وهو يكذب عليها الآن فى كل ما يقوله عما سوف يمنحها من مجد".

وارتعشت خطاى، وسقطت عند البحر. يا (   ): ماذا تبقى منا، حتى تجتاحه بتدميرك ؟!

(مارس ١٩٦٧، ١٩٦٨)

عطشــى لمــاء البحــر

(إلــى : "م" : لقد هربت من الموت، بعــد ما فقــدت حبك، لأحبك هٰذا الحب المريع الــذى أفقدك فيه للأبد إذ تتحوليـــن عنــى وتســكنين الكلمات).

م . أ . مبروك

"لابد أن تنفخ فيك امرأة من روحــها كــى تصبح رجلا".

ميشيليه

(أيهـــا البحر ترفق بتلك التى يطوقونـــها بنباتـــات الصبـــار فتقطع الصحراء ملقية بنفسها إليك. ولا تفزع مـــن وحدتـــك كلمـــا ساطـــك العطش ناهشا صدرها. فالآن تجلس، أيها البحـــر، عاريـــة على الصخـــرة الشرقية تنتظرك في نهاية الليل بعينيـــن مضيئتيـــن، عاقدة على ركبتيها صرة المخاوف كلها. فـــانزل، وترفـــق، وأدفـــع بالسفن بعيدا حتى لا يلمح أشرعتها القراصنة فيداهمونكم عرايا إلا من الحب الذى يطيح بكل الأقنعة ولا يطيق ثقل الرداء !).

هل نجرؤ – أمنا التى فى الأرض – أن نناديك الآن ؟

يخجل فمنا ولا يخرج الصوت إليك. اما القلب فلا ندرى ما الذى ينمهك فيه بعيدا عنا. متحاشيا المرور فى الطرق التى تفضـــى إليك، فإلى هذا الحد صار يخجل هذا المطعون بجـــرح بالغ منا معـــا والآنيـــة التى حملناها وانتظرناك كيما تصببين لنا فيها مـــاءا نشربـــه عدنا بها فارغة إذ صببيت لنا بدلا من الماء عطشا، فأى لظـــى وقـــد شربناه كله، وأى أمل لنا لو استمر الأمر على هـــذا النحـــو دون أن تتبدل هذه الأبواب الصخرية وظل هذا الحائط الهائل يوازى خطونـــا حتى يرهقنا السير فنبدأ فى الركض ثم نجرى حتى تتحـــول صفـــرة

الحائط إلى الأبيض الذى يغشى بصرنا حتى الدكنة المفاجئة التي تجرنا إلى مدخل نرمى أجسادنا عليه فننزلق على صخر البازلت الداكن مقطوعا على هيئة باب ومنحوتا فوقه حارس برأس أفعى. أما من سبيل للداخل ؟

إننا نعرف أنك لم تغادريه أبدا، هذا الذى تتوارين فيه وأرواحنا تحوم ضاربة بجناحيها من فوقك.

كيف هو الآن ! أى أنحائه أكثر خضرة وأيها أكثر موتا، وهل اضطرمت النار فيه أم أن ألسنتها لم تشتبك بعد بحطب الحريق. وأى ليل رائق، بدلا من هذه الشمس الصدئة المائلة على نهار كاذب، سيفرش الأرض وقبة السماء لتتوافد وتملؤها النجوم التي ستجيء فرحة لتتربع ساكنة ملتفة بأذيالها المضيئة. وأى الأصوات ستتعالى عندما سنقفز من فوق هذا الحائط الذى نعتليه الآن. وأى صمت مروع سنسمعه فنصرخ فرحا، هذا الذى سيرمقنا أشبه بنمر ساكن. صمت يسبق الموت والحياة وفعل الحب بينما نشرع فى تصويب أمشاط أقدامنا العارية على أرضنا التي تتجدد فتجتاحها الحشائش المنداة الطالعة بخضرة فادحة من تحت أوراق بنية تعرت منها الأشجار التى سبق أن شق ثوبها الخريف. وفى هذا الصمت نشكل بالهواء الذى تبكى حناجرنا وهو يغادرها، رغباتنا فى سماع أصواتنا حتى الغناء ومنتظرين للصوت : هذا الذى يجيئنا من أربعين فصلا : ساقت علينا الريح، وغسلتنا بالمطر، واجتاحتنا بالربيع، وملأت بطوننا وخايلتنا بالثمار، لكنها لم تأتنا أبدا بهذا الصوت الذى نسمع حفيف تسلله من بيننا قافزا هذا السور الحجرى

ونازلا خفيفا وماكرا، وحاملا بثقة خنجرا: الشمس شهقت أول ما رأته والهواء ضحك إذ أصيب بجرح أما الحرس ففزعوا وغشيت عيونهم، لكن البحر تغير صوته وها أنت تسمعه ينهض عاليا شاهرا سلاحه الذى يبرق بالشمس التى تضحك، ويزرق بالظل الذى يختنق، يحبو صاعدا متسلقا أوائل الحروف ممسكا بعذاب وفرح بأول كلمة ليغنيها فيشرع للهواء شفاه تنفتح وتستدير دون أن يصدر عنها صوت مكتمل وأطراف أصابع تفتح عيونها وترى إذ تحط كرؤوس طير تهبط برفق على جسد أم اغتالتها كل المسافات التى قطعتها عطشا. الآن يختبئ هو تحت الثدى، ومن دم القلب المفتوح ينسل صوت الحياة المهددة والنور يرف على حدود آخر الليل، ويلوح فى العينين اللتين تتطلعان مطاردتين.

اطرحى تعبك الآن، وأريحي على ساعدى رأسك ودعينى أبلل طرف ثوبى وأمسح عن جبينك والثديين قشرة الدم. اطرحى تعبك فها هو الموت يرتد عنك فى أشواكه كقنفذ خائف وانفض أنت الغبار عنك واطرح أغلال الساعدين واخلع الرداء الممزق والتمس منها حياة جديدة لك من تحت همود السطح، من: الظلمة الناعمة، فالنعومة اللزجة، فاللزوجة الساخنة، فالسخونة الدامية، فالدم الفواح، فالآذان الملتمس كضرير، فالعماء الملون، فالألوان المحلقة، فالشمس الوليدة المجنحة على الماء الجارى حارا راغبا فى الخروج لك منبثقا من عين مردومة لزمن طويل. وتتدفعين فى البكاء والشهقات : "حمدا لك هذا أنت تأتينى فى صحرائى وتجرى على بدنى كله ماءك !" أرفع بين راحتى وجهك المنكفئ أمامى مهتزا

بجسـدك كله ثم يعـود منكفئا على راحتى فيتألق شق قمـر يضـئ بدقته البالغة ليل الغرفة وليل الشعر. كنت قد قلت لـك أننـى أحبـه هكـذا، ومددت أصابعى إلى خصلاته الثقيلـة حتـى اختبـأت بـها راحتى. رفعت ذراعيـك العاريين المضيئين، وبراحتك وأصـابعك الثمانية أزحت الخصلات على جنب حتى اتضح المفرق دقيقا مستقيما فقبلتها على جنبيك، مغمض العينين، فى دفء الشمس البعيدة علـى حزم الحطب فوق سطحنا، وبدون مرآة فى يدها، تشـد بمشطتهـا الخشبية جانبا من شعرها الذى حلت ضفيرتيـه وحـددت منتصفـه بأطراف أصابع يدها اليسرى بينما تغمض عينيهـا من الألم : هذا هو الوجه الذى كان غطاء رأسك الأسود أيـام ردائك الأسود فى سـنى ترملك السوداء يهيل عليه خصلات الشعر ويضـل الآخريـن عـن ضوئه. لكنك الآن تفتحين لى الطريق إليك بيديك فأنحنى بشفتى على جبينك الذى استراح عليهمـا وسـكن. وإذ خفـت ضجـة تنفسـنا وأصوات الدماء، سكنت الريح فى فروع الأشجـار وانحنـت علـى ملامح وجهك الذى شرع فى الصحو والتفتح على وجهى : أنـا الآن طفلك الذى فاجأه ماء النهر فخلع الرداء وألقى بنفسه إليه ثـم خـرج جاريا إليك حتى وقف متقطع الأنفاس فرحا أمامك. وبينما تتـأملينى وأنا داخل فى الظلمة بعريى عليك، ينهض عريك لى فيتسع ضـوء، وتريدننى فتأخذ الأضواء تتخطفنى وتسمعنى غناءها مبحوحا وخافتـا كالماء - طامئين إليه - يأتى تسبقه رشرشاته حاملا عصفه المتوهـج إذ ينهـض فى الفضاء نازلا بالرى لحر جسدى وصحـراء جسـدك التى تفتح أشداقها بينما ترفع الساقين لتخلى الطريـق وبينا تتلقيننـى

بعنف تصرخين شاخصة إلى تحت بيننا: الدم ! أتصايح فرحا وهو يندفع ويعلو بموجاته الثقيلة الدافئة سيقاننا وجذع كل منا : "لم الخوف وهذا هو الذى به حلمت، وها أنذا أراه". تديرين جانبا وجهك الذى تغطيه فوضى جدائلك خافية فرحك بخجل : "أكل هذا الفرح وتخجلين ؟" وأعاود الدخول فيعاود الدم انبثاقه وتفزعين فأضحك غارقا فى الدهشة وأنا أجذبك إلى : "أمن دمنا نخجل ؟!" وتتدفعين خجلة وضاحكة إلى بينما يغمرنا معا كلما دخلت حتى كانت المرة السابعة إذ نهضت وعاودت أخذك عنوة فخشيت خشية هائلة وصرخت بفرح والأرض تهتز فيدوم الدم وتستسلمين راسخة بينما تلفين ذراعك حول عنقى وشعرى،وتتشبث أصابعك العشر فى عنف لم يكن لك أبدا من قبل و الدم ينداح تحتنا. لم نكن نتبادل الكلمات أو الإصغاء، بل جسدانا يصدر عنهما الصوت و يسمعانه : الآن، هل صرت رجلك؟ خبأت رأسك بصدري. رجلي فقط ؟! لا اعرف كيف حدث ونهضت على بديل كل الرجال يدخل على إذ دخلت فقبلت شعرك : وأنا لا اعرف كيف حدث ان آتيتك فرفعت بديلة كل النساء جذعها العاري طارحة شعرها المحلول للوراء. قبلت وجهي فخبأت رأسي بصدرك وتغطينا معا بجدائل شعرك فلفنا بظلام يبرق : أترين إلى أي مدى صار حبنا ؟

هززت رأسك مشيرة إلى بأهدابك الطوال لآخر حدود البحر الطالع للسموات : أترى مدى له ؟ شهقت إذ ركضت عيناى فغشيهما نوره الساطع يرتعش بعيدا، فناديتك بخوف. احتضنتنى فصرخت مرتجفا : لم تركتنى ؟ ضممتنى فى حضنك أكثر وكددت

أموت من البرد فتطلعت إليك. نظرت لى واتسعت عيناك إذ وقعت في حيرة طائر أطبق عليه فخ : أنا معك وأبدا لن أتركك فلم كل هذا الخوف ؟ اندفعت في النحيب لائذا بصدرك فتعالت الدقات وإذا التفت بحذر ناحيته رأيته : ساطعا يفر مجتاحا المدى في طرفة عين ويوشك أن يغيب صرخت وأنا ألوذ بك بينما تقبلين وجهي بين راحتيك : مالك ؟ بكيت حتى هدأت تحت وجهك المنحني على، ورأسي في حجرك بينما تمسحين بأصابعك عن وجهي الدموع وارتجاف شفتي وشعرك لا يكف عن الانهمار ليحيط بوجهي، وعيناك قلقتان وتقاومان البكاء بابتسامات ترتعش وقبلات قصيرة وأنا لا أقدر أن أرفع ذراعي لأشير إلى ما أراه يتربص بي وبك : شفتاك يرتعش خط التقائهما الدقيق الشاحب أمامي ولا تجرؤا أن تبوحا بينما يشهرون السلاح بين يدي وجذعك. ارفعي إلي وجهك بينما أكلمك : هل كان يليق بك - أيتها الأم المقدسة - بعد ما غلقت الأبواب والنوافذ، وأسقطنا عن جسدينا الرداء واجتاز كل منا أسوار الآخر ونزل بأرضه فأكل من فاكهته وشرب من مائه وبناره تدفأ، أن تروعينني هكذا فأرتعد إذ تتبدين أمامي بشفاه لا تعرفني بينما أحيطك بذراعي وفوق رأسينا تضرب روحك بجناحيها وأمد إليها يدي فتنتهي نهايات أصابعي عند حدود ضوء الجسد، وملامحك التي استراحت بذقنها على كتفي وقبلت كل رعشات صحوها في التقائنا، تعود برأسها للوراء وتنظرني الآن كما لو من خلف زجاج، ولا ترسل نظراتها لي، بل لما لا أراه. أشدك إلي فتضغطين وجنتك وجدائلك بكتفي وحضن عنقي بقوة وتسكنين. أمسح شعرك وأرفع

بين راحتى وجهك وأديره لى فتدور النظرة نحوى وتقف على مسافة وتواجهنى بصمتها الذى يحلق عاليا، وعيناك تهبط رموشهما الطويلة السوداء كستائر ثقيلة تنسدل دفعة واحدة، أنحنى عليك هازا كتفيك فتتكاتف الرموش، وأبدا لا ترفعينهما فى عينى، بل تقومين ببطء لتستديرى بظهر عار يغادرنى ويبتعد ومازالت واضحة عليه حمرة أصابعى، وبظهرى تستعر نيران أظافرك التى حفرت مكانها كعشرة سياط. وفى مرآة الزمن التى تستطيل لا أرى سوى ظهرك الذى يمضى وأخشى أن أظل وحتى الموت أراه وأعض شفتى يائسا : فهل يستدير إلى آتيا، ولو فى الحد الفاصل بين تخوم الحياة وتخوم الموت وجهك وعلى وجهى ينحني فأموت بفم حى يشب إليك ويبقى دافئا ومتفتحا بندى قبلتك كدهشة متوردة أبدا ؟. وهل لى أن أعرف يوما ما الذى أفزعك إلى هذا الحد فجفلت متراجعة للوراء لا تصدقين نفسك ولا كل الذين يتطلعون إليك بحب، تقتلعين الورود من رداءك ولون الورد من أظافر أصابع القدمين والراحتين، ووهج الشمس من قرطك، ودكنة الليل من شعرك، وصليل جريان النهر من صوتك، المواجهة من نهوض صدرك وعلو جبهتك لتنكفئي لائذة بقبو، متشحة بالسواد، مولية للأبواب التى تفضى إلى من يحبونك ظهرك، وتسقطين فى الأيام التى تستحيل إلى ليال، والفصول إلى خريف، والفرح إلى ذكريات تنأى وتتلاشى مالئة رؤاك بذبول الوردة وانطفاء النجم، والموت الذى يزحف ويقترب حتى يوشك أن يلمسك. أما من قدرة على تلقى كل هذا الفرح الذى عشته بنفسك أيام كنا نلتقى سرا ؟ عن نفسى فأننى مستعد لمواجهة الموت ذاته شرط أن

تواجهي بحبنا الأعداء والأصدقاء، إذ ما معنا أن تحرصي على إخفاءه، وكلهم يعرفون أنه ينمو بيننا، ولا أنت ولا أنا بقادرين أن نخفى ما يفعله بنا. هذا الذى أطاح بصوابك فأطحت أيامها بكل أرديتك وأغطية رأسك المتربة، مطوحة بجدائلك السود اللامعة فى الهواء، ورشقتي فى شعرك، على جنب، وردة كبيرة، وأقمت رموشك عاليا وتطلعتى لى وللطريق وللدنيا التى انتبهت إليها مرة أخرى فوجدتها. فكيف أصدق إذا أنك غير قادرة على الفرح والأزمنة الحية القادمة لكلينا وليس أمامها لتجرفه سوى ما يخنق أرواحنا من نفايات الأزمنة الماضية، وذكريات موتانا.

أم إنك تفعلين ما فعلته من قبل، يوم تسللت أنا بعيدا عنكم يوم البحر، حتى السور الواطئ واعتليته قلقا حتى الموت على ما بيني وبينك : كنت تجلسين معهم وكانت أصواتهم هى التى تجيئني كلما انخفض صوت ارتطام الموج بالصخور، ولم أكن موليا وجهى ناحيتكم، إلا أنني كنت أصغى جيدا، حتى عندما يعلو صوت البحر، ربما أميز بينهم صوتك. كان الماء يظلم إذ يغادره على اتساع البحر كله ضوء الشمس التى صارت برتقالية وبدأت تنحدر صوب الماء، وكنت أحس بالبرد واليتم معا، والماء يعتم بعد ما فقد ضوءه الذهبى، رفعت رأسي المنكفئ بلهفة وأدرته : أهو أنت ؟. كان شعرك يتطاير بأجنحة عديدة وأنت تقفين بهدوء غريب خلفى مباشرة، وتطلين على من أعلى : "لم تبتعد عنا وتجلس وحدك ؟" اختنقت فلم أستطع الرد فتأملتنى صامتة. قلت أول ما استطعت النطق: لم كل هذه القسوة طوال اليوم ؟ ظللت فى وقفتك تتأملنني

فى صمت وذراعاك متشابكان على صدرك، وبهدوء أكثر : أولا، أمسح دموعك حتى لا يرونها !. بدأت بشعرى حتى لا ينتبهوا وأنا أفعل ثم مررت براحة يدى على وجنتى وعينى. ظللت صامتة ثم تكلمت وأنت تتأملين الشمس التى غرق نصفها ولم يبق منها سوى ما يرتجف فوق حد السيف : "ستعرف عندما تكبر إنك، وفى أوقات كثيرة، ستكون مجبرا على أن تواجه الذين يتعقبونك بوجه آخر. وجه لا يخصك أبدا، كما لو أن ما يوشك أن يدمرك لا وجود له". وأومأت بنصف التفاتة من رأسك : "علينا ألا نجعلهم يلاحظون أى شئ بيننا". وكانوا قد ابتعدوا عنا وانهمكوا فى اللعب وتعالى ضجيجهم، وعلى وجهك يستقر قناع بشفاه تتبس بالكلمات دون أن يبدو من هيئتك أنك تتكلمين، وملامحك - أقصد ملامح القناع - راسخة وحجرية كما لو أنك لم يسبق لك أبدا أن تطلعت إلى بحب. وكنت أواجهك كمن - فجأة - يواجه صحراء لم يقطعها من قبل وعليه أن يجتازها، وكان على أن أبذل جهدا خارقا كى أصدق أن تجاهلك لى طوال اليوم لم يكن تجاهلا أبدا. ورجوتك: أيمكن أن تجلسى معى ؟". ظللت واقفة وهززت رأسك وأنت تحذريننى بصوت خافت : "إنهم وراءنا" انكفأت مغتاظا أحدق فى الموجات وهى تخبط أحجار السور. كان الماء مطوقا بالصخور وبسور الكورنيش، أما أنا وأنت فكنا مطوقين تماما بهم. بحثت فى جيوبى عن علبة السجائر حتى وجدتها، وأطفأ الارتباك وهواء البحر أكثر من عود ثقاب وأنا أحاول أن أشعل لك سيجارتك. ضغطت على راحتى المحيطتين بالعود المطفأ كما لو أنك تسرقين الكحل من العيون،

فأشعلت سيجارتي أولا ثم قدمتها لك وأخذت سيجارتك وأشعلتها لـي. شرعت في التدخين بعمق بينما تمرين بأصابعك الصغيرة على شفتيك الرقيقتين والشاحبتين كعادتك عندما تستغرقين في التفكير والتفت إلي : "أنت لم تزل طفلا !" هززت رأسي متسائلا. أقول لك : "أنت تذكـر الأحداث الماضية. عندما انفجرت وفاجأتنا جميعـا، نحـن وهـم. أيامها فقدوا هم صوابهم من الرعب ليومين كاملين، وأول ما استعادوا سيطرتهم شرعوا بذعر يطلقون الرصاص على من يصادفونـه فـي الشوارع بعد أن عاد الناس لبيوتهم ، ويوجهون الضربات دون تمييز. وكنا في وقت متأخر من الليل وفي وضع بالغ الصعوبـة وأصـوات الرصاص تصلنا من بعيد عندما توالى الخبط علـى البـاب بإلحـاح أزعجنـا جميعا. أدخلت الأولاد والبنات إلى حجرة نومـي إذ كـان علـى أن أفتح لهم ورحـت وفتحت وكانوا هـم. نظـرت لهـم وكأنني لا أعرف من هم. دفعوا الباب وأزاحوني. ظللت أنظر لـهم وأنا أبدو هادئة. وجهوا لي الأسئلة فسمعتها وببطء شديد كنـت أرد عليهم كما ترد ست بيت على رجال لا تعرفهم. قلبوا الكتب وبعـض الأشيـاء بسرعة ونظر من يأمرهم نحوي طويـلا فسـترت فتحـة صدري براحـة يدي وأنا أضم الياقة بارتباك حول عنقـي وأنظـر للأرض. ناداهم فرجعوا إليه. انصرف وتـابعوه فـأغلقت البـاب بإحكـام ودخلـت حجرة نومي أطمئنهم إلى أنهم ذهبوا. تصور مـا الذي ممكن أن يحدث لنا لو تصرفت بأي شكل آخر !".

تأملتك وأحسست بشفتي ترتعشان وأنا أرقب شفتيك بامتنـان عميـق وبرغبة في تقبيلهما وتقبيل وجهك كلـه ويـدك، فـإذا همـا

ترتعدان ووجهك الشاحب أيضا وعيناك ترجوانني أن أقدر ما تعانيه من أجلي، وفي اللحظة التي كدت فيها أن أمسك بيدك المأخوذة إلى جانبك جاءت وفاجأتنا فرفعت ذراعك عاليا مشيرة للغروب وأنت تحاولين أن تكتمي صرختك : هل رأيتها ؟ لقد كان جمالها غير معقول وهي تغرب !" واحتضنت كتفيك براحتيك وأنت ترتعدين وتكلمينها في حنان بالغ : "ألا تحسين البرد ؟" خلعت سترتي الخفيفة ومددت بها يدي لكي تضعينها على كتفيك ؟ لكنك وأنت تقاومين الارتجاف أخذتها ومددت بها يدك للابنة. ضحكت وهي تلتفت لي وتشير للسترة : ألا ترى أنها واسعة جدا ؟!" ابتسمت لها وأنا أنتبه إلى مرحها وأن شعرها مفروقا من المنتصف مثلك بينما كانت ترد السترة لك. فردت أصابعك التي سكنت واستراحت على السترة لبرهة ثم رددتها إلي.

طوحتها على كتفي وأنا أرفع ساقي واستدير هابطا من فوق السور وأسألك أن نمضي فورا لان البرودة صارت شديدة بالنسبة لك. لوحت لهم فجاءوا إلينا وتحلقوا حولك. وبدلا من أن أنتزعك من بينهم كما انتزع وردة محاطة بغصون محتشدة بالشوك كان علي أن أتحمل وأتركك ماضيا وحيدا في طريق سيطول بي ثم يدور من الخلف قاطعا حارات عديدة لكي أصعد إليك. لكنك اليوم لم تفتحي لي الباب، بل تركت الابنة هي التي تفتح وتجيئين إلى مخبئة جسمك في ثياب، وقدميك في حذاء بقفل، وتقبضين على المنديل الصغير بيديك كأنما تقبضين على كيانك كله بينما تدارين عينيك برموش مسدلة طوال الوقت في جلستك الصارمة واضعة ساقا على

ساق ومحيطاة نفسك بسور الصين العظيم. وأنا بروح عارية لا اكف عن الاندفاع والتحليق فوقك، أجـــاهد كـــى أدارى ارتعاشـــات يـــدى بوضعهمـــا تحت ابطى أو التشبث بمسندى المقعد وأنا أتكلم حتى افقد صوتى، وأنت صامتة طول الوقت وعندما تشرعيـــــن فـــى الكـــلام تشـــرعين، بضربة واحدة، فى الإجهاز علــــى : " لـــن نســـتطيع أن نستمر ولابد أن نفترق" ثم تميلين قليـــلا بوجـــهك للناحيـــة الأخـــرى وتغـــرسين أهدابك، كما لو أنها خناجر، فى وبـــر الســـجادة. بينمـــا تسوى أصابعك وبينها سيجارة اشتعلت مما قبلها، ثوبك المحبوك على فخذيـــك فأصعق شاخصا لك راغبا أن أضمك كلك فى يد واحدة، ثـــم أكور قبضتى الأخرى وأرفعها عاليا ثم أهـــوى عليك وبضربة واحدة أقسمك، كرمانة، إلى نصفين علنى أرى وأفهم بوضوح قـــاطع مـــاذا بداخلك، لكنك وأنت على بعد ذراع واحد تحلقين أبعد من حلم لم أكـــد أستيقظ حتى استحال على أن أستعيده.

كان الوقت متأخرا جدا وأنت تقاومين أى محاولة للاقـــتراب أو النفاذ إليك، بل حتى أن تصلك كلماتى، والنظرات التى كنت أثبتها على كيانك كنت تتحاشينها فصمت ورأسى يسقط منى مائلا على ظهر المقعد ولا أملك قدرة على النهوض أكثر مما تملك جثة رجـــل حـــز عنقه توا. ولم تفعلى أكثر من ضم صدرك بذراعيك بحزم، وعلى ان أصـــدق - ولا أعرف حتى الآن كيف يكون ذلك - إنك كما تقوليـــن لم تعودى تحملى لى حبا.

كنا عاريين عندما إختبأنا فى ليل شعرك وانزلقنا بنعومة للنوم حتى فزعت على الظلمة المطبقة تخفق فوقنـــا باتســـاع الســمـــوات

كجناحي خفاش وهم يندفعون نحونا بالسلاسل تصطك في أيديهم بعنف لتسقط أصواتها على عرينا فأصرخ لائذا بك : "ضميني" لكنهم كسروا الباب فقفزت هاربا بك، ومواصلا الجرى عاريا وأنا أدفعك أمامي عارية حتى وجدنا بابا من الناحية الأخرى من الطريق فاندفعت إليه وصرخت عليك لتلحقي بي وجعلت أخبطه بجسدى ورأسي لكنى انكسرت كعصي وارتددت للوراء أثر نهش أسنان حادة وانغراس ناب في ذراعي. انخلع فكى من الألم وهممت أن أصرخ لكن يدى هي التي صرخت وأنا أتلوى باكيا ملتفتا للخلف فاصطدم برأسك منكفئا على رسغي وأسنانك هي التي تواصل النهش في لحمي. لم أحتمل أن تكوني أنت فصرخت بألم لا يطاق ولم يخرج الصوت. سقطت أرتعد من البرودة والظلمة حتى صحوت بجسد يغمره العرق وبعينين مليئتين بالدموع وحلق شديد الجفاف أفكر في التي تركتني يدحرجني الليل للنهار والنهار لليل وحيدا كفاكهة مُرَّة.

سحبت يدى برعب ونهضت أرتجف بعيدا عن حد النصل الذى ظل طوال الليالي الماضية ينفجر عليه الوهج ويتلوى كأفعى تسلل إلى وأغلقت الباب خلفي وتلمست طريقي في الظلمة التي بدأت تخلي الطريق والفضاء لزرقة تضئ واجهات البيوت والأرض الصاعدة بي حتى البحر.

اهدأ. أنت ترتعد في هذا الصباح البارد ولما تدخل المعركة بعد، كيف ستدخلها إذن دون أن تحكم السيطرة على أطرافك. أنت تفكر فيها طويلا، تراهن بحياتك على حبها لك، وتخشى حتى الموت أن تفقدها ويرهقك هذا الانتظار على أبوابها التي لا يمكنك أن تتيقن

إذا ما كانـت مفتوحة على اتساعها أم مغلقة بإحكام ولن يتـأتى لـك ذلك قبل أن ترفع ذراعك وصوتك وتبـدأ بكل قواك الطـرق. "مـن ماء البحر، هل ستخرجين جارية إلى لترتمى إلى جانبى، أنا المنـهك وأوشكت أن تغتاله الطرق، فنستلقى فى ظل الأشجار التى سـيجتاح البرتقال سماءها الخضـراء، والشمس التى ستدفئ جسدينا العـاريين المبتلين سيلمع ذهب استدارتها كنصف برتقالة ناضجة مقسومة بيننـا وتصـب جمالها فى عينيك التى مازالت تثقل أهدابها القطـرات ثـم نجرى نازلين الماء لنغير طعم ريقنا بعد الجرعات المالحـة عندمـا سنتعانق فى صمت تحت سقف الماء العـالى المضـاء مبهوريـن بالشمـس التى ستنزل إلينا عارية فتفتـح خياشيمـها وتمتـد لهـا زعانف، وفوق رأسينا تسبح !" وإذ يتبدد الطرق يحلق الصمت مـن جـديد فتختنق بالبكاء وتستيقظ رغباتك كلها مفجـرة الصخـب فـى الدماء التى اجتاحت كل شرايينك فاتحة فى أنحائك جبـهات متعـددة تختلط الصيحات فيها بالطلقات بالهتافات بالصرخـات والفـرار ثـم معاودة الهجوم الأخير وأنت لا تتمالك نفسك : أصدى ذلك أم الصوت من جديد ؟".

اتئد وضم جفنيك، كبوابتين عليك أن تغلقهما فـى مواجهـة جيوش العدو لتعيد ترتيب قواتـك ولا تفقـد صوابـك لـو شعـرت بالخـوف، أنـت تدرك ما عليك أن تتحمله حتى تنتصر وما عليـك أن تخسره حتى لا تخسر الحرب ذاتها، فما من حرب يمكن كسـبها دون أن تخاض حتى نهايتها ودون أن تكـون مسـتعدا لعديـد مـن الخسائـر، لكن عليك ألا تحارب وأنت مثقل بصور الهزيمة. يجـب

أن تتجدد دائما رؤاك عن انتصارك كحق وحيد. تلك الرؤى ستمنحك القدرة على أن ترى أدق التفاصيل والسبل لكى تطوق العدو من كـــل جـــانب. وستفتح أيها العاشق عينيك على اتســـاعهما مبـــهورا بمـــا يتحقق أخيرا : العدو يتجمع ويواجهك فى الناحية الأخـــرى، مســـلحا بكامل أسلحته، مقفلا على نفسه الأبواب والقلاع التى ورثها عن كـــل أعداءك، محتميا بأسواره وبأقوى سلاح يقيه منك : عداؤه. مستعرضا كل الحيل التى لا يكف عن اتخاذها ليعبر لك عن لا مبالاته بك، كمـــا لـــو أنك رداءا باليا مزقه وأبعـــده عن جسده. لكن أى حمـــى تلـــك التى ستجتاحك وتتوجـــك بورودها عندما ستنقض عليه كى تجرده من أرضه ومن سمائـــه، مجتاحا كعاصفة كل أبوابه واستحكاماته رافعـــا فـــوق رأســـه العارى المنكس وشاحك المضمـــخ بعطـــر دمـــائك إذ جاءك مهزوما وعاريا وجميلا كأجمل ما فى هذا العالم : مجردا مـــن عدائه ورافعا ذراعيه إلى أعلى براحتين مفتوحتين وعليـــك أن تنالـــه كفاكهة نضجت وتوشك أن تسقط وعليك وهى بين الغصـــن والأرض أن تتلقفها.

قم أيها العاشق الذى اكتملت جرأته وأحط صوتك براحتيـــك اللتين زغرد فيهما الدم عندما نالتا الثمرة، وازرق فيهما عندما فقدتـــا كل شئ. قم ودفئهما بصوتك وانطلق بجوادك ليعزف بأربعة حوافـــر إيقاعات جديدة تحتدم على الجلد المشدود للطرقات مناديا فيهـــــا أن تترك كل ما وراءها وان تجتاز بسرعة دروبها الخانقة وتشـــرع فـــى منادات بعضها والخروج للساحات. إلى يا قوات جيشى يا مـــن لـــم تـــدخلوا الحرب من ازمنة طويلة، فمـــا مـــن سـموات لنـــا دون أن

نضرب فى الهواء بأجنحة ممتـــدة علــى أخرهـــا، افتحــوا أبــواب الإسطبلات المقفلة على الجياد، وليجرد الفرسان سيوفهــم التى علاها الصدأ، وليحكم المشاة ربط أحذيتهم البالية ولنســكت جوعنـــا ببــدء الصيام الكبير، وعطشنا بملء زمزمياتنا بماء البحر، ولتسلك دمائنـــا طــرقا مغايرة لتلك التى قبعت فيها بتراخى الحيوانات المجترة ولنتعلم القفز عاليا بأمواج بحر تقضم لجام شواطئها وتندفع مجتاحة شـــوارع المدن المفتــوحة تواء كنيران ترفع أمجادها عالياً بحـــرق كــل مــا يقاومها. كالربيع يعرف جيدا تحت غطاء الوجه الشـــاحب لــلأرض طريقه، نافضا شحوب الموت بخطى الحياة التى سيزين بـــها وجــه الأرض ويقيم كمحب من أطلال ما أحبه أقاليم ومدن جديدة بوابـــات، وساحات، ونوافذ، وقباب، وأبراج عالية لاعتلائـــها ورؤيـــة العـــالم المأخوذ بما نفعله نحن العاشقون الذين التهبت حلــوقهم وحنـــاجرهم بكل هذا العطش، إذ نغمد خناجرنا ونفك من أحزمتنا كؤوسا حجريـــة ونـــرفعها عاليا ونحن نصلى : "أمنا التى فـــى الأرض" ولــم يــزل عـــالقـــا بها ملح ماء البحر تحت سماء آخر الليـــل التـــى ســـتتفتح وتتحول حول الكــؤوس الحجرية إلى سماء تتورد، فســـماء ذهبيـــة، فسماء مشتعلة وتنفذ من خلال حجر الكؤوس بجمال لم يكن لها مـــن قبل، سبع سماوات كاملة !

الإسكندرية (مارس - يوليو ١٩٧٩)

تعقيب على قصة
نزف صوت صمت نصف طائر

بقلم : صبري حافظ

تعقيب على قصة :

" نزف صوت صمت نصف طائر"

صبرى حافظ

من الوهلة الأولى سيصطدم قارئ هذه القصة بغرابة العنوان، قبل انسياب الأسلوب وتواتر النغمات الصوتية فيه. قد يزعجه ذلك التكرار المتعمد لحروف الصاد والفاء برنينهما المكتوم المشحون بالرهبة والتوجس فيصرف نظره عن العنوان والقصة معا، قائلا : هذا عنوان غريب من عناوين هذه الأيام المغرقة فى الألغاز، يلزمه من يحل طلاسمه. لكنه لن يلبث بعد القراءة الثانية للعنوان أن يلمس شاعرية الصورة التى يقدمها برغم غرابتها التركيبية.. صورة ذلك النصف طائر الصامت الذى نجد لصمته صوت ينزف دونما توقف، فكاتبنا يستعمل فى مطلع العنوان المصدر (النزف) ليوحى بالآنية والاستمرار معا... سيحس القارئ بشاعرية الصورة عندما تتضح ملامحها فى إدراكه، صورة حافلة بالصمت وديمومة الحركة الصوتية التى تسيل من تكرار حروف الفاء والصاد لمرات عديدة.

وعندما يبدأ فى قراءة القصة ستواجهه صعوبة جديدة، ناجمة عن ذوبان الزمن واختفاء الحدود الفاصلة بين الماضى والحاضر مما يستلزم يقظة فائقة لجزئيات القصة، تدرك انتماء هذه الجزئية إلى الحاضر واختفاء تلك فى طوايا الماضى. فالقصة ليست من ذلك النوع الذى يتملق انفعالات القارئ أو يقدم له عبر الوضوح الفظ المغزى للتجربة أو التتابع السطحى للأحداث. ولكنها من ذلك النوع

الذى -يقول اليوت - لا يستطيع إدراك كنهه إلا النفوس التى دربت على استساغة الشعر. فهذه القصة حقيقة، تقترب كثيرا من مواقع القصيدة .. بتركيزها الشديد الذى يأسر المساحات الزمنية والتفاصيل المكانية الكبيرة فى أقل الجزئيات وأكثرها دلالة، وباحتفائها الواضح بالصورة، ليس كوسيلة للتعبير فقط، ولكن كأداة للتفكير أيضا، وبقدرتها المرهفة على استخدام الكلمة كوعاء للمعنى وكصوت قادر فى الآن نفسه على إثراء المعنى بتنويعات نغمية تنقل أدق الظلال الراسمة لملامح البطل النفسية الوجدانية المتناهية الصغر، وبنقلاتها الشعرية الموحية المرتكزة على الأصوات تارة وعلى الصور تارة أخرى، والمتجولة بانسياب ويسر فى حياة بطل القصة لتلتقط أوهى الخيوط الناسجة لمأساته ... عبر كل هذا تكاد هذه الأقصوصة أن تصبح قصيدة خاصة وإن كثيرا من جملها موزونة عروضيا. ومن ثم فلا مناص من قراءتها مرات، لأنها فى كل مرة ستكشف لك عن بعض مخبوءاتها.

وتسفر هذه الأقصوصة عن حالة الإحباط المريرة التى تقدمها منذ السطور الأولى، بل ومنذ الكلمات الأولى "قالوا إحك بصوت مسموع، فتدفقت تغرق وجهى بسمة أسف لكلينا" .. منذ هذه الكلمات الأولى ستسفر القصة أيضا عن منهجها .. إنها حكاية بصوت مسموع .. مونولوج فريد لأنها اجترار شاعر لمأساته بصوت مسموع وعلى مسمع من لا أحد .. حكاية أسيفة ترفرف فيها الكلمات بجناح مكسور، لأنها كلمات إنسان مهزوم .. إنسان لا مسمى ضاعت منه فى لمحة مفاجئة حياته بعد أن كاد يركن إلى تحققها، فاكتوى

بنيران الإخفاق والهزيمة، وتجمعت أبخرة الإحباط والعجز فطمست الرؤية الواضحة أمام عينيه وأنبتت فى أعماقه اليأس بعد أن استحالت الظلمة فجأة إلى ملاءة سرير خالية شاهقة البياض. وانتصب التخيل بصوت عال ومزعج ليسحقه بدوى الصمت المنتشر فى أرجاء الغرفة بعد الهروب .. هربت الزوجة وأمل - ابنه - وبات وحيدا عاجزا يتمرغ فى صحارى اليأس والانتظار المتوقع لصوت الأقدام العائدة. ومن ثم تستحيل الأشياء عنده إلى أصوات. فالقصة تقدمه فى لحظة انتظار صوت يريق قطرة أمل فوق جدب أيامه. ومن هنا تطل عليه كل الأشياء بأصواتها لا بصورها. حتى الألوان هى الأخرى تقترن فى داخله بالأصوات - اقرأ كل الفقرة الطويلة التى تبدأ "بوضوح أذكر أننى تقلبت فى الفراش" - بل إن الأفعال هى الأخرى أفعال صوتية ذات جرس واضح، تغلب عليها صيغة المضارع حتى تتمكن من أسر الحركة فى آنيتها الصوتية وديمومتها المزعجة معا.

هذا الانتظار المر الذى تتضخم فيه أوهى الأصوات وأرقها حيث يصبح للصمت إيقاع وهاج يعمى ويصم - انظر قوله : "لم أتعثر إلا فى الليل الذى استغربته لما وجدته يفقد سكون السواد ليعج بأضواء الصمت التى تعمى تماما"، يلوح للوهلة الأولى وكأنه انتظار مرضى، مكتظ بالأحلام الراغبة فى التشفى وسحق صانعى مأساته، متسليا البطل عنه باحتساء الخمر المتواصل. غير أن الكاتب لا يفوته أن يقدم تبريرا - يتواءم مع طبيعة بطله المزاجية - لهذه الأضغاث الكابوسية الأليمة. فقد كانت هذه الزوجة التى أتى بها من

على شاطئ التيمز هى كل شئ بالنسبة له .. ليس فقط لحرارة اللقاء العاطفى النشوان الذى انتشلته من وهاد الحلم والحرمان، ولكن أيضا لأنه حقق، عبر استحواذه عليها، حلم طفولته فى ان يستعمر مستعمريه الذين داسوا جسد أمه المنهزمة .. هذا "الشاعر من مصر" الذى يرى كل الأشياء عبر بصيرته الشعرية مضاعفة الأصوات، والشعر فى مصر زاعق الصوت دائما، يستيقظ وسط الظلام والصمت- لاحظ تفاصيل التوقيت- ليفاجأ بالظلمة وقد استحالت إلى ملاءة سرير خاوية يسفر خواءها الناصع عن بشاعة الخيانة وسوادها، وبصوت التنفس البشرى الرتيب الأليف الذى يهب الطمأنينة وقد غاص فجأة فى وسادة الصمت المطاطية .. فأرهفت هذه المفاجأة إحساسه بالأصوات بصورة مزعجة لأنه يأمل مع كل هذا، وبرغم توالى الأيام المعمقة للفجيعة، بأن يسمع يوما - ولا غرو فهو شاعر حالم - وقع الأقدام العائدة على السلم الخالى الصامت الحزين .. وهذا الوقع الذى يلوح فى حلمه مدثرا بالأصوات الهادئة المنغمة، يختلف بل يتناقض مع صوت أقدامه المزعج التى "يشتد صراخها فوق أرض الغرف ودرجات السلم وأرجاء الحديقة" لأن تلك تؤكد يتمه ووحدته، بينما تعد الأصوات المرتقبة بارتداد الاستقرار الهانئ.

والحقيقة أن هذه القصة تقدم أسلوبا فريدا فى البناء الفنى. حيث يصبح الشكل واحدا من وجوه المضمون الذى تقدمه، وتصبح اللغة هى الأخرى وجها آخر له. فاللغة بإيقاعها المتقطع الحزين لا تتواءم مع الموضوع فحسب، ولكنها تتوافق أيضا مع كل من الشخصية والموقف معا. والصور تتفلت فى ليونة واضحة ولكنها ما

تلبث أن تصرخ عند منعطفات الأصوات بشكل زاعق. لترسم أدق ملامح حالة الترقب الصوتى التى يعيشها هذا الشاعر الذى طالما لعب بالنغمات الصوتية .. وعندما وقع فى المأساة فإنه يعيشها من خلال الأصوات التى هام بتنويعاتها النغمية، فإدراك الشاعر للأصوات يختلف عن إدراك الإنسان العادى لها .. صحيح أن الأصوات هنا زاعقة ومفاجئة وقاسية، ولكنها دائما ما تكون هكذا عندما تعكس حالة من اليأس والقهر والإحباط والترقب. هذا هو الوجه الواضح للقصة أو المباشر، ولكن القصة تملك بموازاة هذا الوجه وجها رمزيا آخر يسفر عن نفسه، ليس عبر التوافقات الغلافية للأحداث أو الإيماءات اللفظية المكشوفة. ولكن من خلال التجربة ككل، وكوحدة نغمية ذات امتدادات متعددة، تهب يأس الشخصية وعجزها أبعادا حضارية واضحة، تطل عبر فيض من الرموز والجزئيات الواقعية المنبثقة من عجز هذا الطائر المكسور الجناح عن التحقق .. لفقدانه لنصفه من جهة، ولإطار الأمان الذى كان ينثر عبره أغنياته من جهة أخرى. فبعد الفراغ من قراءة القصة سيحس القارئ بأن العنوان الذى اصطدم بغرابته فى البداية أدى دورا مغايرا للدور التقليدى للعناوين الملخصة لمغزى التجربة أو الراصدة لأحداثها. إذ استطاع أن يجسد بصورة شعرية بشاعة الحالة التى يعيشها بطلها وأن يضع أيدينا على الجانب الحسى من مأساته. أعنى الجانب العضوى منها.. إذ نحس بأن الدلالات القيمية التى تهدف القصة إلى بلورتها قد تجسدت بصورة عضوية ملموسة تخرج بها عن دائرة القيمة المهوشة إلى ساحة الوجود العضوى المحسوس الصلب.

وفــى النهاية . فقد يبدو أننى قد أعطيت هذه القصة أكثر من حقها، وتناولتها وكأنها صورة للكمال الفنى الذى لا يأتيه الوهن مــن بين يديه ولا من خلفهما، بالرغم من العثور فيها على بعض المــآخذ الناتجة عن عدم قدرتها على الكف عن الاسترسال فى اللحظة المناسبة والمضى فيه مع الجزئية المواتية.. غير أن هذه الهنات قد أطلت فــى القصة بصورة شاحبة وبلا صراخ، مما يمكننا من تجاهلها .. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن كون هذه القصة واحدة من بدايات هــذا الفنــان الشاب، ومع هذا كانت علــى هــذه الدرجــة مــن النضــج والشفافية، يوجب على الناقد الاحتفاء بها بهذه الصورة. خاصة وأنها فــى الواقع ترتفع بأقصوصة المونولوج الداخلى فى مصر إلى آفــاق لم يسمع فيها وقع لقلم مصرية من قبل، تخلصها من أقبيــة النثريــة البغيضة وتهتم فيها لأول مرة بإيقاع الكلمات وأصواتــها .. وأخــيرا فإننى أستطيع القول بأن هذا الفنان سيكون واحدا من أفضــل كتــاب الأقصوصة المصرية فى المستقبل، لو لــم يتقــاعس فــى منتصــف الطريق أو يدركه الغرور فى بدايته.

مجلة المجلة (أكتوبر ١٩٦٦)

نصان قديمان

(لم يسبق نشرهما فى المجموعة)

١ - الأعمدة وتيجان اللاشئ (يوليو ١٩٦٥)

٢ - الركض فـــى ســرداب موحـــل (ديســـمبر ١٩٦٥)

الركض في سرداب موحل

رفت عينا الذهول، فصحوت على الساقين المرفوعين فوق كعبي الحذاء تحملان باللهب المتأجج امرأة متوجة بامرأة. تركت عيني لتتيقنا ببساطة من أن الإله آلهة وليس إلها، فالذى يتحكم في العالم الرجل، لا يمكن ان يكون سوى امرأة مشتعلة تخلقنا بحيث يصرخ فينا الطفل جاريا بفرح نحو النار فيها دائما، وبحيث ينكفئ راقدا يتلوى حتى تتصلب أطرافه المشدودة على جسد الرغبة الطويلة النفس. الخافقة فوق صدر صليب امرأة.

وقبل أن تثور العاصفة، ويختفي الجميع مذعورين من جوانب الشوارع لأنهم لا يملكون معاطفا بياقات عالية، ويتقون من البلل وهم عراة. كان مؤكدا أن التقى بالربيع على الضفة الأخرى للنهر : "ستأتين يا نادية" .. تألقت في عيني ببشرتها الحريرية وهي تومئ بأنها ستأتي لي .. إذا أريني عينيك أولا .. لماذا ؟ .. لكي أرى فيهما إن كنت ستأتين أم لا. وبلا كلمات سلمتني الجسد البريء فيهما نحيلا عاريا يتحرق في العطش، والليل يرتعش آتيا بها، ثم توقف ساكنا وفتح لها الباب ليدعها تأتي : وظل واقفا يحرسها. "يا حبيبتي ستأتين". أمالت رأسها على وجهي. همست يدها : لا تتأكد لمجرد الرؤية فحتى اللمس لن يجعلك تحتويها للأبد. تشبثت بالعظام الدقيقة في عقل الأصابع، وعانقت جذور أعناقها وملأت الفجوات فتنهدت آه صغيرة .. ماذا يا نادية ؟ .. لماذا تتشبث بي بكل قوتك هكذا؟ ثم ضحكت : إنني لن أجرى.. لكنني خائف ويسأل ليل عينيها بالصمت المفاجئ : لماذا أنا خائف ؟ .. "أنني لم أره أبداً لا يجرى.

كل ما أجده يجرى، يتوارى خلف عتمة الأعوام الموصدة الأبـــواب.. فالبـــاب يفتح فجأة وبسهولة، فقط أمام هرب ما نجـــده. لكن عندمـــا نود العودة لاسترداده، لا يحتاج الباب إلى أوهى دفعة لكـــى ينصفـــق متحـــولا إلى باب وهمـــى. ويطرق صائحـــا الـــذى هـــرب منـــا، ونصرخ نحن الذين فقدناه، ويتعالى الصـــراخ، ونضـــرب برؤوســـنا فتنشق الرؤوس حتى يسيل الدم تحت حذاء الحارس الليلـــى. وكلمـــا وطأ تأوهنا، وكلما علت التأوهات جوبهنـــا دائما بالحـــارس يصفعنـــا بالفعل، وبقرون الباب الوهمى الصخرية متأهبة للفتك بنا. وهتفـــت : "لكنك ستأتين يا نادية" وولدت شفتاها بسمة صغيرة لها عينـــى طفلـــة جنية لم تقل لـــى أمام اللهفة أن أمى سوف تجئ. وجعلت أتأمـــــل طفلتى، "أنت لا تصدقنى؟" .. عيناك لا تكفان عن الســـؤال .. أنننـــى أحب فـــى عينيك طفلتى ولذلك أسألها دائما. لكنها شقيـــــة. "مـــاذا قالت لك ؟" .. "قالت أن أمى لـــن تأتى يـــا أبـــى" وضحكـــت. "لا تصدقها.. إنها كاذبة كأبيها". وحولت عنى نجومهـــا ناحيـــة النـــهر المعتم. وصرت أرى النجوم تومض فى العتمـــة، وجـــانب وجهـــها يشحـــب، ويتكلم بلا صوت لمجهول كرهتـــــه. أحسســـت برخـــام المقعـــد يبرد جدا، والنور الأحمر يصفـــر فوق القبعـــة التـــى تلـــف رأسها الصغير ووجدت نفسى بعيدا فخنقت أصابعها لكى أســـمع الآه الصغيـــرة، حتى أقبل خد طفلتى. واستدار رأسها بهدوء. ولحظـــــة أن ثبتت النجوم فى عينى رأيت النجوم تبكـــــى "ناديـــة ! .. ناديـــة". وظلت تحرقنى النجوم ... ولا أعرف شيئا حتـــى الآن عـــن شكلـــه، لكننى لا أحتمل تذكره كلما فكرت بأية قوة كان يجبرها على أن تـــراه وتسمعه، وتصغى له وكل ذلك الرعب الذى لا تستطيع أن ترانى فيه. واحتضنت الرأس الصغير بين راحتى وأخذته عندى لأســـ[illegible] عينيـــها

عما يبكى النجوم فلم ترد ولمـــا اعــدت الســـؤال ســمعت شهقــة كالصرير، وفى الثالثة انغلق الباب. وظل الليـــل يمطر بلا ســـبب. وعندما فقدتها من جانبى كانت الأرض منهكة من وقع المطر، لكــــن أنهكها أكثر انقطاعه المفاجئ، ثم الإحساس بـــبرودة العــودة للشتـــاء الخاوى.

فوجئت بشعر المرأة مستفزا أمام شفتى، ومثيرا أنفى بلمساته العريضة حول عنقى، ومؤخرتا الحذاء الأحمر نبعا لهب يتصاعـــــد متسلقا، عبر ردائى، الذى لابد وأنه قد احترق، جسدى، منتشرة، فــــى بحيرة تغلى وتصهرنى عند منتصف الجذع، وعلى الكتفين ومؤخـــرة العنق تهب رياح مسعورة بالشذى من موجات الشعر، والوجه الأحمر يبتسم من تحت الخجل ويتوسل أن انتظر حتـــى تنتــهى العاصفـــة. وحاولت التراجع يا نادية، لكــن النهر طفى، ولم يعد للأرض الغرقى سيقـــان تفر بها. وأقسم أننى تساءلت مهتاجا : ماذا تريد هذه المرأة؟ فقهقه فى داخلى صوت لم أعلم من قبل أنه موجود : أنها تريد الرجل الذى نسيته من الخوف فى داخلك، ورحت وما تزال متلهفا تنتظر عند الضفة الأخرى للنهر.

وابتلـــع سائق العربة ريقه بمعاناة وهو يدير عجلـــة القيـــادة التى بدت كبيرة جدا عليه حتى استحال إلى لعبـــة عليـــها. وعينـــاه المحترقتان برزتا تحاولان فصل المرأة عن جذعى. وبينما هو يجاهد مستميتا كفأر فى محنة ليحشرهما، انفجرت الصرخـــة مـــن الخلـــف ثاقبـــة الزجاج وظهرى، رامية بكل مؤخرة العربـــة علينـــا، واندفـــع السائق فى لون الموت، محاولا الوقوف على قدميه، ثم عاضا أصابعه مرة واحدة، وبعدها انهار منكفئا على عجلة القيـــادة فى نشيج محموم، وتحولنا إلى حلقات متشابكة فى سلسلة حديدية عندمـــا ســـال جـــوف

العربة زاحفا وساقطا من الأبواب على الأرض صانعا دائرة خرساء حولها.

ولم يعد الطريق يأتى كمستقبل. بدا مجرد خيط أبيض قطع بفأس فى سلسلة ظهر ثعبان أسود ننزلق على أحد جانبيه.. والجبل الأصفر على الجانبين يأتى من الخلف لينصب أمامى، وليس ثمة وعد بنهر أبدا، والبندقية أطول منه ومنى، وغرق الجبل فى الظلمة فتقلبت أصابعها هادئة فى يدى، وأصابعى تتغلغل بينها وفى داخلها، والشروق فى عينى متدفق كماء خرطوم الرش الذى كنت أشاكس به قطتى، وكانت القطة تقفز أمامى، أما هى، فإن عنقها الصافى النحيل كان يدور بعينيها كمصباح كشاف فى أعلى المطار. ينتشل الأجنحة التائهة من السقوط، وبدأت الظلمة تتراكم كالضباب، وحولت عنى نجومها ناحية النهر المعتم. وتعالى الصراخ فى داخلى، ورفرفة الأجنحة المذعورة لأن المصباح تعطل فى الناحية الأخرى. "نادية .. نادية" .. "اخرس وجعت رؤوسنا". وهبط الشارب يغلق فمه ويتركنى وحدى. ماذا يجبرها على أن تراه وتسمعه. وكيف أتركه يرعبها هكذا !. هل أنا مشلول ؟. هات وجهك بين راحتى يا حبيبتى لأنقذك. تعالى اختبئي فى صدرى، تعالى، ما الذى يمنع وجهك من ان يأتى. ماذا .. "تقطع القميص فأقطع رقبتك". فقدتها من جانبى لما سمعته يهددنى، وأخذت ارتعد من البرد والجبل يصفر ويبرد. وظهر الثعبان يلمع والمنديل يمر أمامى على الجبهة السوداء والشارب فيتسخ. ورأيت الجبل وهو يستدير فطلعت الشمس ساخنة بجانب وجهي كأنها واقفة فى أعلى الباب. من خلاله رأيت نهارا له قضبان حديدية ترتفع شيئا فشيئا ثم تكف عن الارتفاع والضجة تموت، بعد أن كفت

البندقية عن الاهتزاز في يـده. وقف طويلا بجانبي، وهبطت فوهـة البندقية عند عيني ورأيت قبضته تمسك بثيابي فتخنق الثياب ظـهرى والكتفين وفوجئت بدرجات السلم لا تؤدى إلى الأرض. والباب ينفتح ويظل يتأرجح بصوت عال. ولما لم أهبـط أحسست بقبضته تغوص في ظهرى، فصعدت الأرض لاطمة وجهى بقوة ولم أتحرك فـتركت الثيـاب ظهرى وخنقت بطنـى وابتعـدت الأرض ورأيـت البـاب الحديدى وباب نادية قد أغلق فى المرة الثالثة فجريـت نحـوه لكـى افتحه، لكنه كان مفتوحا، والنجوم لم أجدها تتألق. "نادية .. ناديـة .. بعد كل هذا التعب ولا تأتين ؟" .. وانهـرت باكيا. واشتعـل قفـاى برهة ورفعت وجهى إلى الشارب فرمقنـى بعيون ساكنة وكأنـه لـم يفعلها ثم قبض على كتفى مبتعدا بى عن النـهار فـاختفت القضبـان وسألتنى نادية : ما الذى يعجبك فى". كل شئ يـا ناديـة. عينـاك. شعرك الأسود، شفاهك التى تلد أطفال جن، أصابعك التى لم تـتزوج حتى الآن لأنها تريدنى، وأكثر من كل شئ، أنت التى هنا.. هنا.

من لحظة أن سمعت الصرخة خلف ظهرى والمرأة السمينة الساخنة أمامي تستحيل بسرعة رهيبة إلى اسفنجة مبلولـة بـاردة كالثلج، أخذت تلسع طرفى حتى أماتته. صرخت خلف الدائـرة دون أن أنطق باسمها. وظللت أصرخ والعجلة السوداء الهائلـة منقضـة عليها كوحش خرافى نشب أطرافـه فـى الصدر الأبيـض، واليـد الصغيرة التى همست يوما : "لا تتأثر لمجرد الرؤية. فحتى اللمـس لن يجعلك تحتويها للأبد". ارتفعت من فـوق الأرض بجانبـها إلـى وجهها للأصابع الممدودة المتجهة إلى أعلى بكـل اتسـاعها لتمنـع بضـآلتها المفجعة إلى حد الجنـون، جنون الرأس الثقيـل المفتـوح الفم، الفارد أنيابـه الطويلة المسعورة المتعطشة الجائعة لالتهامها حتى

قبل أن تكف عن الحياة وعن رؤيته وهو يشرع فى ذلك. أدارت رأسها وكادت عيناها أن تتسلطا على لولا أنى صرخت فانطلقت ترانى. ودفعوا الوحش للوراء عنها فلم تعد ترانى.

واهتز الشارب أمام الوجه الذى كان يرتدى قميص نادية: "سجنوه مرة لأنهم ضبطوه متلبسا بمطاردة النساء فى المركبات، والوقوف وراءهم". وانفجرت المرأة وأخذت تنبح ناشبة فى وجهى أظافر كلبة مسمومة، ولم تحل الأظافر الملوثة بالدم أن أجرى فيها هربا من نهش النظرة الطويلة المدببة التى لا تنتهى لأن ليس لها طرف خلفى. كل الحراب لها نهاية، أما عندما رأتنى نادية فالنهاية تلاشت. وحملوها وقالوا أنها ماتت لكن الطرف الخفى حى. أخذ يمتد إلى الوراء حتى كلت عيناى من متابعته، والرأس المدبب الذى طعنتنى به لم يظل رأسا واحدا أنه يطعن ويفجر الدم ويذوب فى الداخل خالقا بعده رأسا جديدا يطعننى ويفجر الدم ويذوب، ورأسا جديدا يولد ينهش، ولم يعد يخيفنى أن أنزف دما المهم ألا أراها والرأس الجديد يبدأ فى النهش ..

وعاد الشارب يهتز: "صرخت العجوز صاحبة الغرفة عندما رأته يخلع ثيابه ويستنزف نفسه بعدما تعرى، والباب مفتوح، وعيناه غائمتين تسبحان فى تجاعيدها". وأومأ عديم الشارب : "خذوه إلى الغرفة الأخيرة".

ما هذا ؟. ألم أقل أننى تعبت من الوقوف على ساق واحدة ؟ ألم تسمعوا ؟ وصرخت : "يا ولاد الكلب" فجروا كلهم. رأيت وراءهم شقا طويلا غير معتم تسربوا منه. هكذا أستطيع أن أستريح الآن. وأرحت ساقى على الأرض، ورأسى على الحائط الطرى وأغمضت عينى. "ألن تأتى يا نادية؟". لم تكلمنى. اكتفت بالمجهول

الـــذى أكرهه. فخنقت أصابعها بالعناق حتـــى أقبـــل خـــد طفلتـــى. وبهدوء طويل متأن استدار العنق صافيا يحمل لى وجهها، والبســـمة ترفرف كعصفـــور صغير فوق بحيرتيها. "تعتقدين أن لون عينيـــك أسود لمجرد انه فى المرآة أسود. أبدا، عيناك بحار زرقاء تحيطنـــى بالنجـــاة، وفروع تخضر بالعناق، وليل يهوى الحكايات، تحت جنـــاح قمر، وحضن يحمينا من حياة السياط الجحيمية، ونجـــوم لا تتعب من التألق كيما تضئ، ولكنى رأيت النجوم وقد أخذت تبكى. لمـــاذا يـــا نادية ؟ ولما كان السكون يسبق دوما أية عاصفة، رايتها وهى تديـــر رأسها فى بطء، والنظرة الطويلة ترتفـــع منطلقـــة وتغـــير اتجاهـــها لتنقـــض على. صرخت. وتوالت الرؤوس التـــى لا تنتـــهى أبـــدا. وامتد الطرف الذى لا ينتهى فاختنقـــت بالصـــراخ. وامتدت أذرعتى تجردنى من كل ما حولى من ثياب وسراويل حتى لا تحـــول دون أن أركض بكل قوتى. وأيقظت الرأس اندفعت حمراء محمومة وظللـــت أركض بها حتى انكفأت طافحا دما. واشتعل الشق غير المعتم عندما استحال إلى مستطيل عريض الكتفين قوى القبضتين،، جاء ليـــهرول خلفى فقمت وظللت أركض والدم يطفح، والنهش متواصل، والمـــرأة التـــى أختبئ فيها من الرؤوس المتوحشة تستحيل إلى اسفنجة ثلجيـــة لا تذوب أبدا. وتركت الباب المغلق لأجرى لاهثا إلى آخر بجـــواره، فجروا خلفى. واندفعت أسقط وأحاول أن أنهض من بين الصخـــور الغائصـــة فى اللزوجة السوداء، واختنـــق فـــى قبضـــات المشـــانق، وأغطية من جلد الليل المسلوخ ترتمى فوقى لتخنقنى، وأنفـــاس ترقـــد أسرع منى ولا أستطيع اللحاق بها، وصوتها يعلو فـــوق كـــل شـــئ. وعندما لحقت بهـــا سكنت تماما صانعا صمتا لبرهـــة علنى أستريح، وحدث بلا وعى أن أدرت عينى خلفى فى الظلمة، وصعقت عندمـــا

رأيتـــه بملايين الأرجل الطويلة التى تقطع الواحدة منـــها مسافـــات السماء كلها فى طرفة عين، شارعا فـــى القدوم، والــــرأس الـــذى لا يموت مشتعل الأنياب آتيا ومصرا، ولما أسرعت لأخلع الأغطية مـــن حول جسدى لأعاود الركض. كانت أنفاسى قد خمــــدت. هززتـــها بجسدى لتصحو فسمعت الصرخة فى الخارج وراء الظلمة "ابتعدوا .. سيموت". وأحسست بأغطية الليل وهم يرفعونها عنى. وعندما رأيت أنفاسى تصحو مشدوهة بكيت : "لماذا يا نادية". وعرفت أين يســتعر الجحيم عندما انتفض شعرها وعيناها تستديران ناحيتى. ومن تحـــت أطراف الوحش حيث الجحيم يجعل حدود الأفق ستارا حديديا محمرا، أرسلت نظرتها الطويلة بالرأس المسعور. وكدت أمـــوت خوفا مـــن أن تموت أمام عينى، فبدأت بكل ما استطعــت مـــن حيـــاة ركضـــا مـــذعورا بين الحوائط المغلقة، وامرأة واحـــدة لم تفتح لى بابا أبـــدا فى أى تجويف أو انحناءة فى الســـرداب الذى انتفـــض وأخذ يركض أمام ركضى حتى لم أعد أقوى على تحمل المضى. ويئست فرفعـــت رأســـى إلى سماء السرداب : انخلع فكى وتدلى من الشهقة الأخـــيرة لما فجعت بأنـــى أركض مواجها الرأس المسعور وســـعير النـــهش، والتحديـــق دونما قدرة على أن أغمض عينى الملتصقتيـــــن بالوجـــه الميت الذى ظل يمـــوت، يموت، يموت، ولم يبد ى فى الظلمة أو هى أمل فى أنه ربما سيكف يوما عن الموت.

ديسمبر (١٩٦٥)

الأعمـــدة وتيجـــان اللا شـــئ

الحق أن ما حدث حدث وانتهى الأمر، لماذا تجتاحني الرغبة فـي أن أقول لكم كل شئ قبل ان تنتهي فرصتي الوحيـدة الباقيـة، ربمـا أكثر من رغبتي في التمتع بالثواني الباقية التـي أسـتطيع أن أرى فيها نور النهار الشحيح الذي يتسرب إلي مشنوقا من دائرة النافذة الضيقة في الزنزانة الباردة المظلمة، والـذي لابد وأنه يمـلأ عليكـم الطرقات وأسقف المصانع والحقول ويلمع عنـد ملتقى قضبان السكك الحديدية عند بلدتنا. ربما لأن المسألة التي اكتشفتها مازال الكل يؤكد لي أنها غريبة وأنني سأدفع حياتي ثمنا لها.

كنت أقلق كثيرا، فأخرج وأجلس مستندا على حائط الكشـك ورفاقي بالداخل مختبئون تحت الأغطية وشخيرهم يجعلهم يتمادون في الشخير أكثر كما لو كانوا يتسابقون في مباراة شخير. وكنت أتركهم يمارسون ذلك وأجلس أنا لأفكر في أمور تحرق القلب. لو لم نولد في عالم نصحو لننام، وننام لنصحو في قذراته هذه هل كنت أتحمل كـل هذا ؟ لو لم يفعلها ابن العمدة أولا ثم يفعلها أبوك في ابن العمدة هـل كنتم تهربون وتتوهون عن أنفسكم هل .. هل وأضيـق مـن توالـي الأسئلة. أكثر الأشياء مدعاة للراحة والتخلص من كل هذه المهزلـة التي لن تنتهي لو أن الدنيـا لم تخلق، ومع هذا لا يستطيع عقل الواحد

أن يتصوره. إلا أنه يبدو لى دائما عين العقل كنـــت مقرفصـــا فـــى الضحى بجوار العمود مُزيحـــاً جلبابي إلى الوراء وأفعل كما يفعـــل الناس .. أتبول .. كنت منبسطا تماما ومستريحا لذلك .. فى الزمـــن البعيد كانت ساعـــة انبساط الواحد منا ساعة الأكـــل وســـط أهلـــه . والتبول بعد الضيق فى الحقول .. هذه الأيام فقدنا انبســـاطنا ســـاعة الأكل .. ولم تبق لنا من الملذات إلا ساعة ان نتبول دون أن نأبه لأهل المدينة الذين يمتصون دمنا بعيون مفتوحة لا تطرف .. ويجـــــرون مندهشين من رؤيتنا نتبول، فيبدون مضحكين كعرائس المولـــد، وقـــد انتهزت هذه الفرصة لأتبول فى راحة .. فالريس كان قد رفض قبـــل ذلك أن يسمح لى .. طلبت منه ونحن نعمل فوضع يديه فى خاصرتيه وكوعاه راجعان فى استعلاء إلى الوراء ومط رقبته كلها إلى الأمـــام وفتح فمه على اتساعه وفرد فردتى شاربه ثم لـــوى خلقتـــه الكاحلـــة وصرخ فى وجهى بأنها ليست لعبة، وأمرنى أن أشتغل وأكـــف عـــن لعب الأولاد .. بصقت بصاق المضغة وقلت له أن هـــذه المســـألة لا تخص الأولاد فقط. واتجهت لأواصل تقليب الزلط بين الفلنكات.

لم يكن الباشمهندس قد أتى .. فعدت وطلبت منه أن أذهـــب لأعمل مثل خلق الله قبل أن يأتى. فزام وقال لى : روح.

كنت فى الحقيقة متعبا .. وجسمى خائر ومفكوك المفاصل .. ولم أنم ليلتها إلا بعد ما قارب الليل على الانتهاء. كان النوم عزيـــزا جدا فى تلك الليلة .. والفكر عندما يعرف طريقه إلى الإنسان لا يتركه طول عمره، وأنا طول عمرى وليس فقط ليلتها والفكـــر يحـــيرنى .. كان الليل فى المنطقة كلها قلـــق، متعب وليس أبدا الليل الذى خلـــق

لنجد فيه راحتنا .. وكان القمر مختنقا .. كان القمر في بلدتنا يفرش كل شئ بالنور، ونهضت، ذكرني القمر المختنق .. بالقمر البعيد فنهضت، قرفصت بجانب الكشك الذى أقمناه من الفلنكسات، ورأيت رغم صحوتي كل بلدتنا. كانت أختي تكبر، وكفت عن المرور من أمام دكان ابن العمدة .. فابن العمدة كان يكبر هو الآخر، وكان أبوه يملك دكانا أوقفه فيه .. وفى أحيان كثيرة كنت أمر بالليل أو بالنهار فألمحه يتكلم كلاما مفضوحا على أية بنت أو حتى امرأة بالذات إذا ما كانت من بنات أو زوجات الفقراء، كان يتكلم وهى تمر بصوت عال أما بنت الأغنياء فكان يخشاها. على الأقل كان يخفض صوته ويقول كلمة أو كلمتين مؤدبتين فقط، وسنة أن كبر ابن العمدة زار الرعب كل البيوت التى فيها بنات تكبر فى بلدتنا.

فقد وقعت حادثتا قتل، الأولى كانت ابنة أحد الفقراء الذين يعملون فى حقل العمدة والثانية ابنة واعظ المسجد وقد انتشلت الجثتان من الترعة مطعونتين فى حضن العنق ومكان الإصابة أزرق على الفم والخدين وبدأ الخوف يغزو البيوت ويجئ من ناحية ابن العمدة ومع ذلك فلم نكن نستطيع لا نحن ولا كثيرون من أهل البلدة ان نمتنع عن الشراء خوفا من أن يشك العمدة، ولو حدث فلن نخلص منه أبدا، ثم خوفا من الجوع لأن ابن العمدة لم يكن يعطى لمن يعملون عنده مقابل عملهم ليتصرفوا فيه بحرية.

ولم يقل الطبيب، بالطبع إن كلا منهما قتلت ومعها جنينها إلا أن كل واحد، بل حتى كل كلب فى بلدتنا كان قد عرف بينه وبين نفسه كل شئ وصمت.

وفي اليوم التالي كنت وأبي نروي حقل الذرة في الليل .. طلعت من الترعة وذهبت عنده حيث كان جالسا مقرفصا بجوار النار .. سألته من الذي قتل ابن العمدة يا أبي.. التفت لي ثم مط شفتيه وشوح بيده. بعد ذلك بفترة قصيرة كنا نجتاز البلدة في الليل. وأختي الكبيرة كان أبي قد أرسلها قبلنا إلى مصر.. في الطريق قلت لأبي .. يقولون لماذا لم تقتلها هي، انتفض وصاح في وجهي من، قلت أختي .. أزاح وجهه بعيدا ونفخ في غيظ كجواد حرون .. سيظلون طوال عمرهم كلاب كلما اشتد ضربهم اشتدوا في نهش بعضهم، سألته كيف طاوعك قلبك أن تفعل به ذلك فتنهد وقال لي عندما تكبر سوف تعرف أشياء كثيرة، تأملته ثم عدت أتأمل قبضتيه وكل منهما تطبق على الأخرى أتساءل عما فيهما يمتاز عن الأيدي الأخرى ويجعلهما تستطيعان فعل ذلك.

ولما وقع ما حدث تذكرت كلمة قالها وكأنه كان نبيا، لم أكن أعرف يا أبي أنني لن أكبر رغم كل السنين الطويلة التي حملتها على كتفي إلا أخيرا، من يوم أن رأيتك ورأيت قبضتيك العجيبتين وسقوط ابن العمدة الذي لم يكن يتخيله أحد أبدا من فوق البنك.

لم أكن قد انتهيت من التبول ولا هدأت الأرض تحت ضربات تبول القضيب المشاكسة الشقية لحظة إن رأيته يجيء مشوحا وهو يصرخ، قمت ألم سروالي وأنا أصرخ أنا الآخر.. وهل قامت الحرب لأنني أتبول، لكن عبر كتفيه رأيت صف الرجال ينتصب ويترك أماكن عمله بين الفلنكات منسحبا.. وأيديهم المدلة تجر المعاول والفئوس ليقفوا في طابور أمام الباشمهندس وهو يشوح بيده

وبها دفتر الأسماء فى عصبية، ولا يلهث في مكانه أبدا كما لو ان عقربا لدغه .. هربت ساحبا معولى وراء الريس، استدار الباشمهندس لى ومد جذعه كله نحوى .. "تعال يا .. أمك" امتلأ فمى ببصقة لم أستطع أن أتخلص منها أمامه فى الطابور وساقاه طويلتان ثابتتان أمامنا وهو مرتفع بحيث لم نكن نرى إلا صدره أما وجهه فكنا كلنا لا نتطلع إليه .. بعضنا خوفا والبعض الآخر قرفا من سفالته .. يا.. أمك" نحن لا نربى عجولا خفضنا رؤوسنا فصارت تواجه حذاءه .. وفى فمى تجمعت بصقة ثانية "ما اسمك" .. قال له .. رد عليه مع السلامة ما اسمك قال له "رد .. لا تصلح، ابعد.. ما اسمك". وهو أمامي، يطل علي بوجهه. تطلعت إلى أعلى. كان وجهه شرسا وصدره فى حجم صدر ثور وسخريته بى تنصب من أعلى، فوقى .. لم أرد .. مد يده وشدنى من كم قميصى فقطعه. كان مهترئا من قبل .. لكنه هو الذى مزقه الآن، صرخ "ما اسمك" ويده تنفرد ولم أرد سبنى تململت البصقة بصعوبة فى فمى ولم أستطع بصقها على الأرض .. مد يده وسحبنى إلى خارج الطابور وسبنى وقال لى.. "أمك. ما الذى تطفحه" قالوا له إنها مضغة دخان .. قال لى ابصق فلم أتمكن، كان فكاى قد تسمرا حول البصقة وأنا أنظر له فقط من أول نعل الحذاء اللامع الذى يضربنا به أحيانا حتى وجهه الذى لا يوازينا ويطل علينا دائما من عل.

ظل يسبنى ولم أتكلم، سحب أحد الذين بجوارى وضربه بغضب هائل فى قبضة ساقه بمقدمة الحذاء، ثم سب خالى العجوز وقال له : "اشتغل معهم ليسوا فى حاجة إلى امرأة تحرس طعامهم

وثيابهم" ارتجف شارب خالي العجوز الأبيض ووقف يرتجف كله بالذل .. وهو يرد عليه بالإيجاب وعاد لي.. وأنت يا .. أمك .. روح لأمك" كانت اليد الخشبية مازالت في يدى وإن كنت أسندها على العمود. وهو يسب فيرتفع فوقنا وتستطيل ساقاه ويسب فيرتفع فوقنا أكثر .. واندفعت الدماء التي بنت كل ما ترونه قائما أمامكم وخلفكم، وتحتكم وفوقكم إلى ذراعي المتراخي. وفكرت في أولاد الكلب الذين يتجرأون علينا ويسمنون كالبغال ويعيشون على امتصاص دمائنا. ونتلاشى ليكبروا علينا ونحن الذين نزرع لهم الأرض.. ونحترق لهم في المصانع وتتلاشى أقدامنا الحافية لنمهد لهم الطرقات ونطعمهم ونكسيهم ونصنع لهم أحذيتهم وننكفئ عليها لندهنها لهم فيتباهون بلمعانها ويضربوننا بها في النهاية، وفكرت في ذل الرجال ولعنت الأيدى التي تخلق كل هذا ولا تملك أن تدافع عن بقايا كبريائها .. وسبني ورفع يده فشددتها من خلفي بسرعة ورفعتها باليد الأخرى صاعدا بها فَجْأَة حتى ارتفعت فوقنا أنا وهو ولم يكد يرفع وجهه إليها ويده معلقة في الهواء كالدهشة القاتلة حتى سمعت في ضجة هائلة كل القضبان الحديدية التي مددتها والعمارات والمصانع وآلات الحقول كلها ترتطم ببعضها وتندفع في دماء قبضتي وهي تهوى بها بضربة واحدة في حضن العنق.

وحدث أغرب ما اكتشفته في حياتي لحظتها ودعوكم من صرخات الدهشة وخبر أبوك أسود .. وإمساكهم بي وضربي بالعصي والأقدام والبصق في وجهي وإلقائي على الأرض ووطئي بالنعال وضربني بكعوب الألحذية فوق رأسي .. وبمقدمات الأحذية في سلسلة

ظهرى، والحديد، والسجن .. والمخاوف. والرعب الذى تراه ويراك وجها لوجه، كل هذه الأشياء التى لم تعد تدهش أحدا أو حتـــى تـثر التفات أحـــد.. وأنصتوا وأعطونى آذانكم واهتمامكم لما سأقوله لكـــم فقط :

أتعرفون ما أغرب شئ لم أكن أتوقعه .. تذكرون لحظـــة أن رفعتهـــا وهويت بها على جانب عنقه فى حضـــن العنـــق تمامـــا.. أتعرفون ماذا وجدت؟ .. لم أجد أمامي شيئا أبدا. كانت ساقاه واقفتين فى الحذاء الجديد كاملتين، وفوق الحزام لا يوجد شئ مطلقـــا .. ولا حتـــى بقعة دم واحدة .. لدرجة أنهم عندما جـــاءت العربـــة وهمـــوا بحملـــه ظلوا يبحثون طويلا عن بقيته .. فى كل مكان مُحيـــط بنـــا وعلى مسافات طويلة، وسألونى أنا وكل الواقفيـــن ومسحوا عيونـــهم ونظروا فى عينى بقوة عاودوا البحث من جديد دون أن يعـــثروا لـــه على بقية أبدا، لم يجدوا سوى ما وجدوه: ساقين فى قدميـــهما حـــذاء وجـــورب وهما فى بنطلون طويل وحزام، ولا يوجـــد فـــوق حـــزام البطن شئ، وعندما سألنى القـــاضى أتعترف أنك قد قتلته قلت له أننى عندما هممت بقتله لم أجده حيا! حتى ان القاضى نفسه وارى وجهـــه وضحكت أنا الآخر وأنا أقسم له أننى لم أجده لأقتله.

وسألنى رجل يرتدى السواد بعد ما أخذونى إليه فى الصبـــاح عما إذا كنت أرغب شيئا فقلت له أننى أرغب إلى حـــد المـــوت أن أعـــرف قبـــل أن تقتلونى : لماذا لا يصدقنـــى القـــاضى؟ تركنـــى ومضى إلى رجل فى ذقنه لحية وهمس له فقطب الرجـــل ذو اللحيـــة وجهه وأشار إشارة ما فهمت منها أنه يشك فى أننى عاقل ثم لوح بيده

ناحيتي في يأس وانصرف. التفت نحو أحد الشرطيين الممسكين بي فوجدته شاخصا إلى الأمام وكأنه لا يحس بى أبدا .. أما إنه حجر مسخوط أو إنه يتصورني حجرا مسخوطا، التفت إلى الآخر فرأيته يدمع ويده ترتعد على ذراعي .. رغبت أن أسأله .. لكنني وجدت صعوبة كبيرة في الكلام. فاكتفيت بالنظر له، برقت عيناه بشده وضغط بقوة رغم ارتعاد قبضته على ذراعي وأومأ برأسه فبكيت من الفرح.. حط ذراع الرجل الذى يرتدى السواد على كتفي، فنظرت للواحد الذى يصدقنى في العالم كله وفكرت بفرح .. سوف أبقى إذن ولما سألنى إن كانت نفسى تهوى شيئا آخر، نظرت للمرة الأخيرة للذى يصدقنى، وفكرت فى كل النور الذى سيغمر العالم خارج هذه الجدران وهمست : لا أرغب فى شئ آخر وأعطيته رأسى بلا احتجاج .. ومن فوق دائرة الحبل الملتف حول عنقى وقفت أرقب كل شئ.

يوليو (١٩٦٥)

قــــراءة فــــى

"عطشــــى لمــــاء البحــــر"

إبراهيم فتحى

فى الكتابات النقدية الكثيرة عن القصـــة القصــيرة المصريــة المعاصرة لا نرى النصوص الفنية تشبه أنفسها. فـــالصور النقديــة مغايرة لملامح تلك النصوص. وكان التشابه السطحى بين القصـــص المعاصرة فى مصر وبين تجارب عالمية ذائعة الصيت منزلقا ســـهلا إلى عقد المقارنات وانتحال درجات من القرابـــة. ومـــن الـــذى لا يستطيع أن يقدم جدولا "للأساليب الحديثة". "طليعى" مقـــابل أو فـــى تجاور مع "التقليدى"، للحيل السردية، وتوصيفات الصنعة ؟

ولكـــن هل تستطيع حقيبة العدد والأدوات، حقيبة المونولـــوج الداخلى وتيار الشعور، والمجاز والفانتازيا والاليجورى وإيقاع الجملة وإيـــراد حروف العطف وأسماء الوصـــل أو حذفـــها ثـــم التغريـــب والتشيـــئ والعبث إلى آخر محتويات تلك الحقيبة أن تكـــون جوهـــر أدبية الأدب ونوعيته المستقلة ؟. وهل من المستطاع حينمـــا نلصـــق بتلك العـــدد والأدوات بطاقـــات ســـجلنا عليـــها أســـماء مواضيـــع وموضوعات مثل: القطارات والبيوت أو عـــالم الطفولـــة أو العقـــل الباطن أو الاغتراب والإحباط والضياع، ثم نوزعها مجتمعة أو منفردة علـــى كتاب القصة القصيرة أن نبرز العوالـــم القصصيـــة القائمـــة بذواتها، وأن نضع أصابعنـــا على الحساسية الفنيـــة الجديـــدة التـــى يزعمون أنها مستقلة عن دراما الإنسان فى التاريخ.

لقد كان نصيب محمد إبراهيم مبروك من هذا اللبـــس نصيبـــا موفورا. نراه على سبيل المثال عند الناقدة السوفيتية "فاليريـــا كـــير. يتشنكو" فى كتاب "بحوث سوفيتية فى الأدب العربى" الصادر عـــن دار التقدم بموسكو عام ١٩٧٨. إنها تقول : "طريقـــة مـــبروك فـــى

الكتابة تشبه كثيرا ما يسميه السرياليون" بالكتابة العفوية "التـــى هـــى عبارة عن سيل من اللاشعور"، ورؤى عشوائية غريبة يلدهـــا ذهـــن هائج محموم. فالكاتب متجه إلى دخيلة نفسه لا يعبـــأ إطلاقـــا بمـــا حولـــه. وإن الصور غير المعتادة واللوحات الخيالية المرعبة تتزاحم فى ذهنه فيلتقطها على الورق بسيل عشوائى متواصل.

وتتشابك الآلام والرعب والألم النفسانى الشديد والقنـــوط الـــذى لانهاية له ولا فكاك منه إلا بالموت (ص ٣٤٩-٣٥٠).

والناقـــدة السوفيتية هنا متضامنة مع الكاتب المصـــرى شفيـــق مقار الـــذى كتب مقالة تحليلية عن مـــبروك فـــى مجلـــة "الطليعـــة القاهرية" (أغسطس ١٩٧٢ ومع الدكتور عبد الحميد إبراهيم فى مجلة المجلة القاهرية) (إبريل ١٩٧١) وعنوان مقاله: "القصة بين الشعـــور واللاشعور"، وهو يذهب إلى أن أقـــاصيص مـــبروك فـــى نزعتـــها العصرية الخالصة من حيث التعبير تعـــد نموذجا لروح العصر، وهو يعجب بها كلحن نقف عنده ولا نسأل. ما المقصود.

ولكن الوقوف عند السّطْح الظاهرى للنص الأدبى، ثم وصفـــه وتصنيفه تحت بطاقات حقيبة العدد والأدوات لا ينجو مـــن النزعـــة التلفيقية. فحسبما تصطدم الصيغ التبسيطية الجاهزة بالنـــص وتلقـــى عوائق واضحة تلجأ إلى جمل اعتراضية لا سبيل إلى التوفيق بينـــها وبين الفكرة الرئيسية، فالناقدة السوفيتية تقول "وبـــالرغم مـــن الشبـــه الكبيـــر بالنثر السريالى لا يجوز نعت أقـــاصيص محمـــد إبراهيـــم مبروط بالسريالية الصرف، ففى كل منها رغم فوضى الصور ظاهريا أساس منطقى موحد ينظم النص ويضفى عليه مغزى معينا وصيغـــة ناجزة، وينعت شفيق مقار طريقة مبروك الفنية بأنها، ســـريالية مـــع وقف التنفيذ" (ص٣٥٢).

فالنقد يصدر الحكم بالسريالية باعتبارها أساسا، ويسجن النص فيها. وهى أساس للكتابة التلقائية يقوم على الاعتقاد بأن حقيقة جديدة وفنا جديدا يولدان من اللاوعى.

ومما هو لا عقلى، من الأحلام ومناطق الذهن التى لا يتحكم فيها الإنسان. وهذا الفن فى تداعية الطليق غائص فى الحدس اللاعقلى أو فيما قبل العقلى، يقوم بتطوير تلقائى آلى للأفكار والصور وبتوليدها وتكاثرها دون رقابة واعية. وبعد ذلك لا يجد الناقد مانعا من أن يقول قولا عكسيا على طول الخط، فليس فوضى الصور إلا أمرا ظاهريا أما الأساسي فمنطقي موحد !!. ونحن الآن نعرف أن هناك إجابة على السؤال عن المقصود وعن المعنى المعين والصيغة الناجزة. وبطبيعة الحال ليست هنَاك "سريالية" صرفة أو خالصة عند السرياليين أنفسهم، وقد تلتقى فى العمل الأدبي الواحد اتجاهات متباينة وتتعدد دلالاته، ولكن هذا الالتقاء وهذا التعدد يصبح أساسا جديدا للوحدة العضوية للعمل الادبى. وهى وحدة تنطوى على التناقض الحى. فليست المسألة الرئيسية إدْراج العمل تحت مقولة وصفية سطحية جاهزة. وانزلاقا على هذا التشخيص السريع المضطرب تصل الناقدة السوفيتية مع مقار إلى أن السمة الرئيسية المميزة لمبروك هى "التركيز الكلى على" أناه "الداخلى وقطع جميع الصلات بالواقع الذى لا يثير فيه غير الرعب والارتياب. بيد أن الكاتب عندما يعزل نفسه عن العالم الخارجى يحرم نفسه من المصدر الذى يغذى قواه الروحية والإبداعية فيصل بالطبع إلى الفراغ ويستنفذ محتواه الداخلى" (ص ٣٥٢).

"الأنا" فى الثياب التنكرية :

حقا أن علاقة "الذات الفرديـــة" بالعـــالم الخـــارجي واللحظـــة التاريخية - والتعارض بين المسار الفردى المعاش للزمـــن والزمـــن الموضوعى التاريخي - مسألة محورية فى الأدب المعاصر. وهـــذه العلاقة هى مكمن الإعتام والغموض فى قصص مبروك. ومنطلـــق محاولة النقد إضاءتها وإيضاحها، وقد رأينـــا محاولة الناقدة السوفيتية القيام بذلك عن طريق رد المسألة على نحو مباشر واختزالها إلى مـــا يبدو أنه شفافية الفكر العقلى ووضوحه، أى إلي الذات والموضوع فى ثنائيتهما المعرفية.

ولكن الذات الشعرية فى قصص مبروك - أى وجهة النظر التى تقوم بالتشكيل والتنظيم - لا تقف عند نقطة البدء فى نظرية المعرفة، عند مسألة العلاقة بين ذاتية الوعى وموضوعيـــة العـــالم. فهـــى لا تتعلـــق بفرد باعتباره مجرد كائن منفصل، أو دائرة مغلقة معزولـــة، بل تستكشف فيه دوافع تلقائية نحـــو الازدهـــار والتكـــامل المتســـق والمشاركة وتفتح الإمكانات الحقة، وإن تكن محاطة بدواعى الاغتراب والانسحاق والتشويه. وبين الوعى الفردى وهذا "العالم الموضوعى"، هناك "حلقة وسيطة" هى التى تحدد بنيـــة الوعـــى الفـــردى الذهنيـــة والانفعاليـــة، إنها أشكال العلاقـــات الإنســـانية (ســـيطرة وإذعـــان، وأشكال الحياة اليومية وأشكال اللغة. ولكـــن تلـــك الأشكـــال التـــى تصوغ الذات والوعى بالذات قد فقد كل منها فى تلك اللحظة التاريخية تماسكه ووحدته، وأصبح تطورها متفاوتا لا استواء فيـــه. (ونعنـــى باللحظة التاريخية ملتقى تدهور العلاقـــات التقليديـــة، وتعـــثر النمـــو الرأسمالى. وانتحال رأسماليةِ الدولة فى معركة الاســـتقلال القومـــى شعارات الاشتراكية وقمع القوى الشعبية ومخاطر التبعية المحدقة).

لذلك نجد عند مبروك وغيره من كتاب القصة في مصر - وربما فى كثير من بلدان العالم الثالث - أن البنية السيكولوجية لوجود الوعي في العالم ولعلاقاته بالآخرين، تشكلها علاقات بين عناصر متباينة من الاغتراب التاريخي، سواء الاغتراب الغيبي بلغته المتميزة، اليتم والضياع بعد موت الأب جوبيتر أو الاغتراب الرأسمالي بلغته المتميزة لغة الامتلاك والتشيؤ. فالطابع السيكولوجي في خطوطه العامة هو الطابع التاريخي متنكراً. وفي قصص مبروك نجد أن الشروط الداخلية الباطنة للتجربة، لاوقعها الخاص أو كيفها الفردي بطبيعة الحال، لها بنية الاغتراب نفسها، بنية علاقات سيطرة وإذعان، وهي بنيةِ مركبة تضم علاقات التبعية الشخصية الخانقة العتيقة وصنمية السلع والنقود في آن معاً.

اللحظة التاريخية ولحظة التحقق :

ونرى الذات الفردية في قصص مبروك شخصية واحدة، هي شخصية الشاعر العاشق الطفل رغم أعوامه الثلاثين. وهو ما يزال طفلاً لأنه عاش تاريخه كله في البحث. فالأطفال (ولا يتعلق ذلك بالعمر) وحدهم هم الذين يعانون في البحث. أما "الكبار" فلا يبحثون عن شئ لقد وجدوا "حقيقتهم" وواصلوا الموت في حياة هي تعاقب حالات من الاستسلام والخضوع لمتطلبات الانتماء الى طبقات متآكلة صدئة، وأصبحت "ذاتيتهم" تكيفا انقياديا مع متطلبات النجاح والتسلق التي تبارك "الواقع الموضوعي "للقهر الطبقي والسياسي. والفرد في عالم "الكبار" يجد المأوى في عالم من المؤثرات الاصطناعية، وتعي التجربة الفردية نفسها وتكتسب طابعها بلغة الفكر السائد، وتتزايد اشباعات تلك التجربة فقرا، وتتضاءل نماذجها المتخيلة عن التحقق والسعادة، وهي نماذج يتم إنتاجها بالجملة لصور الرضا

والحبور، وأنماط وقوالب السلوك العملى والاستجابات السيكولوجية معا. ووظيفتها عقد مصالحة بين الحياة الداخلية للأفراد وأسس الاستغلال والتطفل، وخلق لغة للشعور والوجدان قائمة على اتساق مصالح العمل والملكية الاستغلالية. وتنكمش بذلك الذات الفردية إلى "دور" مفروض وينقضى العمر فى ارتداء ملابس "الدور" وتمثيله بل وحبه أحياناً. الكبار يرهنون الروح والشخصية مقابل الرموز الاستهلاكية ورموز المكانة ، مقابل أشياء باهظة الثمن على أحدث الصيحات لا تطيقها إلا الصفوة. وأصبح "المثل الأعلى" مستبدلا فى "حياة ممتعة" بالتقسيط. عربدة الشراء، وحساب فواتير الاستهلاك والتوقعات التافهة والأهداف الرخيصة مهما يكن سعرها عالياً. أين ذلك النثر الرمادى من شعر الآمال المجنحة، شعر التطور المتسق متعدد الجوانب للشخصية فى فورة معركة متصلة لإقامة أسس جديدة للعلاقة بين الإنسان والإنسان. ولنمط التفكير وحالات الشعور ونماذج الشخصية؟. الشاعر العاشق الطفل يرفض السقوط، ويصرخ رافضا أن تكون ذاته وشخصيته نواة فى علاقات اجتماعية تقتل الإنسان فى الإنسان، وتجعله دورا اصطناعيا مفروضا، منفصلا عن منابع الفاعلية الحقه فى تلقائية، مغتربا عن انفعالاته الحميمة، مبعدا عن بواعثه وقدراته على اتخاذ مواقف شخصية خاصة ، غارقا فى استجابة سلبية تصدر عن كائن بلا ملامح ، فقد الفردية الغنية .

إن انعزال "الفرد" فى قصص مبروك شكل من أشكال الانقسام الاجتماعى. وليس اختيارا فنيا أو موقفا أيديولوجيا بل أن الحياة النفسية للشاعر العاشق الطفل فى قصصه بعيدة عن ان تكون مساحة داخلية غائمة الحدود، وعن أن تكون ذائبة فى دوامات من

فتـــات التجارب المهشمة. أن هذه الحياة النفسية ليست عنده ســـيولة بلا شكل، فهي في مدها وجذرها ذات إيقاع منتظم، وتفيض وتنحســـر حول نواة أو مركز شخصي وفي بنية مترابطة تحكم التداعيات فـــي نسق واتجاه. وهذا المنطق الداخلي، هذا الإيقاع الحي للزمن الذاتـــي يقوم على علاقة بين توترين، على علاقة ثنائية، بين ذكريات بـــراءة وصحو في حضن الشروق وتوقعات عطش لأشرعة مملـــوءة بـــأفق العالم، ورغبة في أن يكون الفرد هو عين ما يتوهـــج فـــي الشمـــس ويصفو في الزرقة ويصلصل في جريان الأنهار ويخفق فـــي ســـماء الأجنحة، معانقا صدور الأمنيات الحية وبين واقع انطفـــاء وهجـــران وموت. ولكن أين نجد البراءة والصفاء وألق العثور ؟ وأيـــن نجـــد الخنـــق والصلب وظلمة اللحد ؟ أنجدهما فـــي الـــلا وعـــي الـــهائج المحموم ورؤاه العشوائيـــة ؟ ان العلاقة الثنائية لبنية الشعـــور ، أي مشاعر التعاطف والحب والحنان في تضادها مع الإحساس بالتنـــافر والبغضـــاء والقسوة تعبير يجسد انقسام الواقع الاجتماعي إلى "نحـــن" و "هم" إلى الفقراء ممثلي العمل والحب والازدهار وإلى مضطهديـــهم ممثلي التطفل والكراهية والموت.

وندع كلمات "مسيح المراسيم المحالة" تبدد الغموض عن تلـــك الثنائية، ثنائية التحقق والصلب : لم نكن (في الطفولـــة) نحـــس أن الأرض غريبة تحت بطون أقدامنا. كنت أبحث عن واحدة من البنات ذوات الضفائر، واحدة بالذات منهن. أبحث عنها كلما ســـقط الليـــل وأجدها حينما أطل في عينيها. كنت قد أحسست بالليل يأتي ففـــررت هاربا من فخذي أمي لأبني لي معك بيتا. نصنع من التراب جدرانـــا بـــارزة على الأرض المستوية تنقطع عند جـــزء منها فيكون بـــاب. ثم نكمل مربعا من الجدران وبذلك نكون قد صنعنا بيتا لنـــا بجـــوار

النهر. أتركك تكنسينه وتفرشين حصيرا وهميا، وتعلقين على الجدران في الليل مصباحا وهميا. والغريب يا عذراء أنه كان يضئ، وإلا فكيف كنت أرى ملامحك الصغيرة بكل دقتها، بل حتى عينيك وحنينهما الأزرق تحت خصل الذهب المهملة على تفاحتيك ... وأدعك لبرهة وأذهب خلال النهار إلى الحقل أحرثه وأبذر البذور وأغطيها ثم أنتظر حتى تبيت الشمس لأعود إليك، وتهرعين صوب الباب لتفتحينه بأكمله راغبة في دخولي بلهفة أم ... وعلى كسر الفخار نقتات العشاء ونشبع. وتظلم الغرفة .. ويفتح كل منا عينيه في عيني الآخر .. لكنهم داهموني بالملابس السوداء مالئين الشارع الذي يمر في بطن الخضرة منتهيا عند زرقة السماء الكالحة حيث كانت المقابر ترفع رؤوسها المدببة الجهمة ...

(هذا الطفل العاشق الشاعر) صلبوه. ولم يكن له أب. ولما لم يجد أبا أحب بجنون أن يكون له ابن ليرى أباه في عينيه. ولكن ذلك المصلوب الذي لم يلد لأنهم عاجلوه بالصلب عشق يوما ولذا صلبوه. ومن هم الذين صلبوه ؟ الذين يحملون قلوب اليهود (يحملون دولارا بين ضلوعهم) كرهوا أن تعشقه معشوقته. وعندما كانوا يرفلون في ثيابهم المغسولة (ثياب العمل عليها الطين والعرق) أمامها، ويسمعونها صوت الذهب في أكياسهم كانت تتأفف من النظر نحوهم. كانوا يسلكون دوما سلوك الأفاعي الغريبة.

إن العالم المغترب لا يعدو كومة من المحطمين في الطرقات، وقد يئس الشاعر من إمكان انتشالهم.

وذلك أشد ما كان يصيبه بالاشمئزاز، "كان من الممكن أن ينقلب رأسا على عقب لمجرد أن يتعرف الإنسان على الإنسان" (قصة مسيح المراسيم المحالة). والظمأ إلى المشاركة والالتقاء

والمصافحة والعناق هو نفس ظمأ الذات إلى أن تجد نفسها. ومع الحبيبة "تلتصق ملامح كل منا وتغوص بملامح الأخر ونتبادل التنفس، وندرك بتغير إيقاع النبض أن كلا منا بدأ ينساب دافعا كيانه نحو ذاته سي الأخر" وكذلك "يدك تختنق وحدها. والطوفان يعلو ويتسارع بكل ألق الشموس التى لم تتر العالم من قبل. والبسمة تنبثق وتدب بإيقاع هائل الفوضى والتناسق. والموجات الفرحة تعزف مستحيلا" يوجد. أن الحب يتفجر بمعجزة الخلق. الأضواء تنسكب فى العناق. وترتوى البشرة ونرى ما تحت غبار الأشياء.

ويغوص الشاعر فى أمواه الدهشة ويبدأ طعم العالم فى التغير. المرارة تنحسر عن جدران الحلق. وفى لحظة العثور على طعمك الحلو تفجرت الحلاوة فى جسدى كله. القوة تتفجر فى ساعدى وأتحسس جسمى الجديد لأتعرف عليه ... وأكتشف أن الجحور الجبلية التى كانت تحاصرنا فنختنق فيها بيوت ولها نوافذ. وأن الشوارع ليست سراديب نمل وأن الأشياء (يعنى الكائنات البشرية) ذوات الرأس الواحد والأربعة أطراف والتى ترتدى مزقا مضحكة من النسيج ... (والتى كانت عيناتها الفاخرة ملفوفة بإحكام فى المعاطف الجلدية الواقية من المطر والجوارب الصوفية الملونة والأحذية ذات الكعوب المدربة على العزف ... والأنثى من هذه الأشياء كانت معطفا جلديا، عريا فارغا مغطى باللفافات وقناع الألوان وطلاء العينين).

لم تعد أشياء بل انبثقت منها فجأة عيون فأصبحت ترى. وعندما كنت أتأمل أى واحد منهم بدهشة كان هو الآخر يتأمل عينى، ويبادلنى نفس التصرف .. وأصبحت أتأمل بحب غريب إيقاع الخطوات التى تنظر إلى الأمام، والثقة الغريبة فى أن الطريق يخضع للسير .. وقد كان يخيل إلى قبل ذلك أننا لا نسير أبداً، بل نحن

نسقط أقدامنا فى الطريق وبعد ذلك يتولى هو كل شئ، تماما كـالذى يسقط يديه فى قبضتى شرطى ليقتاده إلى السجن.

ومن الواضح أننا أسرفنا فى إبـراز توهـج لحظـة التحقـق الوهميـة ونضارتها، فهى لا تحتل إلا مساحة ضئيلة بالقيـاس إلـى امتـداد فسيح للانطفاء والتداعى والسـقوط والعبـث فـى قصـص مبروك. ولكن تلك اللحظة الخياليـة المفترضـة، لحظـة الاكتمـال والامتـلاء التى لا تحتل موقعا فعليا فى التسلسل التاريخى ولإمكـان لها على الأرض، هى المعيار الفكرى والنفسى واللغوى الذى يحكـم بهـا السرد الشعرى على اللحظات الواقعية الأخرى ويقيسـها بـها. إنها ليست مجرد إمكان للمصالحة بين الوجود الشخصى والعالم بـل اقتراح بنموذج جديد لوجود الفرد ومنطق مغاير للعالم.

نمط الفردية التقليدية :

وهذا النموذج الجديد لوجود الفرد ليس اختلافا تعسفيا لذهن حالم كما أنه ليس مقصورا على قصص مبروك بل هو نغمة سـائدة فـى الأدب القصصـى المصرى الحديث. أنه مستلهم من أفـاق كـانت تتفتح أمام الحركة الوطنية المصرية فى مرحلة انتقالية طويلة المدى.

إن الفردية البورجوازية فى مصر نشأت مع ارتبـاط المجتمـع التقليدى المتفسخ بالسوق العالمية الاستعمارية، ومع تغلغـل علاقـات التبادل تدريجيا فى بطء قاتل داخل الاقتصاد الطبيعـى والعلاقـات العضوية لمجتمعنا القديم. لقد كانت الفردية البورجوازية ترنو إلـى حرية إنسانية تحطم أغلال التخلف والتبعيـة السياسـية للاسـتعمار. وتلحق بركب "البلاد المتمدينة" على قدم المساواة. ونلمس فى قصـة مبروك "تزف صوت صمت نصف طائر"أصداء ذلك الشاعر القـادم مـن مصر إلى لندن عاصمة الاستعمار البريطانى، يحمـل داخلـه

برعم الوعى الذاتى بالفـردية، برعم التحرر الشخصى مـن التبعيـة للسلطات المـوروثة والقدر الأعمى والأوثان الغاشمة، برغم إطـلاق سراح الطاقات الفردية فى العمل ومعنى الحياة والحب والفكـر مـن أغلال التبعية الشخصيـة للملاك والطوائف والجماعـات الضيقـة، والسلم الطبقى الأبدي بقداسته الوثنية والحكم المطلق ومتون التعميـة. ويحلم الشاعر الذى يعى ذاته بلغة تستعير جناحها الأخر من غنائيـة الفـردية البرجوازية فى الغرب إبان صعودهـا - قبـل أن تتحـول الحـرية الإنسانية المجردة بتفاؤلها وبطولياتها إلى دفاع أيديولوجـي عن الامتياز الطبقي- بتحقيق نموذج للتحقق والسعادة. وفـى قلـب القصة القصيرة والرواية المصرية نجد دائما هذا المطمح إلـى تلـك الذات الفردية الغنية، وإلى أسلوب حياتها الذى تحرر مـن العوائـق القديمة. فتلك الذات تتوق إلى الإسهام فى صنع أسلوب جديد للحيـاة لم يكتسب صلابة وتحجرا. وكان ثـراء تلك الـذات يقـاس بلغـة السعادة الداخلية والتوافق العام والإنجاز الخارجى. إنه نموذج الشاعر الفنـان وان لم يكن يحمل إنتاجه إلى السوق. أو توامه رجل الفكـر أو العلم أو القانون لا من حيث التخصص المهنى الضيـق والنجـاح التجارى بل من حيث احتضانه لقضية عامة. وهو علـى الأغلـب مشـارك فى الحركة الوطنية أو روافدها وفى صميم حياتـه قصـة حب لا يقرهـا المجتمع التقليدى. وترتبط بمنطق حياته وقد تكـون رمزا لهذا المنطق. ومن الواضح أن "أوروبا" كانت عاملا مشتركـا على نحو مباشر أو غير مباشر فى أدبنا المصرى الحديث (الأيـام- عصفور من الشرق - قنديل أم هاشم - وسيل من القصص والروايات عن خريجى وخريجات المدارس والجامعات الأوروبيـة) لقـد كـان "العمل" فى عدد كبير من القصص والروايات المصريـة أكـبر مـن

خانة المهنة، فالفردية كانت تتوق إلى فاعلية تستغرق فيها بكليتها كانسان متكامل، إلى نشاط يشترك فيه الجسد والعقل والانفعال على نحو متسق.

ولكن تلك الذات الفردية لم تكن فى علاقة تناحرية مع أنماط الفردية التقليدية رغم الاختلاف والتضاد نتيجة للطابع التاريخى الذى تميز به نمو العلاقات الرأسمالية فى مصر.

لقد كان الفرد فى النمط التقليدى، من زاوية تطوره الذاتى محصورا فى نسق محدد من الروابط الاجتماعية، عائلى طائفى قروى (أو أقليمى)، ويتمشى ذلك مع وسائل بدائية وإنتاجية ضئيلة، ولم تكن أمامه طريقة للوجود والتكاثر إلا بان ينصهر انصهارا كاملا فى جماعة ضيقة محددة، وفى شروط عمله فى الأرض بالنسبة للكثرة ومع الأرض المحراث والفأس. لقد كانت الأرض هى الشرط المسبق وموضوع العمل ووسيلته وهو عمل غائص مباشرة فى الطبيعة وزمانه هو إيقاع الفصول الدائرى، وأدواته امتدادات مباشرة لأعضاء الإنسان وحركاته الأولية البسيطة، وتبدو له هذه الأدوات كائنات حية، وكل تلك الشروط الإنتاجية "الطبيعية" لا يمتلكها الفرد أو يستحوذ عليها . تعمل إلا من خلال عضويته فى جماعه "طبيعية " محددة هو جز. نها لا يتجزا فى الوعى والسلوك يستبطن داخله عراف واجباتها ومحرماتها الكلية القسرية وهو لا ينتسب إلى المجتمع الكبير مباشرة بل عبر جماعته، فى روابط شخصية أهمها روابط "الدم" الأسرية. ومن المؤكد أن تلك الجماعة الطبيعية المتآلفة كانت قناعا لقهر طبقى وحشى لا يعرف تآلفا ولا انسجاما، وقد أخذت تلك الجماعة المتآلفة الطبيعة كلها داخلها، وحاولت استئناسها لتصبح لها شكل حاجات الجماعة وإشباعها ولكن

الطبيعة كثيراً ما أخذت شكل إحباط تلك الحاجات وشكل التهديد باجتياح الجماعة نفسها، مما أضعف قدرتها في السيطرة على الطبيعة، وكان هنا موقع الاغتراب في المجتمع التقليدى. الفرد يقذف بطاقاته وانفعالاته وقدراته الإنسانية خارجه - ويعتبرها مجسدة من عناصر متناثرة من فردية الجماعة المتآلفة وعناصرها متناثرة فى "قوى" الطبيعة المؤلهة. وتصبح الطبيعة تعبيرا عن معان متعالية مفارقة للفردى والجزئى والحسى (وليست أوصافها فى الأدب فى رواية "زينب" مثلا أو فى "دعاء الكروان" تعبيرا عن خبرة مباشرة بواقع محدد). فالذات الفردية فى نمطها التقليدى ليست ذرة مستقلة منعزلة وكانت العلاقات بين تلك الذرات تتم داخل جماعة محلية شخصية الطابع لا مع تجريد المجتمع الكبير، ولم تكن الروابط الاجتماعية بين الأفراد قد تحولت إلى علاقات بين سلع وأشياء، ولم يكن التقسيم الهائل للعمل والتبادل التجارى قد جعل الشكل السلعى يبتلع الحياة، ويجعل الطيبات والخيرات مقيسة بأرقام سعرها بدلا من أن تشبع حاجات الإنسان المباشرة (ويجب أن نتذكر حتى لا نستغرق فى حنين سوداوى الى الماضى أن الفردية البورجوازية إسهام حقيقى باق خلقت ذاتا جديدة للفاعلية ونمت حاجات وطاقات جديدة على الرغم من تناقضات تطورها وتراجيديته). إن الفردية التقليدية لم تكن تعى الفرد باعتباره كيانا مستقلا بل مقتسما مع عشيرته (رغم التمايزات) لعالم عضوى من الانفعال المشترك له بنيه قيم متوارثة مقننة، وهى قيم كلية عامة لواقع نهائى ليس التغير فيه إلا معاودة وقوع فى دورات متعاقبة، كتعاقب الفصول. وهذا الانفعال المشترك، لأنه جماعى مشترك يحياه كل فرد وكأن له وجودا خارجيا عنه مماثلا لوجود الطبيعة، فبنية الانفعالات (استمرارها

الإيقاعي أو علاقاتها المتقابلة) تسقط على الطبيعة فى نزعة إحيائيـــة. وتبدو الحياة الطبيعية فى شروقها وغروبها وفيضاناتها وانحســـاراتها ومدها وجزرها وعواصفها رعودها وهدأتها وخصبها وجدبها تعبــيرا عن الحياة الانفعالية الجماعية التى يقتسمها الفرد مع الجماعة. وكانت التراكيب والأشكال الفنيــة التقليدية (فى الأدب القصصـــى الشعبـــى) تقــوم على استعارة كبــرى لتصور طبيعى حيـــوى عـــن العـــالم. فالعالم مشكل من قوى حية تكاد أن تشبه الانسان، لكل منها رغبــات ودوافع متصارعة، وتلك القوى موجهة بغائية تفرض اتساقا وانسجاما. ومصاغة على غرار الفاعليات والمشاعر والارادات الذاتية المشتركة. ونجد لحظة التحقق الطوبائية فى قصص مبروك متخيلــة فى نســـيج لفظى صوره مستمده لا من دوافع الإنسان كما تتدفـــق فـــى الخـــبرة البيولوجية أو الفردية بل فى التجربة الانفعالية المشتركة المتلاحمة مع قوى الطبيعة. فالضفائر عند المحبوبة ثلاث أنـــهار طفلــة نزقــة لا تختلــط ولا تنتهي إلا عند أسفل الظهر. وأنهارك تصطخب لحظـــة أن رأتنى. شفتاك منفرجتان تسقياننى الأضـــواء، والســحابات فـــى نافــذتى الشرقية تخضر حول عـــالم جديـــد يتبـــدى فـــى الشـــروق وابتسامتك تشرق دومـــا أمام دهشتي. والفرح يظـــل يـــهطل فـــى موجات لا تنقطع... تمدين لى جسرك المتوهج عبر الأمواج الليليـــة ممتدا من أول ساحل الجدب المتسع ورائى حيث المحارات الفارغـــة تحت مناقير الطيور الجافة، وعظام الهياكل العاريـــة للطيـــور علـــى هياكل السمك الميت. ينقلنى الجسر عبر الليل كله إلـــى استدارتى عينيك وهى مفتوحة على عالم لم يعرف سوى الصحو فـــى حضـــن الشروق.

المصالحة :

إن الأدب القصصي في مصر ظل من حيث اتجاهه الرئيسي حتى الستينات مهتما اهتماما حاسما - ليس هو الوحيد بطبيعة الحال - بمشكلة العلاقة المتداخلة بين نمطين من الفردية. فالاتجاه الذى ميز القصة القصيرة والرواية عن أشكال السرد التقليدية هو اتجاه الذات الفردية البورجوازية. فالسرد الحديث يقوم في بدايته على افتراض أن نفس الفرد وشخصيته وروحه، أى حياته الداخلية، قطب مقابل للعالم الخارجي، فثمة مركز سيكولوجي فردى مقابل العالم. ومن المعروف أن الاحتفاء بالعمق الانفعالي والنفاذ إلى بواطن الذات الفردية سمة مميزة للأيديولوجية الليبرالية فالوعى والفكر والانفعال، أى الحياة الداخلية، هي مقومات الذات. وهي ملاذ الحرية الباطنة، الحرية الجوهرية للإنسان في عالم المنافسة والربح الذى نشأ في أحضان عالم الأوضاع الموروثة فالقصة أصبحت تدور على شواغل القلب البسيطة لا على أفعال أبطال ومردة وفرسان وأمراء، وتعنى بسمات الفرد وخصوصيته بدلا من النماذج الجماعية التاريخية، وتتركز في تدفق الانفعالات الشخصية. كما أصبح معيار الحقيقة الجمالية التجربة الفردية بدلا من القيم المتوارثة المقننة. فالمعيار الجمالي البورجوازى لا يعتبر التطابق مع الممارسة التقليدية هو أكبر اختبار للحقيقة بل أن ذلك الاختبار متحقق في الطابع المباشر العميق والصدق الذاتي (أو مع الذات كما يجرى الكليشيه النقدى في مصر) والحساسية والعمق الباطن. ويتمثل ذلك في نزعة اعترافات غنائية وميل الى التعبير السيكولوجي المباشر وكأن الانفعال يولد وفي فمه وسائل التعبير عنه. والشخصية هنا وجود فردى واقعي. وتجربة متدفقة تقوم بأفعال جزئية "حرة" داخل نطاق زمني معين،

زمن الساعة وجدول القطارات وصفارة بدء العمل وانتهائه وهو زمن يسير فى خط مستقيم، وليس زمن الفصول الدائرى الأبدي. الزمن الواحد ذا الطبيعة الواحدة فى الزراعة والحصاد والقيام بأمور البيت أو الشئون الاجتماعية فالعمل لم يكن ينقسم الى وقت عمل ووقت فراغ. وبالإضافة إلى ذلك فالمقياس الزمنى المحدد قوة أساسية، يقيس زمن العمل ويحدد الأجر ويقيس كل إنجاز وكل واقعة وهو أساس لتصور درامى سببى فى بناء حبكة القصة أو الرواية، وذلك فى مقابل المعانى والماهيات القصوى الأبدية، المستقلة عن السير الجزئى للزمان فى التصور التقليدى فالصراعات الفردية الاجتماعية كونية دائمة الحضور تدور فى نظام ثابت متناغم تنتمى أسسه الى جميع الأزمان.

وفى بدايات السرد القصصى الحديث فى مصر كانت محاولات المصالحة بين الذات الفردية الحرة وقيم الجماعة المتألقة نغمة أساسية لا تخطئها الأذن. فالأيدلوجية البورجوازية فى مصر فى قيادتها لحركة التحرر الوطنى لم تكن مسكنا مقصورا على أفراد طبقة واحدة، بل حاولت إدماج الطبقات الشعبية فى تصورها للعالم.

وقد نجحت فى أن تربط داخل تصورها رؤى مختلفة كانت موجودة لدى الطبقات الشعبية المنتمية إلى أنماط تاريخية قديمة مثل الفلاحين والحرفيين. واستطاع النمط البورجوازي للفردية أن يمتص امتصاصا جزئيا بعض مضامين النمط التقليدى وأن يقوم بتحييدها وتحويل التناحر إلى اختلاف بسيط.

الحساسية الجديدة :

ولكن فى الستينات بدأت الصورة فى التغير. وأصبح بسطاء الناس الذين يدار الحكم باسمهم مبعدين عن المشاركة فى صنع مصيرهم. وكان الجزء من الحركة الوطنية الذى انفرد بالسلطة ويتحدث باسم الطبقات المتآلفة يهشم تماسك الطبقات الشعبية ليحولها إلى أفراد متناثرين، وأنفار فى طابوره الواحد. وليس هنا مجال الإفاضة فى ذلك وقد قلنا فى مجال آخر أن الاغتراب فى قلب واقع كان قبل ذلك وعدا بالتحقق وتحت سياط قوى كانت قبل ذلك أملا ووعدا بالتحقق جعل تناول الكتاب الذين يطابقون بين أنفسهم وبين بسطاء الناس يتم وفقا لمصطلحات ومفهومات غير سياسية على نحو مباشر. إنه وقت لم تكن فيه الثورة ممكنة بل كانت ستختلط بالثورة المضادة من وجهة نظر الكثيرين. وأصبح مجرد مواصلة "الحياة" مشكلة مضنية، وكان كتاب الهتاف والتصفيق والجرارات ملفوفة القوام والنقابات البيروقراطية المعينة وتعاونيات السماسرة وأغنياء الريف قد تحولت السياسة عندهم إلى اعمال إدارية وخطط محسوبة توجه مغامرات التسلق وتجميد الواقع وتزييف صورته. لقد كان فى المسار المتناقض للمسرح الاجتماعى ما يغرى بنزع الطابع التاريخى عنه وقبوله كواقع طبيعى، ولم يعد الواقع كتاريخ تصنعه الارادات المتآزرة مرئيا ظاهرا. وكان الاغتراب يمزق الأواصر بين العام والخاص، بين الاجتماعى والفردى بين الفكرى والحسي والوجداني. وقد عكف كثير من كتاب الستينات على تصوير العلاقات الممزقة بين العالمين الذاتى والتاريخى وعلت صرخاتهم فى وجه محاولات إفراغ الاثنين من المعنى. ولأول مرة تبدد عند كتاب الستينات الوهم الأيديولوجي المبرر تاريخيا، وهم

إمكان المصالحة بين الفردية والبورجوازية وفردية الجماعة المتآلفة، وهو الوهم الذى كان سائد قبلهم والذى أصبح لأول مرة هو الأيدلوجية المعتمدة للاشتراكية الأميرية.

وكانت صرخة مبروك فى قصصه صادرة عن حساسية جديدة ترتبط على الرغم من تفردها بحساسية مشتركة فى تيار جديد للكتابة القصصية. ونعنى هنا بالحساسية شيئا يختلف عن مواضعات الكتابة وعن الأيدلوجية السياسية بل ما يعنيه رائد الاشتراكية العلمية بها، فالمرء يتعرف على ظاهرة ما بوصفها تجليا لخصائص الإنسان الجوهرية وبكل حساسيته، وهكذا يتحقق الإنسان داخل العالم الموضوعى، لا فى فعل التفكير فحسب بل بكل قواه الحسية .. والانفعالية أيضا، ولكن قصص مبروك جميعا قصص عن عدم التحقق. إنها تعبر عن حساسية دائرة معينة فى الحياة الشعبية تختلف عن دائرة حياة الطبقة العاملة. وتلك الدائرة تعانى اضمحلالا وتدهورا. إن أفرادها هم سكان العوالم الوسطى وبالتحديد مستوياتها الدنيا بين القمة والقاع، بين الملكية والعمل. وهم ينتمون إلى أنماط عتيقة وأنماط شديدة العصرية فى نفس الوقت. وتاريخهم المعاصر ملتقى تيارين متضادين، تيار يقوض أشكالا قديمة منها أو يخضعها أو يمحوها وتيار آخر يعيد خلق أشكال جديدة منها وينتج لها أماكن وأدوار ووظائف مستحدثة ثم يهدمها. فلعبة النهاية والبداية دون توقف هى نمط وجودها. ولا تتحدد سيكولوجية تلك الشرائح الوسطى ولا أيديولوجيتها بجوهر دائم يواصل الحفاظ على ماهيته، بل بعلاقاتها المتناقضة بالطبقات الأخرى، وبالمستوى الفعلى للصراع الاجتماعى فى اللحظة المعينة، وتلك الشرائح الوسطى تتضمن حضور الطبقات الأخرى داخلها

حضورا سيكولوجيا وأيديولوجيا لأفرادها إنهم يقيمون في منطقة احتدام وذوبان الصراع الاجتماعى، فى موقع دوران الأفراد خلال عملية الحراك الاجتماعى هبوطا وصعودا بين الأغوار والأعالى، بين القديم والحديث، بين الأسطورة التقليدية للمجتمع الأبوى العضوى والعلاقات المتناسقة فى الإنتاج العائلى وبين الأسطورة الحديثة عن الفرد السوبرمان بوعيه السعيد أو المقذوف به إلى عالم الوحدة والضياع. إن أفراد العوالم الوسطى يبدون لأنفسهم محلقين فوق المعركة الاجتماعية ممثلين للشعب والإنسان، للاستمرار التاريخى والحقيقة المحايدة. ولم يكن مبروك ينتمى إلى ذلك التيار الذى أدمجته الأيديولوجية المهيمنة، وتمثلته على أساس من تحقيق أهداف جزئية منفصلة لبعض قطاعات الشرائح الوسطى بل كان ينتمى إلى تيار معاكس يواجه الاضمحلال وفقد الحرية وإخفاق الآمال بالجملة. ونمت الحساسية الجديدة عند ممثلي هذا التيار فى الفكر والفن على أساس رفض تصور العناق الهادئ بين الطبقات المتناحرة على درجات سلم وهمى يصعده الأفراد من الأغوار السفلى إلى الأعالى بالجدارة والمواهب، فمهما تتغير وجوه الأفراد الصاعدين (وهم قلة ضئيلة) أو الهابطين يظل التركيب الاجتماعى على حالة. قمة متسلطة وقاع مستكين متساقط. ويرفض السرد القصصى العلاقات القديمة ولا ينطوى على حنين للرجوع إلى انسجامها واتساقها رغم وقدة الحنين إلى انسجام واتساق. ويرفض منطق الحياة اليومية فى اللحظة المعاصرة، فالمعنى الإنسانى الكلي بين مخالب التمزيق والتفتيت، ولم يعد السجن الأيديولوجي للتجربة اليومية الضيقة التى يمارسها الفرد مركزا لحقيقة العالم أو حقيقة الفرد. إن إنجازات الفردية البورجوازية لم يعد من الممكن الاحتفاظ بها أو تطويرها

فى إطار البرجوازية التى أنجبتها، فلابد من إطار اخر فـــى مجـــال الحلم، ولابد مـــن البحث عن خلاص. وفى قصة "نـــزف صـــوت" ذهب الشاعر المصرى إلى لندن، وهى مدينة مبان حجريـــة عاليـــة وأضواء ملونة بناها الإنسان وهدم نفسه "فالإنسان سيظل قزما طالمـــا هو يبنى خارج نفسه". وقبل ان يصل إلى ذلك كان يحـــدث حبيبتـــه الإنجليـــزية بفرح عن أمه وأخيه الصغير والناس الذين ستسعد بـــهم فـــى مصر. وكانت تصغى كما لو كانت تسمع بابتسامتها. ويقـــول لها هذا أخى الصغير فتضحك وتعتصـــر أصابعـــه، وفـــى عينيـــها تســـارعت موجات النيل تمرح بين ضفتى التيمز. الحلم المســـتحيل فـــى نطـــاق العلاقات المعـــاصرة بيـــن ألضـــوارى الاســـتعمارية والشعوب باتحاد نمطين من الفردية ومن العجب أن الأستاذ مقار فـــى مقـــاله النقدى يقتنص كلمات شاردة عن سياقها زاعما أن هذا الشاعر فى القصة، يسخر من قادة أساطيل الإمبراطوريـــة البريطانيـــة "قفـــا الشمـــس" لأن وجهها الحقيقى كـــان وحـــلا يخـــوض فـــى الليـــالى المهـــزومة، فانتصاراتهم بالمقيـــاس الإنســـانى هزائـــم لشعوبـــهم، فالانتصار على إنسان ليس سوى تأكيد الهزيمـــة". فهو لـــم يذهـــب منتقما. وحبيبته الإنجليزية أم طفلة، أمله. هـــى اكتمـــال وجـــوده. نصفه الآخر. وعلاقته بها علاقة امتزاج واتحاد ومشاركة تضـــرب حدودها فى الأعماق، واستسلام متبادل وانتصار متبادل. ولسنا هنـــا أمام قصة مسرفة فى النزعـــة العاطفية عن حب صبى غض الإهاب، يثقل الصغائر بمعان ضخمة، ويأخذ مسائل عادية بجديـــة مأســـاوية مفرطة تدعو إلى السخـــرية، فالسرد لا يوحى بقصة عن أفراد فـــى حياة يوميـــة بل تصـــور مجازى رمزى لصراع محورى فى الوضع البشرى، بين أشواق الإنسان متواصلة الحلقات وين منطق معاد، وهو

تنافر ينتهى فى جميع القصص عند مبروك بإحساس عام بالعزلة الخانقة، ما عدا قصة "عطشى لماء البحر" التى كتبت بعد فترة انقطاع طويلة مرت على كتابة القصص السابقة. فما يقدم لنا ليس أجزاء من تجربة يتبع لاحقا سابقها فى تعاقب سببى، بل نماذج من المعانى المتقاطعة مستقلة عن التعاقب الزمنى والتجاور المكانى فى ترابطها، ولا تتواشج فى وحدة إلا فى آن واحد، فالسرد يقدم لنا صورة كلية تسهم مكوناتها فى تقديم مركب انفعالى فكرى متواقت. فالنهاية مثلا لا علاقة لها بالحسم وهى لا تحسم شيئا ونترك الشخصية فى مكانها الذى التقينا بها فيه منذ البداية.

ومن القول المعاد الكلام عن تغير مواضعات السرد ورفض الحبكة التقليدية القائمة على السببية بين البداية والوسط والنهاية والخروج على تصور الزمن الذى يسير فى خط مستقيم. ولكن ما يجب تأكيده هو أن تلك المواضعات التى نصفها بأنها تقليدية كانت هى السمات الفارقة للقصة القصيرة الحديثة وللرواية بالقياس إلى أشكال السرد القصصى القديمة. وتلك المواضعات قائمة على افتراض أيديولوجى مضمر، هو الزعم بأن "وصف" حياة الأفراد فى واقعها الجزئى اليومى يقدم حقيقة كلية ذات طابع إنسانى اجتماعى عام. وذلك هو نفس الوهم الكامن فى الأيديولوجية "التجريبية" على وجه العموم. "فالقانون" عندها متضمن فى كل ظاهرة جزئية على حدة على نحو ما هى معطاة فى الخبرة الفردية، ويمكن أن يستخلصه منها الفرد الذى قد زود فطريا بكل الوسائل التى تمكنه من ذلك ويناظر ذلك الوهم وهما أساسيا آخر فى الحياة الاجتماعية، وهو أن يدا خفية تحقق التناسق بين سببية الأفعال الفردية القائمة على المصلحة الذاتية والسببية الشاملة لتحقيق مصلحة المجتمع الذى يسير دائما إلى الأمام. ولكن ما كان وهما

مبــررا تاريخيا أصبح الآن أكذوبة رخيصــة. وهنا نجد أزمة السرد القصصى، فهو لم يعد تطابقا حافــلا بالمعنى بين البعد الفردى والبعد الاجتماعى. انفصل الزمن الفردى عن الزمن الاجتماعى، وأصبــح مــن المستحيل التعبير عن مؤسسات وقوى مجتمع ينظم نفســه آليــا وفقا لجهاز الثمن فى السوق بلغة التحقق الفــردى والفعــل الحــر أو التجربة الشخصية فالفرد سلعة تتحقق فــى مكــان مســتأجر بزمــن مستأجر يعيش حياته بلغـــة المواصفــات القياســية، لأن العواطــف أصبحت سلعا تبادلية أيضا كما يقال، وثمة بعد ذلك كله قلــة ضئيلــة تحكم المصير.

ولكن قصص مبروك - ويشاركه فى ذلك بعض كتاب القصـــة المصريـــة قد تدفع إلى الظن بأنها تحكى حكاية واحدة عن استكشاف وارتيــاد حالات نفسية عنــد فــرد معــزول محــاصر فــى كهفــه السيكولوجى واقف عند أوضاع ساكنة متجمدة وقد تبــدو تلك الــذات بعناصرها المفككة متجاورة مع ذوات مضمحلة متداعيـــة أخــرى، وهى ذوات يتصادف أن تتصادم دون ان تلتقى أبدا، ويبــدو عالمــها عالما للتشيؤ تحكمه قوى غامضة كأنها طبيعة الكون. فالواقع كالذات قد خلا من الطاقات والقدرات الحية.

إلا أننــا فى الحقيقة لا نلتقى بالزى الرسمى الموحــد للعدميــة المعاصرة، وهو زى من قطعتين ذاتية زائفــة وموضوعيــة زائفــة. فالتشــابه بيـــن مــبروك ويــن كتــاب العدميــة ينحصــر فــى الموضوعــات لا فى مبادىء التشكيل. فـــالاضمحلال والانســحاق والعزلة سمات موجودة فى الواقع الفعلى. وقصص مبروك لا تقــدم عالما قد انهار أو النتائج الميته لهذا الانهيار. وهى لا تتعاطف مــع الانحطاط والشحوب والذبول والموت. إنها على العكس تحتج علــى كل ذلك وتصرخ فى وجهه باسم قيم تبتعد كل الابتعاد عن العدمية.

المأزق :

والقيم المعيارية التى يحكم السرد باسمها، ليست قيم الفردية العمالية التى مازالت أملا. ولكنها قيم مستمدة من عناصر متناثرة من فردية الجماعة المتألقة وعناصر متناثرة من فردية الجماعة البورجوازية إبان صعودها وتحسس هائم على وجهه لمبدأ ترابط جديد غير مبادىء الترابط التى دفعت الذات والعالم إلى التدهور والاضمحلال. لقد كان مبدأ الترابط فى الفردية المتألقة القديمة قائما على تدرج المراتب (الهيرارشية فى الأرض والسماء. فالأرض يملكها هرم متصاعد فى قمته سيد مطلق السيطرة، له مكانة الأب تهبط منه درجات من الحقوق والتبعيات حتى القاعدة. ورأت الوثنية الطبقية فى السماء مثل هذا التدرج. ونرى فى قصص مبروك رفضا لهذا التدرج القمعى فالسرد يصرخ فى وجه الأب المتسلط فى الأرض والسماء "فصورة الأب" فى الأدب المصرى كثيرا ما تتمثل فى تصوير جبروته والاحتجاج عليه أو فى تصوير تداعى مكانته القديمة). ولكن ذلك السرد من جانب آخر ينوح على ما تركه غياب هذا الأب الخرافى المفارق للعالم من خواء واختلال، ويا للخديعة لقد تعودنا على اعتباره مبدأ الاتساق والانسجام، يفيض به على كل المراتب المتدرجة، وعلى أجزاء كل مرتبة وفى السرد تظل الرغبة اليائسة فى الخلاص مدركة بلغة شظايا تآلف كونى إنسانى يكاد يضيع إلى الأبد رغم مقاومة الصرخات والنداءات فالذات الشعرية لم تتكيف أبدا داخلها متسقة مع الهدم والذبول والموت، ولم تتناغم الأوصال التى ظلت حية مع الأشلاء التى سرقها الموت. وهناك إحساس بالرعب – ربما كان تضمينا لأبيات الشاعر النمسوى "هوجو هوفمانتال"– من الأشياء تتداعى ذاوية، ومن ان تمسى "أناى" التى كان يملكها طفل صغير غريبة على. كأنها

كلب صغير. وأرضنا تدور بعيدة عنا ونحن نهوى فى الهوة السحيقة، وما من أرض تحتها. وفى الهوة لا أحد ينجد أحدا لأنه لا أحد يملك أرضا يقف عليها. فكيف وهو يهوى سيثبت نفسه وينشل طال النجدة وذلك بفرض أنه استطاع أن يعبر المستحيل ويوقف تهاويه ليدير إليه رأسه وينصت إلى صرخاته. سقط صوت الإنسان وبعده صوت كل أشياء العالم، ولكن هناك نغمة أخرى مصاحبة فى هذه الأرض الخراب وفى كل هذا الانطفاء القدرى الغامض. الناس لا تهدأ أبدا. ربما تسكن للحظة ولكنها سرعان ما تعود للحركة. وهى تحرك أطرافها دون ان تغادر مكانها بينما تصدر أصواتا غريبة متباعدة وكل منهم يصدر صوتا وحده. إن هؤلاء الأفراد يمرون قريبين جدا من وجهى كما لو كانوا لا يحسون بى، شيء (أو فرد) منهم يجرى وراء شيء آخر، يشتبكان. يتصارعان. شيء يلقى على الأرض متأوه فى استسلام (العناق الجنسى) ينهض الشيء الآخر ويبصق عليه ثم يمشى مبتعدا عنه. ولكن الشيء الراقد على الأرض لا يقول كما فى الأرض الخراب أما وقد بدأ فالحمد لله على أنه انتهى. بل ينسحب وينزوى ويبدأ فى الانتفاخ. ويصدر أنينا ويظهر من بين ساقيه المرفوعتين شيء صغير جدا. وتمتد من هذا الشيء الصغير أربعة أطراف صغيرة جدا ورأس. ويجرى نحوى صارخا مادا يديه: أبت اعطنى خبزا.

بل أن الأم الأرض تضاجع أى رجل، وغشاء البكارة ينتحى لكل غاز طالما أنه سيأتى بالطعام. وتلك النغمة المصاحبة هى نغمة مملكة الضرورة. الندرة القاسية والفاقة، الخبز الذى يأكل الناس المبعثرين المتناحرين، مملكة ما قبل التاريخ الحقيقى للإنسان، مملكة أو ممالك القدرة الضئيلة على الطبيعة والاستغلال والتناحر.

وتمشيا مع ذلك نرى قصص مبروك تنزع المعاناة الشخصية وحلم التحقق الشخصى من دائرة الفرد وترفعهما على نحو مباشر إلى دائرة الكلى الاجتماعي الكونى معا. ولا نرى فى تلك القصص الحياة اليومية حاملة دلالتها أو متحركة بسببيتها الخاصة بل بالمعنى الخفى للعالم (أو غياب واضمحلال هذا المعنى الخفى). فالأفعال اليومية المنكمشة إلى أقصى مدى تعبيرات طقسية مجازية عن معان أصابها الفساد بفعل الخديعة والخيانة فى عالم يحمل وجه يهوذا متنكرا فى بريق ثلاثين قطعة من الفضة. وتلك المعانى العلوية باطنة منذ البدء فى الأصول والجذور، وهى على الأرض كما هى فى السماء. والحركة العامة فى هذه القصص هى حركة انهيار المعنى المتعالى فى تضاد مع حركة "الخلاص"، ولكن الخلاص القديم محاط باليأس فالسماء خاوية مظلمة.

وسيعاد صلب كل مسيح. اما الخلاص الذى يشتاق إليه السرد القصصى فليس قائما على منطق تناسق بين مراتب فى هرم من التبعية، بل على منطق تناسق بين عناصر متساوية فى المرتبة تحيا فى دوائر متحدة المركز. وفى هذا المركز نجد الفرد الإنسانى الحر، ممثل الإنسانية جمعاء فى يوتوبيا الملكية الصغيرة والعائلة النووية بعد انهيار العائلة الممتدة الأبوية وعناصر هذا الخلاص المستحيل صور شعرية مجازية تحلق فوق الوقائع الجزئية والتحولات التاريخية وتبدو كما لو كانت تنتمى إلى جميع الأزمان. وبطبيعة الحال ستكون صورا "عضوية" "حية" "حقيقية" فى تضاد مع "الشيئية" "الألية" "الزائفة للحياة المعاصرة" ولابد أن تكون هذه الصور مسرفة فى نزعتها التبسيطية، فخطوطها العامة هى البراءة والنقاء والخصب والفيض والتألق ومعادلاتها الإنسانية هى الطفولة والبكارة وعناق الأمومة. وتلك النزعة التبسيطية واسعة الانتشار

فى قصصنا القصيرة. كما أن السرد عند مبروك لا يتدفق بحنين إلى الطفولة باعتبارها مرحلة فى مسيرة شخصية محددة. بل إلى الطفولة على إطلاقها، إلى جذر الوجود وبذرته وأصله قبل السقوط. ونجد الأم الأرض، الأنوثة الخصبة بعذوبتها ورقتها، الينبوع الأول المنبثق بالحياة، وتتفرع عنها الحبيبة العذراء، النقاء الأصيل للوجود، جذوة الرغبة وهى تتنفس فى فيض من الهواء السخى، ولأنها فى جدائل شعرها حينما تبتعد تترك طوفانا حارقا من الجدب.

ونلاحظ أن تلك الصور الأساسية جميعا – وهى حالة للروح الفردية ووضع كونى فى نفس الوقت– تتألف من إضفاء الحياة الإنسانية على عناصر طبيعية "أولية"، محدودة العدد إلى أقصى مدى، هى الطين والماء والهواء والنار وتحولاتها المتبادلة. وكأننا نصل مع تلك العناصر إلى المبادئ الأصلية للوجود الكونى والسيكولوجى فى نفس الوقت. وهنا لن نجد اهتماما بالتشخيص السيكولوجى للفرد بل سنجد إبرازا لآليات نفسية باعتبارها ظواهر كونية، وسيكتسب كل شىء دلالته من المستوى المجازى. وسيحدق بنا خطر رفض التطور الاجتماعى التاريخى أو العجز عن رؤيته. وسيحدق بنا خطر آخر هو إغفال "الطبيعة الثانية" الطبيعة التى شكلها التاريخ بالعمل الإنسانى، وهى الجسم غير العضوى للإنسان، أى عالم الثقافة، (الحضارة المادية والعقلية) والوقوع فى وهم أن الفرد يتعامل مباشرة مع السماء والجبال وأعالى البحار لا من خلال "الطبيعة الثانية". وسيترتب على ذلك نزعة ساذجة بدائية تقع فريسة للأيديولوجية السائدة، وتعتبر الوضع البشرى غير قابل للتغيير. وحينما نتكلم عن التطور الاجتماعى التاريخى فى الأدب أى من زاوية الذات الإنسانية فى كليتها وتعدد جوانبها، أى من زاوية طاقات الإنسان النوعية الكلية الخلاقة، لابد من الإشارة إلى الطابع

المتناقض لتطور تلك الطاقات في الأشكال التاريخية المتعاقبة لاستغلال الإنسان للإنسان. فالفردية البورجوازية لم تكن تطورا إلى الأمام على طول الخط وفي جميع النواحي. فهي بالإضافة إلى إنجازاتها الثمينة كانت نكسة في مجال تكامل الفرد وعلاقاته بالجماعة. ولكن بذرة الحقيقة في الأسطورة الرومانسية عن الحياة الفلاحية أو الطائفة الحرفية (حيث كان الفرد يبدو متطورا في اكتمال في عالم أصلي من البكارة والنضارة والتآلف داخله وخارجه مقابل الابتذال السوقي والتمزق والخواء المعاصر) لا تصلح مصدرا لشعر المستقبل فالعلاقات الضيقة القديمة (بما يلازمها من عجز الإنسان أمام الطبيعة في الملكية الصغيرة) ليست إطارا ملائما لتنمية الثروة الإنسانية في عالم اليوم. والثروة الإنسانية هي كلية الحاجات والطاقات والقدرات، للأفراد، هي التطور المكتمل لسيطرة الإنسان على قوى الطبيعة، طبيعته والطبيعة الجامدة غير الإنسانية تطويرا يصبح هدفا في ذاته. وهو هدف يتجه نحو وضع لا يعيد الإنسان فيه خلق ذاته على أي صورة معينة متحجرة التحدد، بل ينتج كليته الإنسانية وشموله الإنساني، ولا يستهدف أن يظل شيئا شكله الماضي فحسب بل أن يكون في مسار صيرورة مطلقة (التشكيلات الاقتصادية السابقة للرأسمالية. لورانس أند ديشارت لندن ١٩٦٤ ص ص ٨٤، ٨٥). فاستعادة الناس للسيطرة على مصيرهم من قبضة علاقات الاستغلال هو الذي يمكن من ازدهار تطور الفرد على نحو كلي متعدد الجوانب ومن ازدهار تنوع ضخم في "الحواس المثقفة" من خلال استخدام الوسائل المتطورة جميعا.

اللغة القصصية :

ونعود إلى قصص مبروك. إن السرد فيها لا يحكى عن تعاقب أحداث بل عن أنماط من المواقف الأساسية، إيقاعية التكرار تتواشج فيها مراحل عمر الإنسان ودورات الطبيعة. ولن نجد خطوطا خارجية محددة ولا تنمية خطية، بل توزيعا للصور الأساسية تبعا لعلاقات التماثل والتضاد فالازدهار والتألق والنقاء والعناق مقابل الإعتام والدنس والنبذ، وتلك الصور ليست علاقات بين معطيات متجاورة فى الزمان والمكان بل هى استعارات تنتمى إلى مستويات مختلفة من التعميم. وتوحي التجريدات المشخصة التى تحشد تجريدات هائلة فى تفصيلات وإيماءات صغيرة عادية بأن السرد واقع فى مد التاريخ وجذره ولا يحكى عن فرد فحسب. والحركة تتجه إلى تغليب صور الهمود والنضوب، فالتألق والازدهار لن يتحققا إلا بخوض معركة مع جيوش العدو حليف الموت. "وما من حرب يمكن كسبها دون ان تخاض حتى نهايتها ... ولكن عليك ألا تحارب وأنت مثقل بصور الهزيمة" (عطشي لماء البحر). وقد كانت صور الهزيمة غالبة. فكيف تلتقى الأيدى وتتشابك السواعد ؟ وهل يمكن لعناق الشاعر محبوبته أن يكون رمزا يستوعب صحوة قوة اجتماعية وفاعليتها المنظمة الواعية ؟. إن الحياة المنزلية الضئيلة البسيطة، الهانئة الهادئة، عش البلبل والوليف والأفراخ والوردة كانت دائما ملاذا وهميا وهربا واقعيا فى الأيديولوجية البرجوازية. وقصص مبروك تصور أن الحياة ليست بمنجاة من التيارات والأعاصير التى تعصف بها، ولكن تعتبرها القش الناعم للعش الذى تذروه الرياح مقياسا لحركة الريح.

إن أمنية التواصل والتحقق يتعاقب توهجها وانطفاؤها فى تنويعات دائرية لأوضاع ساكنة، أوضاع هى لحظات كثيفة تنصهر

فيها المعانى المجازية فى موقف واحد متوتر بالحركة وإن يكن هو بلا حركة، وتلك التنويعات للأوضاع هى أشكال نمو للصور الانفعالية وذبولها، تدفقها وانحسارها احتدام النزاع بين تلك الصور الانفعالية ومواقعها النسبية، والدرجات المختلفة لنصوعها ودكنتها، ولا تتألف من خطوط خارجية.

ولذلك تجئ اللغة القصصية ساحة صراع بين الأطر الشكلية والقوالب الاستدلالية المتداولة والصيغ اليومية المكررة وبين حدس مباشر للأعماق فى لغة تصبح جزءا من باطن الوجود النفسى والكونى، هى لغة النبع وأمومة الأرض وتأجج النار والتألق والشفافية والانطلاق وهى كذلك لغة النضوب واليتم والرماد والكدر والقتامة والنزف..

ويحاول السرد تحقيق ذلك بأن يحاكى "اللغة" التى ينطق بها الجسد الإنسانى وتنطق بها العناصر الطبيعية التى تماثل الجسد الإنسانى فى قدرته على الإفصاح، لغة الاستجابة للموقف فى انتحاءات وحركات وهيئات بسيطة تبدو امتدادا مباشرا للكائن، كما تصبح الألوان والصفات الرمزية مثل الزرقة أو العذوبة أو النقاء جواهر واقعية فردية. ويحاكى السياق بالاستثارات الحركة الصوتية المباشرة، لغة الصيحات والصرخات والبسمات وتساقط الدموع وتقطيبات الوجه واليد الممدودة بالرجاء والأصابع التى تتفتح لتلتقى بأصابع أخرى، وكذلك الخرير والدوى وعزيف الريح.

إن وجه العالم مغطى بعلامات ناطقة، وتكشف الأشياء عن قواها الداخلية بعلامات من تشابه وتعاطف أو تغاير وتنافر على أساريرها الخارجية ولكن الطريق إلى العلامة وعر متعرج ملتو، وما أكثر ما يكون التعبير قناعا، والكلام صمتا فى العالم الحرباء الذى يستحيل طينا بالمطر وتلالا جدبة بالقيظ، وقمحا أو قطنا أو توتا

حسبما ينافق الفصول !! واستجابة العالم لحناننا كرأس طفل قد تكون استجابة رأس عاهرة لا تعرف إلى الحنان سبيلا. وثمة محاولة يبذلها السرد لعبور الهوة بين حدود اللغة وحدس الوجود، وللإفصاح عن معنى الأوضاع الإنسانية التى تعجز الكلمات عن نقلها. وهل يستطيع حبر الطباعة أن يكون أكثر من حبر طباعة!! بل يزعم السرد أن الطفل فقد براءته مع تعلم حروف الكتابة لغة الأكذوبة والنفاق الرسمى المقنن وتزييف العلاقات. وإن مساحات "الفراغ" فى السرد والتى يتركها شاغرة بين قوسين، هى المسافة بين المسميات الجاهزة والمعانى المعدة سلفا وبين الالتباس والحيرة فى صميم التجربة والوجود. ولكن "الفراغ" الذى يتمتع بدهاء لا يزيد عن دهاء الأطفال فى لعبة الاستخفاء يعرف السرد مكانه بالضبط ويحدده بقوسين !! أيعرف الشاعر حقا عنوان التجربة المراوغة التى ستقتعصى على التوصيل بين التجارب التى استطاعت اللغة اقتناصها ؟.

لقد يخلى الكاتب في آخر قصصه عن الأماكن الشاغرة التي تبدو تلعثما أو إخفاء للكلمة المناسبة التي يمكن للقول الإستدلالي أن يستنتج نطاقها.

ونلاحظ أن الصرخة والضحكة والزفرة وما هو شبيه بذلك ترد في إطار غنائي موسيقي من توكيد النبر او خفوته فهناك النداء والاستفهام وارتفاع الصوت بهما، ثم التحول المباغت عن انتظار الإجابة وهناك التماثل الإيقاعي للكلمات، والتشابه أو الاختلاف في طول العبارات وتركيبها. لذلك نجد "صوت القول" موضعا للإبراز المنفصل الى جانب مدلوله الإشاري. وكل ذلك يستهدف وقعا مباشرا للصياغة الغوية مماثلا لما تحاول نقله ويعجز عنه القول اليومي والقول الاستدلالي.

فالنمـــوذج اللغوي المفترض هنا هو نموذج لغة كلماتـــها هـــي عين التجربة التي تفصح عنها وهي عين الأشيـــاء والحركـــات فـــي الانفعـــال المتجسد، وانها لغة تفرعت عن نمـــوذج أصلـــي وحداتـــه وسائل جسمية عضوية يتملكها كل فرد على نحو مبـــاشر، حركـــات اليدين والرأس، وتغيرات في أوضاع الجسم وأصوات حيويـــة مثـــل الصرخة والزمجرة والتنهد. لغة الحياة قبل أن يصوغـــها التـــاريخ. ومـــا أقل ما نجد النموذج الآخر للغـــة لحيـــاة الواقعيـــة أى تـــراث التغيرات المتعاقبة في بنية التواصل، لغة الفعل الإنســـانى والتـــاريخ. إن تلك "اللغة" الأخرى لم تبدأ بصرخة أو صيحة أو نداء بل بـــالعمل الاجتماعى المنتج الخلاق الذى طبع منطقه على الأدوات والوســـائل وموضوعات العمل ونتائجه، وكلها ليست أشياء "طبيعية" بل تجسيدات لأنماط مشتركة من الفعل والفكر (ويشمل الفكر هنا الحس والانفعال). لذلك ليست لغة التواصل الإنسانى كلمات فحسب، بل هى لغة عمـــل وفكر مجســـدة كذلك فى الحجر بيوتا ومدنـــا، وفـــى المعـــدن أدوات وآلات ومنتجـــات، وفى طرائق الســـلوك نظمـــا للعائلـــة والحيـــاة الشخصية وأشكـــالا لممارسة الحياة السياســـية، وفـــى مـــواد الفـــن ووسائطـــه (وتدخل أصوات اللغة ضمن تلك المواد كتبـــا ولوحـــات وتماثيل ومعابد وقطعا موسيقية. والحديث هنا عن اللغة ليس حديثـــا عـــن معجم المفردات وقواعد التركيب بل عن نسق مفتوح متجدد من الرموز، ورمزية هذا النسق هى "ذات" الفعـــل الإنســـانى الخلاقـــة. وموضوعه (الذى لا يجده ذلك الفعل جاهزا أبدا) فى نفـــس الوقـــت. فتـــلك "اللغة" قوة توحيد وصراع وتنظيم للأفعال وإعادة لتنظيمها على أسس جديدة، وتوجيه للفاعلية وخلق للوعـــى ولأنمـــاط الاســـتجابات النفسية.

ونجد مبروك الآن يحتفى فى كتاباته النقدية بالواقعية الاشتراكية أى بالتفاعل بين لغة الحياة الواقعية والحياة الواقعيـــة للغـة واللغـة باعتبارها واقعا.

ونرجو أن تكون رحلته الطويلة فى البحث والمعاناة قد وصلت به إلى منعطف جديد يكون بمثابة الطريقة الصحيحة لإلقـاء السـؤال عن كتابة شعر المستقبل.

قــراءة فــى المجموعــة القصصيــة

عطشــى لمــاء البحــر

محمود عبد الوهاب

عندما نشرت قصص هذه المجموعة فى عدد من المجلات الشهرية فى الستينات شدت الانتباه بزخمها الشهوى، وعنفوانها العاطفى. برحابة آفاقها ودوى إيقاعاتها. بجرأة تحررها من أسر المألوف، والمشروع، والمباح، وتدفق لغتها بصور مفعمة بتيارات شعورية هادرة، وعميقة الغور. وقد تراوحت الانطباعات الفورية عنها بين حس تقليدى محافظ يأسف على تردى أدب الشباب نحو أشكال من القص تجمع الشاذ والمتنافر، والغريب، وتبلغ من الغموض حد الإبهام جريا وراء ادعاء العصرية، وبين محاولة وضع التجربة تحت لافتات لا تغرى بالبحث والدراسة، وكأنها قامت بالتوصيف اللازم وانتهى الأمر : هذه قصص تتضمن تجربة جمالية متفردة أو هذه قصص تحاول أن تقسر اللغة على الإفصاح عما لم تخلق للإفصاح عنه.

وقد حاولت بعض المقالات النقدية تفسير القصص من منظور فنى يرى فيها نزوعا أدبيا لاقتفاء أثر السريالية التشكيلية أو تقليدا قصصيا لمسرح العبث، وحاول البعض رؤيتها من منظور نفسى يحيل التجربة الفنية إلى عالم اللا شعور وأسرار العقل الجمعى او من منظور بيئى واجتماعى يتقصى فى القصص أثر ما أثبته المؤلف عن ظروف ميلاده، وطفولته، وصباه وأنواع المهن التى مارسها وموقع أسرته الطبقى .. الخ.

كما حاول البعض تفسيرها باعتبارها مع إبداعات الجيل تعبيرا عن رفض الذات الجماعية، وتمردها على الواقع السياسى الذى أفرز هزيمة سنة ١٩٦٧.

لكن محاولات التفسير السابقة مع تنوع اجتهاداتها ظلت قاصرة عن الإحاطة بكل الأبعاد الفكرية، والجمالية للقصص المنشورة، والآن، وقد تجمعت القصص فى كتاب هل آن الأوان لقراءتها قراءة تتقصى مفردات أبجديتها الفنية وحدها ودون إقحام لأساليب فى التفسير تبحث فى القصص عما يؤكد صحة مناهجها قبل أن يعينها تحقيق الكشف وإزالة الغموض وامتلاك السر ؟ هل آن الأوان للبحث عن الدلالة الكلية لكل قصة والدلالات الكلية لمجموع القصص كما تتجلى فى ظلالها وأصدائها المتداخلة ؟.

عرف قراء القصة المصرية القصيرة عبر تعاقب أجيال الأدباء ألوانا من القصص : قصة الوعظ أو تأكيد الحس الأخلاقى، وقصة البرهان على صحة فكرة، وقصة الارتقاء بأواصر الانتماء العائلى أو الإقليمي إلى مستوى الانتماء الوطنى أو القومى وأخيرا قصة الانتقال من منظومة قيم تعمل على تأكيدها المجتمعات الإقطاعية أو البرجوازية إلى منظومة قيم الولاء للقوى الاجتماعية العاملة، والمبدعة.

وفى كل هذه القصص كان الأدباء مع تباين مواقعهم على درجات الموهبة أو الوعى الفكرى أو التمرس الفنى يحرثون أرضا اكتشفها وحررها لهم أجيال من الأنبياء، والفلاسفة، والمنظرين الثوريين. إن ما يتمايز به الأدباء على هذه الأرض هو عمق انتمائهم لأيدلوجية ما ومدى قدرتهم على بث الإيمان بها واعتناق

اليقين بقدرتها وعلى رد ما يموج به الواقع - على السطح - من فوضى أو اختلاط إلى نسق متكامل من القوانين.

وفي هذه الألوان من القصص يكون التناول النقدى تقييما لمدى وعى الكاتب بجوه الرؤية الشاملة التى يعتنقها ورصدا لقدراته على تجسيد هذه الرؤية فى عمل فنى.

وفى هذه الألوان من القصص قد يكون من المفيد للناقد- أحيانا - البحث عن دلالات العمل الفنى فى الظروف التاريخية (الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية) لكاتب، وفى تكوينه النفسى، والثقافى، وفى الملامح الجديدة للحساسية التى يصنعها مع أبناء جيله.

ولكن كيف يكون الاقتراب النقدى من كاتب مثل محمد إبراهيم مبروك تجاوز مستويات الإنتماء إلى بيئة أو طبقة أو وطن طموحا إلى تقمص روح الإنسان فى مواجهة العالم؟ وبأى معيار يتم تقييمه، وهو الرافض لرؤى تجاوزها العصر، والواعى بقصور الرؤى - التى عرفها - عن احتواء العالم، وعجزها عن إعادة السلام إلى روحه.

إن الهدف من الكتابة هنا ليس الدعوة لما تم اكتشافه، ولكن الإعلان بكل درجات الصوت، والصمت عن عذاب البحث عن يقين.

إن التناول النقدى المتسق مع تجربة فنية لها هذه الخصوصية هو قراءتها بروح الرغبة فى تجاوز المطروح، والمعروف، والراسخ، واستشراف ملامح عالم ما تزال عناصره تتفاعل فى رحلة الانصهار، والتشكل طموحا إلى بلوغ تمام التبلور والاكتمال.

يتجسد العالم الفني لمجموعة عطشى لماء البحر من خلال التداعيات النفسية، والفكرية، والوجدانية لبطل واحد يحيا تجربة تتكشف أعماقها الروحية عبر القصص المتعاقبة وكأنها مرايا متعددة

الزوايا لتجربة فنية واحدة : لا يحمل البطل اسما ولا تحمل ملامح شخصيته ما ينبئ عن بيئته أو تكوينه النفسي أو الاجتماعي أو الثقافي. إن أهم ما يميزه إنه بالرغم من بلوغه عمر الرجال لكنه لا يزال يحمل في صدره قلب طفل : ولع حسي باللذة، والنشوة معا .. تهيؤ دائم للفرح، والدهشة، والانبهار.. جرأة على اقتحام الممنوع، والمحرم، والمقدس. انخراط في البكاء عند الحس بالإحباط دون خجل من الدموع وقدرة على الانفعال بعالم صنعته القدرة على التخيل، والتشخيص.

لكن هذا الحس الطفلى المتوثب للحياة والنمو يزلزله موت الأب "لكنهم داهمونى بالملابس السوداء ورنة الندب عالية محروقة وهم يحملون لى ميتا" (مسيح المراسيم).

وبموت الأب واهب الخير، ومانع الشر، ومستودع الحكمة، وكاشف المجهول تتقوض أعمدة الهيكل الدينى الشاهقة، والراسخة، ويتقوض معها الإحساس بالأمان إذ يرتطم القلب المترع بالشوق لأفراح الحياة ببشاعة الموت. فى جحيم أبد الرحم يروع البطل حين ينقض الموت على الابن الذى وهبه حياته. إنه ينخرط فى تيار من السخط الثائر على الأب الغائب (وكأنها ضراعة مقلوبة) لأن غيابه خلع عن الموت قناعه المستأنس الأليف.

إن بطل القصة يحاول إعادة وحش الموت المطلق السراح إلى القفص التراثى القديم لذا تتعالى حارة مناجاته للأب.

"لقد صعدت أكثر الجبال وعورة لأتحدث معك ربما كنت قلت لك عن كل ما أحببته. فيك من قبل، ومنعنى عداؤنا من أن أبوح لك به، وكل ما كرهته كذلك، وكنت أحب أن تعرفه حتى تكف عنه، وتكون رائعا كما أريدك".

لكن ضراعة الروح الملتاعة تتهاوى على صقيع الصخر المائل : انهار الهيكل القديم واندلع الموت من الداخل مثل حريق يبدأ من قلب القلب، وتتحول الأشواق العارمة لإخصاب الحياة إلى بؤر من المرارة فى صحراوات الجدب، ويكتنف العالم صوت البحر، وكأنه هدير العدم المتربص، ويتهاوى إحساس البطل بالضآلة إلى حد الامتلاء بكونه محض بصقة، وتمارس حواسه الحياة بآلية التكرار تتدحرج القدمان وتتأرجح الذراعان، ويزدرد الفم الطعام فينزلق إلى البلعوم. تم المرئيات، وتنهمر الأصوات، وتهب الروائح، وتتحول المخلوقات البشرية إلى دمى بلهاء يتوالى التصاقها، وانفصالها ثم توالدها فى تعاقب وإصرار فارغين من أى معنى.

كانت جحيم أبد الرحم هي قصة مصاولة الإحساس المكابر والمتراجع بوجود الأب والامتلاء بدوى تصدع الهيكل المنهار.

لقد كفت السماء عن النبض، وبدأت مسيرة اليتم على الطريق الكونى الموحش، والمفضى إلى هاوية الضياع.

لكن رؤيا تجتاح البطل فتنتشله من قاع الاستسلام للموت : أن يموت الأب لا يعنى أن نستسلم للموت بل يعنى أن نحتشد لقهره بان يأتى كل منا بالابن فيأتى لنا الابن بالأب مرة أخرى ليحل فينا لكن الابن الذى سيصنع قيامة الأب فى قلوبنا لن يكون ابن الجسد الذى تصنعه شهوة العناق بل سيكون ابن الحب.

إن تقارب قلبين، هو إيذان بشروق شمس الوجود الجديدة، ومن القاع الموحش الكئيب فى صحراوات الجدب سيرتقى الحبيبان على درب الحب حتى يبلغا درجة الإحساس بالتلاشى فى جسد الطبيعة الأم وحينئذ سيكون الحب فى قلبيهما هو "ما يتوهج فى الشمس، ويصفو فى الزرقة، ويصلصل فى جريان الأنهار،

ويخفق فى سماء الأجنحة، وبعد كل جوع يأتى أعياد حصاد" (مسيح المراسيم).

إن الحب هو ما يتوج الحبيبة بهالات الأمومة الإلهية المقدسة، وفى حضنها الرحيب، وبين ذراعيها يخلع يتيم الأم ذله، وبؤسه، ويتمه، ويتضرع إليها "الطرق متوحشة يا أماه ولا أحد غيرك مد لى يدا فى هذا الليل ودعانى لأحتمى بحوائطه. لا تتركينى ثانية يا أماه" (شلالات الكهف).

لقد دأب العالم منذ فجر التاريخ على عبادة القوة، والمال لكن ماذا حقق بتر سانات السلاح، وقناطير الذهب محض أمجاد زائفة إمبراطوريات شاسعة نعم لكنها لم تعرف وجه الشمس الذى يزدهر بالحب، إن ثمة إمبراطوريات يمكن أن تتحقق بالحب لا بقوه السلاح كالإمبراطوريات التى كانت تتعرى لأنها عشقت النبى (نزف صوت صمت). بدأ البطل رحلته الوجودية باحثا عن الخلاص من وطأة الإحساس الجاثم بالموت المتربص لاهثا لاستعادة التوافق مع العالم لكن فرحة تحوله من فرد ضائع إلى إنسان وجد أخيرا معنى لوجوده دفعه إلى الوهم الأعظم إذ يتصور إنه يحمل للجموع بشارة الخلاص :

"ارفعوا عيونكم واملأوا الأشرعة بأفق العالم .. ارفعوا عيونكم وانشروها إلى أقصى ما تستطيعه الأجنحة .. سنأتى بأطفال لن تموت (مسح المراسيم).

لكن البطل ما أن يهم بنشر رسالة الحب قاهر الموت بين الجموع حتى يتوقف فجأة فى سقوط مفاجئ "والصمت يطلق صرخة فوق الخضرة التى أخذت تحترق وفوق النبع الذى غاضت منه المياه وفوهته تتلظى تحت الجفاف الحارق" (الشلالات).

"لقد أوصد باب الحبيبة بلا سبب" (مسيح المراسيم) ضاعت ومعها الابن الأمل وأسفرت ليالى الانتظار الطويلة عن وجه الخواء (نزف صوت).

لقد غاضت فرحته الطفلة حين داهمه وجه السؤال الكالح: قد ننتصر بالحب على موت الجسد، ولكن ماذا يجدينا الحب، ونحن نموت فى الحياة هل سنواصل الحب، ونواصل معه "الاشمئزاز من المحيطين فى الطرقات بعد أن يأسنا من إمكان انتشالهم إذ تيقنا من كون العالم لا يعدو كومة من حطام ؟ هل سيزيل الحب من ثوب الأم أدران القذارة ؟ هل سيواجه أمواج الغم الرازح على فقر البيت ؟

لقد أدرك النبى التعس أن ازدهار الروح على الصعيد الفردى لن يغير شيئا من بؤس العالم، قد يحرر الحب أرضا تتسع لقدمى إنسان، ولكن حتى هذه القطعة الضئيلة المحررة ستدور بعيدا عنا، "ونحن نهوى فى الهوة السحيقة التى ليست تحتها أرض ليظل المحور الوحيد الذى يدور حوله العالم هو السيخ الذى يتقلب البشر فوق جمراته الجحيمية".

كانت جحيم أبد الرحم هى قصة التيقن من موت الأب، وكانت ثلاثية النزف، والشلالات، والمسيح هى قصة التيقن من موت الابن فهل كانت عطشى لماء البحر تحمل بشارة الخروج من دنيا البشر الهائمين فى الكون الأبد ؟.

فى عطشى لماء البحر نقرأ تجربة حب محبطة تدور أحداثها فى تلك الأيام التى شهدت أحداث ١٨، ١٩ يناير سنة ١٩٧٧ لكن تجربة الحب هنا لم تكن خروجا من معبد تصدعت أعمدته، وطموحا إلى بناء قدس أقداس جديد. إن البطل فى القصة لا يكف عن محاولة استعادة وجه الحبيبة المختفى خلف قناع حجرى لا

ندرى من أين يستمد صلابته : هل هى الرغبة فى التضحية بـالحب على مذبح الأمومة ؟ هل هى الرغبة فى التفرغ لدور سياسى ما ؟ هل من الآخرين (هكذا دون تحديد) الذين يطوقونها دائما ؟.

وإذا كانت الأسوار ترتفع بينهما بهذه الصلابـة الصخريـة فكيف إذن حدث أن انهارت من قبل، وتلاشت المسافات حتى نعمـا بساعات من التوحد الكامل ؟.

لا يقدم الكاتب إجابة لهذه الأسئلة إذ يعكف على سرد الوصايا التى ينبغى على العاشق أن يحرص عليها إذا أراد الانتصـار علـى جيوش العدو (هكذا أيضا دون تحديد) دون أن نرى علاقة بين جيوش الأعداء والأحجار الصخرية التى أقامتها الحبيبة تلك التى رفضت نهر الحب واختارت صحراوات الجفاف وكأنها عطشى لماء البحر ؟.

يبدو بطل المجموعة (فى قصص الستينات) وكأنه احتوى فى قلبه كل أطوار الوجود الإنسانى : لقد تجاوزت ذاته الفريـدة حـدود البيئة الخاصة الجغرافية والاجتماعية وحدود الزمان الخاص التاريخى أو الحضـارى. لقد ولد فى وطن هو العالم بأسـره، مـن رحـم أم هى كل إنسانية الماضى، بقلب يعشق عذراء وحيدة هى كل إنسـانية المستقبـل، ببصيرة تجوب آفاق الأزل والأبـد، بذاكـرة يمكنـها أن تتوغل بعيدا لتتقصى من التاريخ البيولوجـى البذور الأولـى لسـر الموت "إنها تتراجع للوراء أقصى الـوراء" عـبر تدفـق الظلمـة، وشلالات الزمن المشتعل لترى أضواء القمر الشاحب علـى عذريـة الرمال المترامية البيضاء، وهناك تقف لتتعقب السر فى أرنب بـرى يعدو فى الضـوء أو فى التواءات أفعى أو فى رحلة طـائر وحيـد يهاجر فى صمت عبر كل المسافات الهائلة" (جحيم أبد الرحم).

نشأ بطل المجموعة بين هياكل التصورات المثالية للعالم لكن الأعاصير تهب من معارف العصر على وعيـــــه، وقلبــه فتتصـــدع الأعمدة الراسخة.

لكن البطل، وهو يعبر فيافي العالم المنفى كان يتجـــاوز آلام ذاته المرتعدة فى قاع الكون الهائل ليطل من محنته الوجودية على آلام البشر إنه فى "النزف" ابن الشعوب المقهورة تحـــت ســنابك الغـزو الأجنبى الذى وطأ جسد الأم، وأنتهكه بعد أن خر جسدا مطعونا بـــلا يدين"، وهو فى المسيح ابن الجموع البائسة منذ فجر التـــاريخ التـــى عانت وجودها، والشمس تتسلط عليها ربما قبل، وجود الزمن الـــذى نعرفه، وهو فى الشلالات أحد اليتِـامي المأســورين خلـف أســوار الجهامة، والغلظة، والقسوة.

لقد استشرف البطل تخوم الانتماء إلى القوى الاجتماعية التى تئن تحت سطوة الظم، والبغى، والتسلط، ولكن دون أن يرقـــى هــذا الشعـــور من الصعيد الأخلاقى إلى صعيد الوعى الذى يضئ طـــرق النضال ضد القوى التى تظلم، وتبغى، وتتسلط لتراكم امتيازات مواقع طبقية تحرسها بأسلحة القمع وأجهزة المسخ، وفرق التضليل.

لقد احتوت عطشى لماء البحر على إشارة غامضة لدورمـــا للبوليس السياسى فى أحداث القصة مما يعطى انطباعا بخروج الكاتب من دائرة الهموم الوجودية ذات الهامش الأخلاقى إلى دائرة الوعـــى الاجتماعى، والسياسى لكن القصة باستثناء هذه الإشارة الغامضة لـــم تكن إلا قصيدة رثاء لحب يموت تقتله الحبيبة مـــع ســبق الإصـــرار لأسباب غامضة.

لكن قصص المجموعة حتى، وهى أسيرة طابعها الوجـــودى تظل قادرة على أن تكشف بضوء ساطع لأولئك السائرين إلـــى درب

النضال أبعاد تجربة انسلاخ الذات من أسر الموروث الموغل في أعماق الوعى لتواجه العالم، وهى تتمزق بين حنين لاستعادة الأمان الضائع، وشك فى صلابة الهياكل البديلة، وحتى تسقط عنها كل الأوهام، وتكتمل قدرتها على التحديق بجسارة فى وجه الكون حتى وهو يستحيل "إلى جليد يشحب تحت الضوء الأبدى الساكن حيث ستدفن كل الأصوات، وتدفن كل رغباتها معها، ولحن الجنازة يتلاشى،ويظل محلقا صوت إيقاع واحد معتوه. لا ينتهى. لا يبدأ. لا يسمع". (مسيح المراسيم).

إن الامتلاء بهذه التجربة الروحية بكل مكابداتها هو السبيل الوحيد لاكتمال تحولات النمو، وتفاعلات الانصهار، وتمام الخروج من ظلام احتراق الأنا الفردية،والتهيؤ لاستقبال الفجر الطالع من دمارها المحترق. فجر الانتماء الوطنى، والقومى، والاجتماعى. يتجاوز محمد إبراهيم مبروك أشكال القص السائدة فى الخمسينيات (القصة الصورة أو الشخصية أو الفكرة أو البرهان أو القيمة الأخلاقية .. الخ). ويطفر بالقصة المصرية القصيرة من قصص التتابع المنطقى أو الشعورى داخل الإطارات اللغوية المتداولة إلى مستوى القصة الرؤيا – الشهادة.

إنه يتخلى عن لغة السرد التقليدية إذ يكتشف قصورها عن تجسيد تجربته الفنية بكل جيشانها، وعنفوانها واحتدامها، وتلاطم تياراتها الشعورية. إنه يكتب بلغة جديدة تنتقل بحرية عبر أزمنة الوجود الإنسانى المتعدد الأبعاد، ومن الذاكرة ذات الطبقات الحضارية المتراكمة يصنع حلما شديد الكثافة ثرى الدلالات تتجسد فيه المشاعر الغامضة والرؤى المبهمة فى تيارات من الصور الناطقة بتفاصيلها الحسية وأضوائها وظلالها اللونية، والصوتية.

يحتوى تلك التيارات الشعورية شكل فنـــى أقــرب للقوالـــب الموسيقية : تبدأ القصة بموجة شعورية أترعت بإيقاعـــات الهزيمـــة، واليأس تنتقل منه إلى عالم الطفولة بكل مسراته ومباهجـــه، وتوثبـــه للنمو ثم تتوالى إيقاعات القلب المروع بتصـــدع الــهياكل الراســخة. الخائف إلى حد الهلع من الموت، المتلهف لاســتعادة الأمـــان القديـــم الصارخ دونما صوت إذ تغور الصرخة فى خواء التسليم بلا جـــدوى الصراخ، وبعدها تتفجر ألحان الحب وكأنها أمطار البعث، وتشتعـــل الظلمـــة بأضواء من شموس وأقمار ثم يرين الصمت الكونى الأبـــدى إذ تحترق الشموس، وتبلغ الأقمار محاقها الأخير، وحينئذ يتعالى إيقاع الهزيمة مرة أخرى تواكبه هذه المرة أصداء انهيارات العالم الجديد إذ تتقوض أعمدته فيتهاوى فوق الأطلال.

إن الشمول الإنسانى فى تجربته الفنية يغريه باستلهام تجربة المسيـــح فتتحول مفردات القصة الإنجيلية "الأب. الابن. العـــذراء. الصلب. الزيتون. القيامة. البشارة" تتحول فى المعالجة الجديدة إلى قصـــة نبى معاصر كان يحمل للعالم بشارة الخروج من الجسد الموت الملك إلى القلب الحياة الملكوت لكن المسيـــح الجديد إذ يكشف قصور نبوءته بؤس العالم يقبل بإرادته إن يرفع لترشق المسامير فى راحتيـــه المشدودتين لكنه يحرص قبل موته أن يوصى كل اليتامى بأن يكفـــوا عن انتظار الأب، وأن يكونوا – هم اليتامى – آباء أبنائهم.

[يقحـــم مبروك فى النسيج الإنجيلي مفردات مـــن التصـــور الإسلامـــي لقصة المسيح (عندك نخلة فهزيها) وهـــو هنـــا ينســاق للتداعيات الذهنية الدخيلة التى فرضت نفسها تحت ستار مـــن تشابـــه المفردات].

لكن مبروك لا يصبر فى بعض قصصه على صياغة الشكل القـــادر على احتواء التجربة داخل نسيج تكونت عناصره من مفردات الخامة التى يحاول تشكيلها إنه ينتقل فجأة من الخاص إلى العام.

فى جحيم أبد الرحم نتابع وقع الموت علـــــى أب وأم غــــاب ابنهمـــا ثم دعيا للتعرف على جثته، وفى حين نتوغل مع الكاتب فـــى أعماق الجرح الناشب فى قلبيهما نراه يتحول تحت وطأة التداعى غير المنضبط للتأمل فى صور الموت المتعددة البعيدة عن عــــالم القصـــة (امرأة تحترق أو تقتل تحت عيون أطفالها وأبناء ينتظرون آباءهم ثـــم يجدونهم قتلى تحت العجلات وأباء خرجوا بعد أن وقـــف الضــرب المجنون يبحثون عن أبنائهم. الخ).

وفـــى مسيح المراسيم يقدم مبروك صورة لــــلأم تضـــافرت تفاصيلها فى خلق حضور كامل لأم حقيقية ينعقد فوق رأسها الدخـــان الأسود المتصاعد غزيرا من الموقد. قبضتاها مبتلتان مــــن غســيل القدح الصدئ ولأنها تجففهما فى جلبابها لذا فإن رقعتين على فخذيـــها قد تلوثتا إلى درجة القذارة .. صوتها خافت، وصمتها ذليل، وحسرتها لا تنقطع، وخطواتها بطيئة وكأنها أرهقت من دفع أمواج الغم الرازح.

لكن مبروك لا يعكف على إعطـــاء الشخصيـــة مـــا يرتفـــع بملامحها النفسية .. والفكرية، والوجدانية إلى مســـتوى الرمـــز أنـــه يطـــرح عـــن كاحله عبء التجسيد الفنى قفزا إلى الكشف المبـــاشر عن المعنى الشامل الذى تجسده الأم.

"لقد دهشت لرؤيتها على هذه الحالة التى أوشكت أن تكـــون أبدية حاولت أن أتذكر متى بدأت تجلس هكذا ربما قبل وجود الزمـــن الذى نعرفه أو المكان الذى يأسرنا أو الشمس كشمس وأخذت أعـــانى رؤيتها وهى توجد، والشمس تتسلط عليها، وتحركات الدوذ المولـــود،

وكأن مبروك يقول للقارئ دون مواربة أنا لا أعنى بالكلام عـــن الأم أما حقيقية، ولكنى أرمز بها للإنسانية كلها.

فإذا أضفنا للانتقال من الشخصية إلى دلالتها العامة التخلـــي أحيانا عن تجسيد التجربة بالفن والاكتفاء بـــالتحليق حولـــها بـــالفكر، وغياب بعض التفاصيل الضرورية أو انطماســـها وافتقـــاد بعـــض الفواصل الفنية التى توحي بالانتقال عبر الأزمنة وتضمن جمل الحوار أحيـــانا لإحالات مبهمة فلعلنا بذلك نكون قد أحطنـــــا بأســـباب مـــا يكتنف القصص من غموض قد يسبب للقارئ بعض العســـــر فـــى التلقي. وأخيرا لعل الذين تصوروا أن قصص مبروك تحاول أن تقسر اللغـــة على الإفصاح عما لم تخلق للإفصاح عنـــــه قـــد اســـتدرجوا لعبارات تضمنتها القصص ساهمت فى إرباكهم، والتشويـــــش علـــى محاولاتهم تقصى دلالتها الكلية مثل "ملعونة هذه اللغـــة التـــى بـــدأت تموت هى الأخرى"، "وثقت الآن أنى عاجز عن نقـــل هذه اللحظـــــة، وأن حبر الطباعة لا يمكنه أن يفعل أكثر من أن يكـــون حبر طباعة". "المساحة الخالية بين الأقواس المفتوحة هى مساحات صمـــت تتخلـــل الكلمات، وهى ليست فاصلا بل امتلاء غير مرئى بكل ما تعجز عنـــه اللغة المنطوقة المحيطة بها".

كان مبروك يكتب بلغة فنية تســـتمد أبجديتـــها مـــن علاقـــة الصورة بالفراغ، وعلاقة الصوت بالصمت فى نسيج تشكيلى، ومـــــ وسيقى يحقق لرؤيته أرفع مستويات الحضور التعبيرى، والجمالى فما معنى الحديث إذن عن موت اللغة وعن حبر الطباعـــة، وعن عجـــز اللغة المنطوقة وكأنه لا يزال يستخدم لغة النثـــر العادية التى يـــدرك أى كاتب عجزها، وقصورها حين يحتشـــد لتجسيد رؤيته طامحا لأن يتلقاها القارئ، وهى فى أوج نقائها، وتفردها.

لقد استطاعت لغة مبروك الفنية أن تحقق لرؤيتـــه تفردهــا وتميزها، وخصوصيتها، والشكوى من عجزها لا يعنـــى إلا قصــور وعيه عن الإحاطة بأسرار لغته الفنية وافتقاده خبرة التمــرس علـــى تشكيل خاماته وانقياده لجموح انفعال بالتجربة لم يجد ما يقاومه مـــن قدرة على الكبح.

محمود عبد الوهاب

" عطشى لماء البحر أو.. جحيم أبد الصوت"

فى البدء كان الصمت، حتى اللا شئ لم يكن، فقط الصمت، أما الكلمة فهى الغم، الفهم المبتر الخطر، ويقين العجز عن الرؤية:

"لا يجوز ألا تشغلنا أية حركة لا جـدوى منـها. إزاء الـ ( ) وحسب، نحاول السكوت، ونرى. يجـب أن نـرى. نحـترق بالرؤية ويشتعل الـ ( ) فى عيوننا. بل فى داخلنا." ص ٧٨ وكلمة بعد أخرى، يبشرنا "محمد إبراهيم مبروك" بجنة الخرس المشتهى حلو الـرنين، لندور معه فى فلك رؤيـاه الشهويـة الكثيفـة، مـأخوذين بـدوراننا، وناقمين على مبدأ صحو الصوت الكاذب، وزاهدين فـى كل معرفة نعرف سلفاً أغلاطها وانحيازاتها وتناقضاتـها ونقصانـها المحتوم:

"أتحدى العالم لو حدث ورفعنا جـدران الاحتمـاء المزيـف وأبوابنا الوهمية أن يملك أحد الجرأة على الاحتفـال بـأى حـدث". ص٨٠.

والآن، ماذا يمكن للقارئ أن يجد فى "عطشى لمـاء البحـر" أبعد من هذا الموقف الإنكارى الواعد بعدم من نوع رقيق جداً وشفيف جداً؟

يلقى بنا هذا الكتاب الصادم إلى غيابات عـالم تتبـدى فيـه العلاقات المألوفة والأحداث العادية المكرورة كنسيج شبحى بـالرغم من عضويتها وكثافة حسيتها التى توشك على الانفجار فى وجه مـن يطالعه. ويلوح لنا ذلك العالم متماسكاً وفق منطقه الخاص ضد غرابته وتأبيه على التفسير. إن الواقع والحوادث السردية المبثوثة فى الأركان المخفية من نصوص هذه المجموعة الفريدة، وكذلـك الاستبطانات اللانهائية والخيالات الشهوية التى تصرّح بها الكتابة، تبدو جميعـها،

عند مستوى بعينه، مترابطة ومتناغمة بما هو أكثر من ميكانيزمات الأدب السيكولوجي؛ أعني بنضال الذات في سبيل التوكيد الميتافيزيقي:

"كنا عاريين عندما اختبأنا في ليل شعرك وانزلقنا بنعومة للنوم حتى فزعت على الظلمة المطبقة تخفق فوقنا باتساع السموات كجناحي خفاش وهم يندفعون نحونا بالسلاسل تصطك في أيديهم بعنف لتسقط أصواتها على عرينا فأصرخ لائذاً بك: ضميني" ص١٣٤.

وهكذا توجب علينا عند انتصاف ستينيات القرن تقريباً - غير غافلين عن الإرهاصات الخجول طوال عقدين سابقين من الزمان - أن نتنبه للقيمة المطلقة التي يختزنها الصمت من رحم الكلمات، وللأثر المدوّم لانطفاء الصوت في المصائر والأرواح. ومن رمزية "نجيب محفوظ" الجبرية إلى سيريالية "محمد حافظ رجب" التقليدية، مروراً بوجودية "إدوارد الخراط" الحسية الميتافيزيقية، ومشهدية "إبراهيم أصلان" الضامرة الوصفية، وتاريخية "بهاء طاهر" فوق الزمنية، وواقعية "صنع الله إبراهيم" التسجيلية، وغيرهم وغيرهم، يحملنا إنجاز الكتابة الإبداعية الجديدة في مصر خلال نصف قرن على توكيد اعتبار التجربة الفردية والاجتماعية معاً من عمقها وتنوعها. ولعل مما يلفت انتباهنا في هذا الشأن ما قد يجبهنا من تناقض ظاهري بين منطلقات هذا النتاج الإبداعي الواقعية أو حتى الطبيعية، وبين مطامحه ومراميه الرمزية، على الأقل فيما يتصل باللغة والتقنية. وهو الحكم الذي ينطبق على "عطشى لماء البحر" أكثر من انطباقه على غيرها من الإبداع القصصي على مدى العقود الثلاثة المنصرمة. فليس من العسير علينا رؤية "محمد إبراهيم مبروك" وهو يتوسل بالنثر المحموم السيال مستقصياً "حقيقة الوجود الحقيقية"

بمساءلة الفكر والانفعال المتدفقين المتراقصين والمعتمين بالظلال، حيث يستحيل النثر شعرا، ودون أن نعنى بتقريرنا هذا أى حكم من أحكام القيمة، إن سلبا أو إيجابا:

"وشاهدت الليل يوشك على البدء فى السقوط، فرأيتك يا عذراء تمدين لى جسدك عبر الأمواج الليلية، وأخذت أحدق مشدوها من الجسر المتوهج الممتد من أول ساحل الجدب المتسع ورائى حيث المحارات الفارغة تحت مناقير الطيور الجافة، وعظام الهياكل العارية على هياكل السمك الميت، ومحاجر العيون الخاوية..." إلى آخر الفقرة ص ٤٤.

إن ما يبدأ كمحاولة لاطباق عدسة العقل لالتقاط صورة الواقع الذى يجبه الذات، يغدو، ومن صلية الكلام الأولى، صورة انطباعية متفجرة هادرة ومجلجلة. ولما كانت مطالبتة ها هنا بعمل رهيب يفوق طاقتها التعبيرية، إذ يوكل إليها نقل تجربة الكاتب بعمقها واتساعها، مجسدة طيوف الحياة الزاهية وتفتحها، ومعيدة تكوين اللحظات المضيئة والمعتمة من الذاكرة والشعور، فلا غرابة أن نمسى قريبين للغاية، وأكثر من أى لحظة مضت، من الكفر بها، ومن ثم الوقوع فى براثن إغواء الصمت. فالكلمات، بكل غناها وثرائها وقابليتها لحمل المعنى وظلاله، لا تزال جافة صلبة على نحو يشرخ القلب ويدفع إلى اليأس والنكوص:

"آسف إذا وثقت الآن إننى عاجز عن نقل هذه اللحظة لك، وأن حبر الطباعة لا يمكنه أن يفعل أكثر من أن يكون حبر طباعة." ص ٤٣.

كم من الشعراء قد كابد هذه الحقيقة البسيطة التناقضية المدهشة ذاتها؟

وهل من معنى هنا للأسف أو الإشفاق أو التفجع؟

يستطع الشاعر أن يسمح لنفسه أحياناً ببعض العزاء، أو بنوع من الصوم النصفى على نحو ما فعل "مبروك" سواء بمقاربته للكتابة الإبداعية والنقدية من حين لآخر، أو باستتاره فى سمت المترجم عن الآداب الأجنبية. وفى هذا وذاك سيكون شاعرنا هو نفسه، حتى وإن أنكرنا عليه نفسه بدافع من احتياجنا إلى ما هو أكثر من نفسه؛ أعنى عطشنا إلى أنفسنا نحن التى نأمل فى لقياها عنده. ومن غير المصدق أن يتبدل مصير المنغرس فى سهوب الروح وما ينطوى عليه من أصول سرية ناشطاً فى الصمت، وإن بهت لونه وغاض رونقه فى إلهام الترجمة ضحل الغور. أمّا نحن الهاربين من الاعتقاد إلى الأدب، نتعلق بأذياله ونصب فيه همومنا ومشاغلنا فنظل ننتظر من شاعرنا أن يطرح عنه هرطقة صمته، تؤجج حاجتنا العنود إلى الصعود والتجاوز عبر كلماته وأناشيده المرفوعة.

يجدر بنا فى هذه العجالة أن نتأمل قليلاً فى قدرة اللغة على تسجيل التجربة الداخلية تسجيلاً يشجّع الكاتبُ – وإن مؤقتاً – على التصالح معها. ويقينى أنه كلما تزايد احتشاد المادة الذاتية الباطنية فى القصة، كلما طرأت تعديلات وخروجات على المفاهيم المستقرة للزمان والمكان والموضوع وغيرها، مما يعد القارئ ويهيئه لقبول تصدع السرد الكلاسيكى. وفى "عطشى لماء البحر" سنجد محاولة الكاتب للقبض على الحدث الشعورى خارج حيلة السرد. وعن طريق اللا تحدد السيكولوجى المستوحى من إبهام المشاعر التى يحياها راوينا واقعياً، تهرب القصص من الموضعة المسرحية، منحدرة بعناد وإصرار أعمق فأعمق نحو مستنقع الحياة الباطنية الموّار. وعليه فمن المحتمل جداً أن يوحى هذا الأسلوب اللاسردى

للقارئ قليل الصبر، أن النص مضطرب مشتـــت ومفتقــر للحقيقــة المنطقية. ومن جانبي فإنني لا أقدر إلا على التماس بعض العذر لهذا القارئ بسبب من التناقض والاستقطاب الحاد الذي نلقـــاه فــي هــذه الزاوية أو تلك من النص. غير أننا نحدس - ومنذ البداية - أن ثمــة متعة بعينها تنتظر القارئ الصبور المثابر، ألا وهي متعة مشاركتـــه للكاتب في رؤية وإعادة تكوين مالا تقدمه لنا الحيـــاة إلا علـــى نحـــو غامض ومبعثر للغاية، ليصير السرد بفعل ذكـــاء النـــص ومنطقـــه اللامرئي أقل إلغازا وأوضح سطوعا. ويراهن "مبروك" مع المراهنين على أن إنسان بلدنا وزمننا سيجد جوابه المنشود عن قلقه الكبير فـــي تلك التجارب الـــرمزية التي يتم التأمل فيها دون فهمها فهما كـــاملا، مع ذلك أو بسببه:

"دعك من السؤال، في ذلك العالم لا يمكن أن يسأل أحـــد. إذا لم يمت سؤالك فسوف تموت أنت. بل حتى أنت لا تملك أن تحيـــا أو تموت. كل ما تملكه أن تعاني وجودك، وأن تحـــدق فـــي المســـتحيل بصمت." ص٣٩.

تكتب الكتب لتعيش إنطلاقا من موت كتابـــها متطلعـــة إلـــى الخلود، إلى العود الأبدي في عقل ووجدان قارئـــها الـــذي يضـــاف ويضيف إليها . أما تلك التي لا تملك في ذاتها أسباب بقائها ولا تغري أحدا بإعـــادة قراءتها، فإنها غير جديرة إلا بأن تطرح جانبا بلا أسف، ومنذ البداية. وإنه لما يبعث على الدهشة والإعجاب والغيرة معـــا أن تظل آهات وصرخات "محمد إبراهيم مبروك" الذي طلع علينا في سن الثالثة أو الرابعة والعشرين، من ليل التكـــرار والانصيـــاع للقوالـــب التعبيرية المتكلسة، أو من فوضى التجريب المفتعل والحداثة الشريدة، متحديا تزمت الشيوخ وتمرد المراهقة، وصاعدا على درب التحديـــث

الراشد عبر قصصه الرائدة: "نزف صوت صمت نصف طائر"، "مسيح المراسيم المحالة"، جحيم أبد الرحم"، شلالات الكهف الداعر"، ثم "عطشي لماء البحر"... أقول إنه ما من عجب في اختراق تلك الصرخات سمع ووعي وضمير قارئ وكاتب من جيل تال ، يجهد هو الآخر في إطلاق بعض من صرخاته الخاصة، معترفا. بما حفرته "عطشي لماء البحر" من أخاديد وندوب وأنهار غافية في صمت روحه.

حسني حسن

الإسكندرية - ديسمبر ١٩٩٨

محمد إبراهيم مبروك

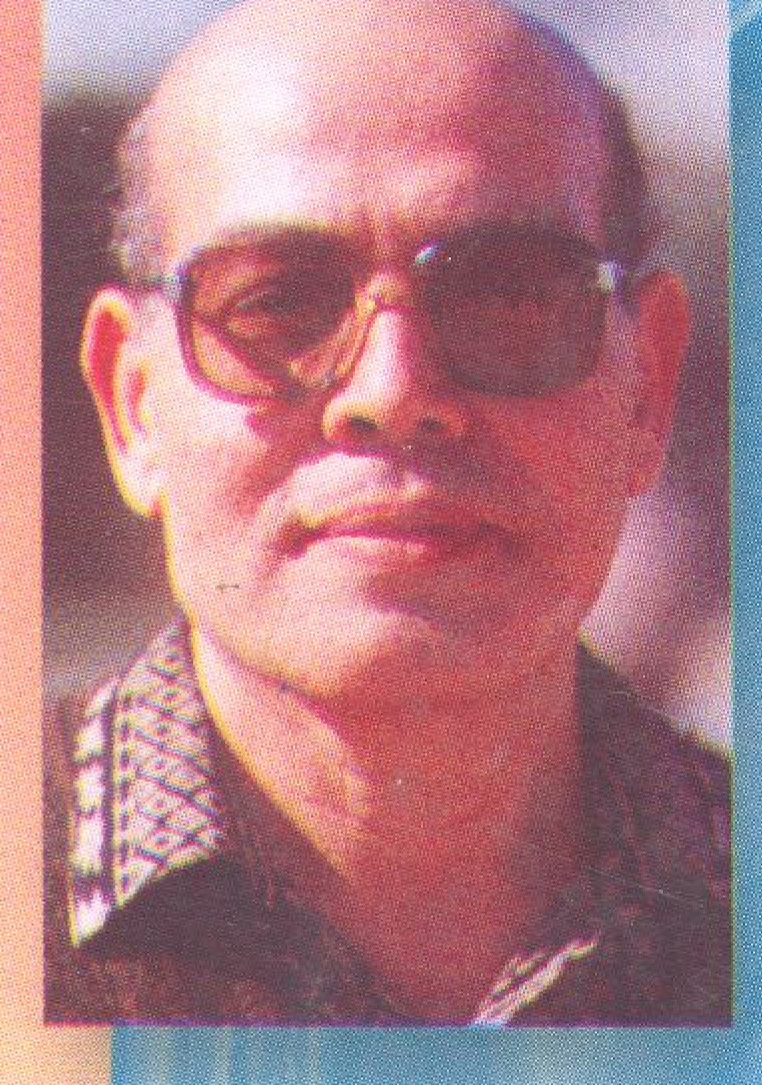
- قاص ومترجم مصرى. ولد فى أول يناير عام ١٩٤٣ بقرية طملاى. منوفيه.
- منذ نشر أول قصة قصيرة له بمجلة المجلة والتى نشرها له يحيى حقى وهى " نزف صوت صمت نصف طائر" أكتوبر ١٩٦٦ احتل مبروك مكانته فى طليعة كتاب القصة القصيرة المجددين من جيل الستينات.
- شارك فى هيئة تحرير أول مَجلة مستقلة للمبدعين المصريين "جاليرى٦٨"
- شارك فى تأسيس جمعية "كتاب الغد"
- شارك فى إصدار كراسة "النديم" غير الدورية بالإسكندرية
- نشرت أعماله القصصية فى مجلات :

- المجلة (القاهرية)- جاليرى ٦٨ - الفكر المعاصر - سنابل - أدب الغد - مواقف (التى يصدرها أدونيس) - درس اللغة الإسبانية فى السنوات الأخيرة ضمن إهتماماته بآداب أمريكا اللاتينية وإسبانيا وترجم عنها مختارات من أمريكا اللاتينيه بعنوان "وسم السيف وقصص أخرى" وصدرت ١٩٩٩ عن المجلس الأعلى للثقافة ضمن المشروع القومى للترجمه.

تنويه لابد منه

• محمد إبراهيم مبروك : القاص منذ الستينيات والمترجم عن الاسبانية فى التسعينات، لا تخصه ولا يصح أن تنسب إليه كتابات صحيفة وكتب تدور فى دائرة (الفكر الإسلامى ومواضيع شتى) لكاتب سمح لنفسه – دون وجه حق – أن ينشر فى السنوات العشر الأخيرة كتاباته تلك تحت الإسم الثلاثى نفسه للكاتب الذى سبقه بربع قرن !

م . ا. مبروك القاهرة . أكتوبر ١٩٩٩.



محمد إبراهيم مبروك
(يناير ١٩٤٣)

المستحيل يا آذانا طينيه، مستحيل الرؤية مستحيل الاحتمال ، و ما حدث وكان أقسى من إحتماله تحوله بقطاعة إلى الـ ( ) هذا الذى صار ممكنا . بلا توقع أبداً و من جوف الصمت الهادئ المتظاهر باللا اكتراث القابع فى منحنى ليس شديد الظلمة بقدر ما هو ملون بالظلال المتطاولة تتماوج بأنفاس ليست للريح ، أخذ بيد أصوات الحدوث : محالا قادماً بتؤده كما لو أنه ليس غريباً، موغلا فى الوجود على حساب تخلينا عن إستغراب وجوده، محققاً نفسه بتراجعنا وفرارنافى الصمت ، سارقاً أرضنا من تحت أقدامنا ، والغريب أننا لا نبدأ فى الإكتشاف إلا متأخراً جداً فى اللحظة التى نرى فيها أرضنا تدور بعيدة عنا ونحن نهوى فى الهوة السحيقة التى ليست تحتها أرض ، حيث ( ) حين ( ) أبداً . اللامعنى هو المعنى الوحيد لأية صرخة تطلب النجدة ، في الهوة لا أحد ينجد أحدا، لأن لا أحد يملك أرضاً يقف عليها ، فكيف وهو يهوى سيثبت نفسه و ينتشل طالب النجدةو ذلك بفرض أنه إستطاع أن يعبر المستحيل، ويوقف تهاويه ليدير إليه رأسه، وينصت إلى صرخاته!